

ثلاثية الأنفوشي "أبكتني نهرا"

رواية

محمد عزام

الطبعة الأولى

2020 م - 1442 هـ

ديوان العرب

للنشر والتوزيع





ملحوظة: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف

عنوان الكتاب: ثلاثية الأنفوشي – أبكتني نهرا

اسم المؤلف: محمد عزام

التصنيف الأدبي: رواية

رقم الإيداع: 2020 / 20441

الترقيم الدولي: 5 - 87 - 6830 - 977 - 978



تصميم الغلاف: د. محمد وجيه

التدقيق اللغوي: د. هبة ماردين

التسويق الداخلي: د. محمد وجيه

رقم الطبعة: الطبعة الأولى

المدير العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.



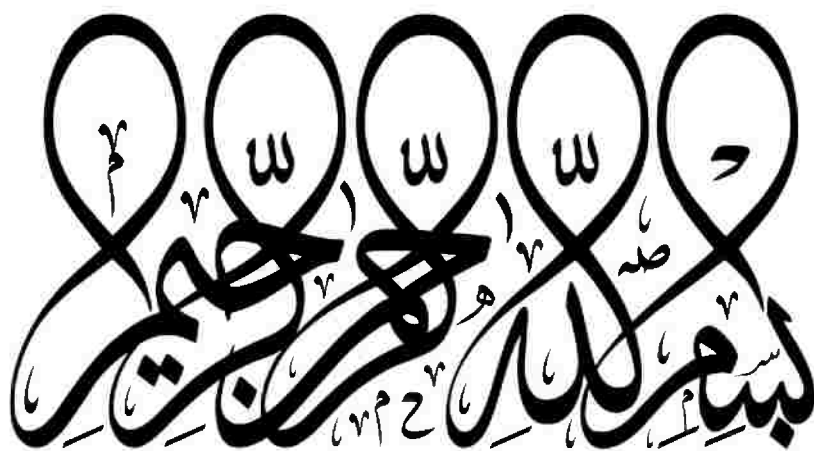


ثلاثية الأنفوشي " أبكتي نهرا "

رواية

محمد عزام





هَذَا

أبانا لطفي وأمنا شريفة...

أنا المحب والعاشق والزاني، هي حياقي التي أحيأها ولا أحب أحد أن يتدخل في حي وعشقي لكل ما هو جميل وأحبه، عجيب يا وطن ترى كل المفاعيل وكل المهالك والضياع والخراب، لصوص وخونة وعملاء لكل من يريد أن يغتصب الوطن.

أين هؤلاء القوم الخادعين لكل ما هو طيب ونافع وصالح، أنا لست بصعلوك أنا إنسان أحب أن أحيأ الحياة كما أشاء، ضري لنفسي وخيري للناس، حياقي كلمتي أشم رائحة الفكرة وعناد المبدأ وصبر الرجال، ومناسكي فكري وعقيديتي لي وحدي، سأرحل وسيأتي غيري وغيري، لم يقدر أحد من إسكات فكري والخوض في عقلي وسماع أنين قلبي..

الآن أنهي قصتي ويأتي من يكتب بعدي ويكمل رسالتي وروايتي...

(((الطائر الحافي)))

"ثلاثية الأنفوشي"

الأنفوشي
الجزء الأول

في استحياء نظر لقطعة المرأة على الحائط وهمس:

- ما أجمل حاجبي، ثم إلى جسده، قوة قد حان وقتها

فأخيراً سوف يزف إلى عروسه ويُغلق عليهما باب واحد تحس الجاكت
ثم البنطال الواسع، الكل متناسق، ثم نظر إلى قدميه، إلا هذا الحذاء، فقد
استعاره من شقيقه سالم، حاول بقدر ما يستطيع أن يجعله في صورة الحذاء
الجديد، مسح يديه من بقايا ورنيش الحذاء وبلل بدلته بماء الورد ثم
التفت حول نفسه، تنبه إلى صوت شقيقته من الخارج تحته على الخروج
فقد حضر المأذون، كان واثقاً أن هذه الزيجة رابحة، فزوجته من عائلة
مازالت تحمل علامات الثراء من أراضٍ مشتتة بين أقاليم وجه بحرى
ورصيد لا بأس به من المال، كان كل ذلك يمنحه الطمأنينة والأمن، فإن
عمله في حرفة التجارة مازال عمل موسميّ ينتعش، ثم يخذ أوقات كثيرة
فلا مانع أن يأكل من ثروتها حتى يأتيه الفرج نظر مرة أخرى إلى تناسق
ملابسه، كان ما يحزنه هذا الحذاء فالناظر إليه يعرف من أول نظرة أنه
حذاء مستعمل، أصوات الزغاريد تقترب فُتح أخيراً باب الغرفة استقبل
التهاني والمباركة التف حوله أصدقاؤه وأبناء عمومته، فهم لا يحضرون إلا
في اجتماع عرس أو توديع متوفى إلى مثواه بالقبور، جلس يسامرهم
ويضحك مختلساً النظر إلى حذائه المختبئ تحت مقعده عسى أن لا يراه
أحد، كانت هناك عين تراقبه سالم شقيقه صاحب الحذاء، كان يخفي
ابتسامته وقد فهم حركات شقيقه بمحاولته إخفاء قدميه تحت المقعد، تمت

مراسم الزواج، وانطلقت الزغاريد من النساء، بدأ العرق يتساقط في ظهره متجهاً إلى مؤخرته أمسك بيد عروسه فائزاً بها، والتي ستكون له سنداً في شقائه في هذه الحياة، تقدمت أمامهم الراقصة تزفهم، سلط بصره على جسدها الممتلئ لحماً وشحماً وأنوثة تفوح من نهديها، وشفاتها الغليظتان كل شيء كان يهتز بجسدها، تعجب على قناعتها مقابل ما تبعثر من خصوصيتها على الجميع بنصف ريال فضة دفعه ابن عمه محمد أفندي زوج شقيقته جميلة صاحبة فكرة زواجه من هذه العروس الثرية، بنت صاحب الأطيان الراحل من الحياة وشقيق واحد متزوج وزوج أم عم العروس المتولي أمور الأموال والأطيان، انتهزت شقيقته جميلة كل هذه الظروف لتزوجه بها، أخرجته يد العروس من تأملاته بإراحة يدها من قبضة يده، أعطى لها الحرية انسابت أمامه على درجات السلم تلملم ذيل فستانها وطرحتها فطابور المودعين بدأ يهرسه بالأقدام ابتسمت له تمنى أن تدوم هذه البسمة على شفثيها ولكن كان يعرف جيداً بأن هذه البسمة ستكون لها نهاية، متى؟ لا يعلم، كانت هذه فلسفته التي عاش عليها منذ قدومه إلى الحياة وفراق أبوه لأمه وزواجه من أخرى، كانت أمه تميل دائماً إلى أهلها وعائلتها المحترمة طبقة البروليتاريان واختلافها مع زوجها والنظر إليه بأنه من طبقة أرستقراطية رغم تعثرها فما زالت تلبس هذا الرداء، كانت تفضل تناول الطعام على الطاولة القصيرة التي تكاد تعلو بضع بوصات عن الأرض، تاركة الطاولة العريضة العالية المزودة بالرخام الأبيض لزوجها

(والبيرة) المثلجة بجانب الطعام بدلاً من الماء، قد اختار هو تقديم الولاء لأهل أمه وتربعها على الطاولة القصيرة وحبه لخاله صانع الموبيليا، الرجل الكادح منذ ولادته يحمل علامات الشقاء على وجهه وكفيه تاركاً جميلة وشقيقه سالم في كتلة الأرستقراط مع والده وزواج جميلة من ابن عمها محمد أفندي الرجل المترف وحبيب عمه والد جميلة.

وصل أخيراً إلى نهاية درجات السلم، أخذ بيد عروسه مودعاً لأصحابه وأقاربه، تنبه إلى عروسه تنظر لاهثة كان يعرف عن ماذا تبحث، فأم العروس لم تحضر الحفل، خالتها وشقيقها فقط وأهل حارتها حضروا للمباركة، دفعها برفق إلى الحنطور المزين بأكوام من الزهور، كانت عيناها تراقب المارة تبحث عن أمها تحرك الحنطور ابتسمت له وأمالت برأسها على كتفه، أخذ يرشد السائق (العربي) بين شوارع وحواري حتى وصل إلى الأنفوشي حيث منزل الزوجية، أنزلها بحرص شديد، فهو يريد أن يشعرها من أول يوم أنه يحبها حباً كبيراً، أمسكت بذيل فستانها لتصعد درجات السلم الأربع، فشقة الزوجية في الدور الأول، توقفت العروس التفتت أسفل قدميها، رد على نظراتها أن هناك سكان يقطنون في بدروم المنزل أسفل شقتها، أخيراً جمعتهم شقة الزوجية، كانت الشقة مرتبة جيداً تركت يده وتوجهت إلى غرفة النوم، جلس هو الآخر ليستريح من عناء هذا اليوم، تذكر الحذاء خلعه بسرعة من قدميه ليخفيه عن أعين عروسه، نظر إلى الطعام على طاولة السفرة، جلس بجانبه حاول أن يختلس النظرات إلى

غرفة النوم وتردد هل يدخل أم ينتظر ليرى ماذا ستكون الخطوة القادمة، خرجت إليه ترتدي قميص نوم حريري أظهرها في صورة صارخة الجمال، كانت مثل فاتنة من فانتات هوليود حبيبات فراشه الرطب الخشن في مسكن أمه اقترب منها أخذ بيدها وقبلها كما شاهد في السينما، ثم دلف إلى غرفة النوم لخلع ملابسه وارتداء جلبابه، خرج جلس إلى جوارها أخرجت أول كلماتها في مسكن الزوجية:

- الطعام لم يبرد، خالتي دائماً ترتب كل شيء أحسن من أي وضعت وجهها بين كفيها وهي تجهش بالبكاء:
- هي فين أي؟!

ربت على ظهرها وبخنان مسح دموعها بظهر يديه وتشجع ليظهر لها مدى تعاطفه معها:

- يا ستي أنت تعرفين أمك وظروف عمك، من يوم ما تزوجته وهي بعيدة مطمئنة بوجود خالتك بجانبك
دلف الاثنان إلى غرفة النوم

مرت الأيام، كانت من أحلى أيام عمره ، فهو يحاول بقدر ما يستطيع أن يوفر لها أسباب الحياة الكريمة المتوسطة المستورة، كما يفهمها هو، أما هي فدائماً تشعره بأنها بنت حسب ونسب كان واضحاً في بروتوكول المعيشة من طعام وملبس وسلوكيات وخاصة مع الجيران وأولهما جارتها الست أم حلويات التي وضعت زوجته في موضع كاتمة الأسرار لها ولأولادها ومتنفساً للشكوى من زوجها بائع الخضار المتجول، هي تنفذ كلمات زوجته شريفة بكل عناية واقتناع، فكم كانت تشعر شريفة بالسعادة بمدى اقتناع أم حلويات بها، أخرجته حرارة الشمس من تأملاته أنهى احتساء كوب الشاي، حضر النادل لأخذ الحساب ليسلم الوردية لزميل بعد الظهيرة نظر لطفي إلى ساعته، قد اقتربت من الثالثة خرج معكر المزاج، ثلاثة أيام مضت ولا يوجد عمل بورشة النجارة، أخذ يفكر كيف يواجه شريفة بعد نفاذ نقوده، لم يبق معه غير قروش قليلةٍ أسرع في السير، عازماً على أن ينهي الموقف بمواجهة زوجته شريفة ومعرفة أحواله، وصل أخيراً إلى المنزل وكما اعتاد ثلاث دقائق على الباب، فتحت له شريفة تستقبله بابتسامتها الفاتنة أسرع بمساعدته في ارتداء الجلباب نظر للطعام على المائدة، أصناف كثيرة ، لم تعطِ له فرصة بالسؤال، أخبرته بذهابها إلى سوق الميدان وجاءت بخزين الأسبوع، استغل لطفي حديثها وأخبرها بأنه لم يعمل منذ ثلاثة أيام وشحيح مادة الكحول بسبب حرب الألمان وارتفاع سعره بإسعار لا تناسب صاحب الورشة التي يعمل بها واكتفاء صاحب الورشة

بمساعده هو وزملاؤه بقليل من القروش لحين انخفاض سعر الكحول ،
 ابتمت شريفة ، أخرجت (الجوزلان) من صدرها وأفرغته بجانبه، كان به
 من المال ما يكفي على أكثر من شهر من المعيشة المستقرة، تناول يدها
 وقبلها، انسحبت متجهة إلى غرفة الطعام أحضرت الشاي كانت جلستهم
 المفضلة خلف قضبان النافذة المطلة على شاطئ بحر الأنفوشي هذه من أهم
 الميزات التي كان يفتخر بها بين أقاربه بمسكنه أمام الشاطئ وقصر رأس
 التين ومشاهدة للملك فاروق في أوقات كثيرة خلال العام، أخذ يرتشف
 الشاي محتلساً النظر إلى شريفة كان مفتوناً بجمالها وهذا التناسق العجيب
 من الوجه حتى القدم، لاحظ وجهها الشاحب لم تعطه فرصة للسؤال
 اتجهت مسرعة إلى الحمام تقيأت فهم أنّها حامل عادت إليه في خطوات
 مترددة تنظر إليه تنتظر إجابته على حملها، قام بإلقاء القبلات على جبهتها
 مباركاً للحمل، أخذ يرتشف الشاي في هدوء ناظراً إلى البحر

هبت شريفة من النوم على دقائق باب الشقة، نظرت بجانبها لم تجد لطفي، كانت هذه عادته أن يخرج في صمت، أسرع بفتح الباب، وكانت المفاجأة أمها أم صابر وشقيقتها الخالة نرجس، رحبت شريفة بخالتها كثيراً التي أراحته في صدر أمها، أخذت تبكي في حضن الأم، قامت الخالة بإنهاء العتاب الباكي بين شريفة وأمها، بدأت تستدرج شريفة في كشف أحوال معيشتها مع لطفي، أخبرتهم بأنه عاطل عن العمل معللة بشحیح الكحول من السوق، أسرع الأم إلى كيسة النقود من صدرها، وضعت في حجر شريفة الكثير، خيم الصمت عليهن، انسحبت شريفة إلى الحمام تقيأت عادت لترى ملامح الخبر على الأم والخالة، ومدى تقبلهم للحمل كانت الأم جامدة لم تبد أي فرح على وجهها كانت الخالة عكس ذلك ضمتها إلى صدرها مريحة بهذا الخبر مطمئنة لها بسرعة حل مشكلة العمل لزوجها بإخبار صابر شقيقها بإيجاد عمل للطفي، مركزه قوي بالقوات البحرية، لم تنتبه شريفة وخالتها بغياب أم صابر وخروجها من المنزل، سألتها عم من يزورها من أقارب زوجها، كان الرد موجزاً بعدم حضور أحد غير أبناء عمه سعد ومصطفى للجلوس بجانب النافذة المطلة على الشاطئ وإعجابهم بمرور العربات الملكية إلى قصر رأس التين انتبهت شريفة وخالتها بوصول أم صابر تحمل أكياس ممتلئة بالطعام والفاكهة، همت شريفة وخالتها بإعداد الطعام فقد اقترب ميعاد وصول زوجها لطفي، خرجت شريفة من

غرفة الطعام إلى باب الشقة ابتسمت فالقادمة أم حلويات ساكنة
البدروم، تحمل طبق من الليمون المخلل، علقت أم صابر :
- طبعاً محلل رشيدي حتماً يكون معتق
ضحكت شريفة وأمها، بينما وقفت أم حلويات، لم تعرف كيف ترد على أم
صابر غير أنها ضحكت استأذنت بالعودة إلى شقتها، ودعتها شريفة لتعود
للجلوس مع الخالة والأم في انتظار عودة زوجها لطفي
مرت الساعات ولم يحضر أدركت خالتها الموقف أمرت شريفة بمساعدتها
في إحضار الطعام حرصاً على ما تحمل في أحشائها والاهتمام بصحتها قامت
أم صابر بالاسترخاء ثم تبعتها أختها نرجس، جلست شريفة بجانب النافذة
تنتظر زوجها مرت ساعة أخرى ولم يحضر استسلمت للنعاس مستندة على
حافة النافذة وذهبت في نوم عميق

سماء صافية، هواء منعش، نوافذ مفتوحة وأخرى مغلقة امرأة تلملم غسيلها وأخرى تنادي على بائع الفول المدمس وجارة تكلم جارتها من الأسطح وشاب ينظر مستجمعاً نظراته في صدر امرأة معلقة على جدار الشرفة غير عابئة بمنظر صدرها وبروزه كان لطفي يشاهد هذه اللوحة من خلال جلوسه في مقهى سوق الترك خلف شارع فرنسا، هي المركز الرئيسي لأصحاب مهنته نظر إلى كوب الشاي اقترب على الانتهاء نظر إلى ساعته كانت عقاربها تقترب من الخامسة مساءً، انتبه لخلو المقهى من العاطلين أمثاله ولم يتبقَّ إلا هو لم يفكر في العودة إلى المنزل أخرج قطعة القماش أخذ يمسح وجهه ليس من التراب، بل من الدموع فقد بدأت تنساب من عينيه رغم محاولته صدها ولكن لا فائدة تناول كوب الماء ابتلع قطرات قليلة عسى أن تأخذ مرارة الأسى نظر إلى المارة مرة أخرى كانت المفاجأة خاله قادم نحوه أراد أن لا يلتفت إليه ويمر دون أن يلاحظه فهو مثله عاطل عن العمل لنفس السبب شحيح الكحول من السوق، بادره خاله بالتحية ثم جلس بجانبه في صمت أسرع النادل إليهما أمره لطفي بإحضار كوب من الشاي بادره خاله:

- بدون سكر

ابتسم لطفي لخاله:

- حتى يا خالي السكر والحلاوة لا تلزم ولا في التمتع بالمذاق ضحك الخال وأمسك بيد لطفي وقبض عليها بشدة:

-يدك هذه تأتي لك بالسكر والخير بدلاً من الجلوس في المقهى، وهل أنت مبسوط على هذا الحال؟!

شرح له لطفي عدم رحمة المعلم صاحب الورشة بأحواله هو وزملائه وموقف زوجته شريفة وتعاونها معه في أعباء ومصاريف المنزل وعدم قدرته على التصرف في أي شيء ينقذه ويخرجه من هذه الضائقة الصعبة، وعدم وجود حل غير الجلوس بالمقهى حتى يأتي الفرج، قطع خاله الحديث: -أنت بعيد عن الحل ويجب أن تفكر، أنت الآن مسؤول عن بيت ومصاريف والتزامات قاطعه لطفي:

- علاوة عن قدوم مولود في الطريق - ضحك الخال وأكمل حديثه، بأن المسؤولية أصبحت أكبر، ويجب أن تسعى لإيجاد عمل لتغطية حاجاتكم من طعام وغيره من الأشياء المهمة في حياتكم

أحضر النادل كوب الشاي كانت الفرصة للطفي ليسرح مع أحلامه مع شريفة والمولود القادم همس:

- يا ترى ماذا أحضر لي خالي من المفاجآت، نقود لا أظن فإن حاله مثلي كان الفارق بينه وبين خاله، أن خاله أعزب لم يتزوج وليس عليه مسؤولية، فهو قادر على أن يعيش بأقل قدر من المال، كما أنه من الممكن أن يكتفي بوجبة واحدة طوال اليوم مثله قبل الزواج، وتذكر كيف كان

دائماً يحمل في جيب بنطله كسرة الخبز فإذا شعر بالجوع أخرج الكسرة وتناولها مع كوب من الشاي، لاحظ خاله ينظر إليه ويبتسم، اطمأن فخاله يحمل إذا أخباراً سارة أخيراً تكلم الخال:

- غداً تسافر إلى دمياط، تذهب إلى الحاج بسيوني تاجر الموبيليا، أسبوع وشهر حتى يأتي الفرج ويتوفر الكحول بالإسكندرية وتعود
- قاطعه لطفي وهل الكحول متوفر في دمياط؟!

أخبره خاله بأنهم هناك يعملون لكل يوم حسابه وليس مثل أهل الإسكندرية يعيشون يومهم فقط، فأنت جالس بالمقهى وشرب شاي ولا على خاطرك من يوم مثل هذا وقد حصل، ماذا فعلت؟!

طأطأ لطفي رأسه إلى الأرض، يريد أن يهرب من مواجهة خاله، فهو أحب الناس إليه، أمسكه خاله من كتفيه وأكمل الحديث

- يا سيدي أنا أعرف، لا تريد أن تبتعد عن حضن امرأتك لكن الضرورة لها حكمها، والأيام القادمة ستدخل على مصروفات وعلاج ودكتور وولادة وسبوع.

نظر إليه بنظرة تحدى وإصرار على مواجهة الموقف كما أمره قام بالاستفسار عن كيفية السفر وليس معه نقود؟ هل يعود إلى المنزل ويقترض من زوجته مصاريف السفر؟

كانت إجابة خاله سريعة، أخرج حافظة نقوده ووضع بعض النقود في يده، لم يقدر أن ينبس بكلمة واحدة غير أن يشكره وأخبره بالقيام بالسفر

غداً إلى دمياط حتى يأتي الفرج إلى الإسكندرية، أمره خاله بالعودة إلى امرأته فإن الوقت قد تأخر، شكره مرة أخرى وودعه بالقبلات أسرع بالعودة إلى المنزل وفي الطريق أخرج نقود خاله، كانت تكفي لمدة ثلاثة أيام، أحس بالراحة وتذكر عدم وجود خبز عرج إلى حارة (الشاروني) حيث يوجد عم محمد بائع الخبز وعم ياقوت البقال، أحضر ما يلزم واصل السير في اتجاه المنزل، بدأ في ترتيب فكره لمواجهة امرأته وسفره إلى دمياط، وكيف يكون وقع الخبر عليها؟ فقد كان زواجها منه المفاز الآمن بعد العناء والاضطراب التي كانت تعانيه من أمها وزوج أمها كانت شريفة دائماً تشعره بأنه قد أنقذها من عذاب الصباح والمساء من أمٍّ لاهية وعمٍّ لا يريد غير أن يشبع رغباته من أمها، فهو لا عمل ولا أعمال ميراث شقيقه، يجلس عليه متربعا يصرف بسخاء على نزواته، وكان أول ما يبدأ به مع أمها أم صابر اقترب من المنزل، مسح العرق من على جبهته، فقد حان وقت المواجهة، كانت شريفة تنظر من النافذة في انتظاره، ابتسم لم ترد الابتسامة أسرعته باستقباله، نظرت إلى عينيه، وقبل أن يتكلم حملت ما معه من خبز وشاي، انتشى لطفي رائحة الطعام تملأ الغرفة مع طغيان رائحة اللحم المسلوق، نظر إليها وكانت الإجابة:

-خالتي وأمي حضروا اليوم وانتظرنا كثيراً، ولكنك تأخرت، حاولت تأخيرهم وإقناعهم بالانتظار ولكنهم أصروا على الرحيل

اتجهت إلى غرفة المطبخ، توجه إلى غرفة النوم لخلع ملابسه، وجد أكياس الفاكهة بجانب الفراش زادت فرحته، فهناك لحم وفاكهة، أسرع بالخروج على صوت شريفة بإعداد الطعام، نظرت إليه بابتسامة رضا وسعادة فقد حضر ليذهب عنها القلق وتكتمل فرحتها بفرحه للطعام، خيم الصمت عليهم مشوشاً بحركة الأيدي من المائدة إلى فم يستقبل وأسنان تمضغ، أما لطفي كان الصمت يدق بداخله أجراس السعادة، أقبلت شريفة تحمل أكواب الشاي ولكنه كسر قاعدة احتساء الشاي بعد تناول الطعام فهي لا تعلم باحترق قلبه في صباح هذا اليوم واحتساؤه الشاي بالمقهى وهو على لحم بطنه ذكرها بالفاكهة عادت إليه تحمل الفاكهة وطبق الجبن المملح، استراح من وحم امرأته فهي تتوحم بقناعة وعلى قدر المستطاع وفي متناول يده، تابع التلذذ بالتهام الفاكهة، دلف إلى حجرة النوم تدور رأسه بكيفية إخبارها بسفره غداً للعمل بمدينة دمياط، مرّ الوقت بطيئاً، أحسَّ أنَّ هذه الليلة ستكون طويلة أمسك بفراش نومه، كان من الحرير الأملس وردي اللون مزركشاً بالخيوط الذهبية، همس:

- كم يتغيب عن هذا الفراش الناعم؟! لا يعلم فالأمر متوقف على مدة العمل بمدينة دمياط.

لاحظ غياب شريفة من اللحاق به في غرفة النوم خرج إلى الصلاة، كانت تبكي ارتبكت وقامت تبتسم له، معلنة بحضور خاله إبراهيم وإخبارها بسفر زوجها إلى مدينة دمياط للعمل، استراح من عمل خاله وأداء مهمة إبلاغها وأن لطفي عمله بدمياط لن يزيد عن شهر ثم العودة إلى حبيبته الإسكندرية.

استيقظ مع آذان الفجر دون أن تشعر شريفة، تناول كوب الشاي مع كسرة الخبز، ارتدى ملابسه، وقف متردداً هل من الأفضل أن يترك لها بعض النقود؟ أخرج من جيبه ريال فضة، بهدوء عاد إلى غرفة النوم متجهاً إلى منضدة تسريحة شريفة، فوجئ بجنيهاً مرتبة بجانب المرأة، اطمأن وهم بأخذ بعضها، تراجع واكتفى بما يحمل من نقود خاله إبراهيم، انسحب متجهاً إلى الشارع، وقف منتظراً الترام ولم ينس أن يملأ أنفه بالهواء المعطر بيود بحر الأنفوشي، لم ينتظر طويلاً حضرت ترام الخط الدائري، جلس بجانب النافذة ينظر للشاطئ، كانت الترام خاوية من الركاب، تذكر أيام سفره إلى مدينة رشيد، فهي من أهم صفحات حياته وذكرياته خاصة في بداية عمله بحرفة الأسترجي (ملمع) الموييليا، تذكر امرأته، هل مازالت نائمة؟ أم استيقظت لتتفاجأ بمغادرته البيت وسفره، مسح وجهه بقطعة القماش التي حاكتها له شريفة لتكون كمنزلة المنديل، انتصب واقفاً فقد جاءت محطته (محطة مصر)، أسرع خطواته نحو موقف السيارات، حاول الالتفات إلى الجرائد المعلقة على سور المحطة، كان يريد أن يتسكع، همس:

- لماذا التردد فزوجته تراها خالتها وأما وأيضاً جارتها أم حلويات، فلا داعي للقلق.

واصل المسير تحت أصوات منادي سيارات الأجرة بالموقف، وصل إلى سيارة دمياط، دس جسده بالسيارة مستسلماً للمجهول، ارتعشت أطرافه هل من برودة الهواء؟ أم من برودة السفر وترك حبيبته شريفة؟ أم من عدم توفيقه

بالعمل؟ أو وفاة الحاج بسيوني صاحب معارض الموبيليا بمدينة دمياط؟ أم من عدم حاجة الحاج له؟ تذكر كلمات خاله إبراهيم:

- لن تمكث بدمياط أكثر من شهر ثم تعود إلينا

اكتملت السيارة ثم انطلقت مغادرة لحبيته الإسكندرية، داهمه النوم وكان هذا ما يتمناه، فتح عينيه قد وصل أخيراً إلى دمياط، فرك عينيه وبدأت خطواته البطيئة متجهاً إلى محلات الحاج بسيوني متبعاً لإشارة خاله بمكان المعارض، ارتعشت أطرافه كانت المحلات مغلقة، نظر إلى ساعته تقترب من الرابعة بعد العصر، تذكر إنه ميعاد الراحة والغداء، التفت حوله يبحث عن مكان منتظراً لفتح المحلات كان على ناصية الشارع مقهى يختلف اختلافاً كبيراً عن مقاهي الإسكندرية حبيته المقاعد من الخوص المجدول، قصيرة ليست لها ظهر يستند عليه الجالس، يجب على الجالس أن ينتصب في جلسته لا استرخاء بهذا المقعد، وفي هذا المقهى، كانت هذه عادة أهل دمياط حياتهم كلها منتصبة محسوبة ابتداء من مصروف الجيب إلى ادخارهم في كل شيء، ابتداءً من حفنة الملح إلى عدة سنتيمترات من خيط الحياكة، جلس منتصباً يشاهد النادل مرتدياً الجلباب المخطط واضعاً على رأسه عمامة تميل على أذنه اليسرى، يتمايل بين المقاعد الخوص حاملاً لصينية المشروبات يرفعها في الهواء أعلى، ثم ينزل بها حتى ركبتيه، ابتسم فكم يشبه النادل الفنان شكوكيو، طلب كوب من الشاي أخرج من جيبه كسرة الخبز، كان الماء داخل صفيحة جبن صغيرة نظيفة بيضاء من

الداخل، نظر لطفي إلى قاع الماء، كم يشبه قاع بحر الأنفوشي، يسبح فيه وجه امرأته تبتسم له، أرقتف الماء محاولاً ابتلاع وجه حبيبته، نظر إلى محلات الحاج بسيوني مازالت مغلقة، بدأ القلق يدب في أوصاله وبدأ المجهول يفترسه، اهتزت يده انسكب كثيراً من الشاي على ملابسه، أخرج قطعة القماش مجففاً لقطرات الشاي من على بناطله بقدر ما يستطيع من إزالة لون الشاي التفت إلى المحلات، أخيراً فتحت أبوابها، أسرع دقات قلبه ماذا سيكون موقف الحاج بسيوني معه؟ هل سيرحب به؟ هل يوجد عمل في هذه الأيام الصعبة وشح الكحول؟ إشارة بيده أقبل شكوكيو ملبياً لإشارته، كان مجاملاً للطفي معترضاً على أخذ الحساب، كان مندهشاً لموقف النادل فهو يعرف أهل دمياط وحرصهم على كل قرش، أصر على دفع الحساب اتجه إلى محلات الحاج بسيوني، دقات قلبه تسرع تزلزل جسده، اقترب من باب المحل زادت دقات قلبه وجاءت المواجهة، الحاج بسيوني يقف أمامه لم يقوَ على تحية الحاج، تفرس الحاج في وجهه وأخذ يدقق، كان لطفي في انهيار، فالحاج الآن هو طوق النجاة له، أخيراً تكلم الحاج بسيوني:

- أنت تشبه الأسطة إبراهيم الأسترجي الإسكندراني صح؟!

رد بسرعة:

- نعم يا حاج أنا لطفي ابن اخته وهو معلمي للمهنة

أخذ الحاج بسيوني بيد لطفي أدخله في مكتبه رحب به سأله عن خاله وأحوال العمل، فهم الحاج ظروف الإسكندرية، رفع الحاج رأسه منتشياً:

- أنتم يا أهل الاسكندرية، أحوالكم عجيبة، الي في جيبيكم مصروف وخارج، معلميك لم يحسبوا لمثل هذه الأيام، لكن نحن كنا مجهزين أنفسنا مستعدين دخلنا على الخمارات وأخذنا الكحول، كان حلنا سريع وحل رجاله مع تجار الكحول والخمارات ابتسم لطفي فهم أنه يوجد عمل، فوجئ بالحاج يسأله:

- أنت معلم مثل خالك ولا مدلع في الصانعة؟

لم يعط فرصة للطفي للإجابة، أمسك الحاج بيده دقق في أصابعه:

- كلها جملكة، أصابع معلمين لا نستعجل، عملك هو الحكم عليك ارتفع صوته منادياً على الأسطة سلامة، رحب بلطفي وأمره الحاج بتسليمه قطعة موبيليا لبدء الاختبار والعمل، دخل الورشة واثقاً بنجاحه في الاختبار، خاصة بأن خاله لم يحرمه من أسرار مهنة التلميع، التف حوله زملاؤه في المهنة، فوجئ بتكرار سؤا لهم عن أخبار السينما في الإسكندرية وآخر الأفلام، انتشى بالفرح فهي متعته وخاصة الأفلام الأجنبية، فهو يحفظ أسماء النجوم، تلا عليهم أسماء شارلي شابلن، فريد أستير، ريتا هي وارىت أخبرهم بأنه قد ترك الدراسة وهو في مرحلة متقدمة من التعليم ويعرف من اللغة الإنجليزية الكثير مما زاد من إعجاب السطوات به وزيادة مراسم الترحيب، تعجب عما سمعه من شح وبخل أهل دمياط وتعاملهم معه، كما أنه كلما زاد في الحديث عن السينما زادت الحفاوة به، كان حريصاً على إخفاء أسرار مهنته، لاحظ العيون ترصد عمله بزعم ذهابهم

إلى دورة المياه والمرور عليه لمشاهدة ما يصنع من تركيبة من الصبغة، توقف عن العمل، اتجه إلى الحاج بسيوني معتذراً عن إكمال العمل، فعليه أن يأخذ بعض الراحة، ثم يكمل عمله بعد انتهاء فترة العمل وذهاب زملائه، وافق الحاج بسيوني على الفور مما زاد من القلق بالموافقة بهذه السرعة، كان توقعه صحيحاً، بدأ العمل بالورشة وحده لاحظ عين تراقبه من خلال ألواح من الخشب بزاوية الورشة، حاول بقدر ما يستطيع إخفاء مشاهدة عمله بإعطاء ظهره للعين الراصدة غير مكترث واثقاً بإخفاء ما يحمل من أسرار المهنة

مرت الأيام بسرعة على لطفي، كان همه وشاغله الوحيد، شريفة وأحوال الحمل، هل مازالت خالتها ترعاها؟ وما موقف عائلته منها؟ أسئلة كثيرة كانت تحاصره تصرخ في جوف رأسه، ولا توجد إجابات، كان منقذه الوحيد للخروج من دوامة حيرته النظر عبر باب الورشة والتسلية بمشاهدة المارة وعلى رأسهم شكوكيو النادل وهو يتمايل حاملاً للطلبات بالمقهى مرتدياً الطرطور المائل حتى أذنه اليسرى، ملفتاً لربائنه، باعثاً الضحك بحركات المنولوج من يديه وكلماته المقطعة، أخرج منديله مسح وجهه، خرج من تأملاته بيد الحاج بسيوني تربت على كتفه، استدار مستسلماً ليد الحاج، أخذ بيده إلى مكتبه، جلس في صمت، نظر إليه الحاج وهو يبتسم يخبره بالسماح له بالعودة إلى حبيبته الإسكندرية وزيارة أهله، يعلمه بتوفر الكحول بها خيره الحاج بالعودة إليه مرحباً به في أي وقت للعمل عنده، لم يعطه فرصة للإجابة، دس في يد لطفي ظرف بداخله الحساب عن مدة عمله و مصاريف الانتقال من ذهاب وعودة إذا أراد العودة لمدينة دمياط أعطى لطفي إجابة سريعة للحاج بالعمل بالإسكندرية وإخباره بالسفر غداً ضحك الحاج بسيوني، شكره لطفي على معاملته له وجبر خاطره ثم استأذنه ليجوز عدته للعودة إلى حبيبته الإسكندرية

الساعة تقترب من السادسة صباحاً، مازالت الشوارع خالية من المارة، نظر ناحية المقهى، شاهد شكوكيو يعد المقاعد الخوص، ابتسم لحظ هذا اليوم السعيد اتجه نحو المقهى، جلس في نفس المكان الذي جلس فيه عند قدومه إلى مدينة دمياط، راجع مشترياته وأهمها أقراص المشبك المشبع بالعسل الأبيض والهريسة الدمياطي المتخمة بالزبيب وقطع جوز الهند الغارقة بالسمن البلدي، أحضر شكوكيو كوب الشاي مسلطاً نظره على هذا الزبون القادم في هذا الميعاد المبكر، غض لظفي بصره لم يعط له فرصة للحديث، انسحب النادل تاركاً الجناح لكتفيه تنخفض وترتفع مع خطوات الانسحاب، أخرج لظفي كسرة الخبز من جيبه وبدأ إفطاره، لاحظ كثرة المارة ودييب الحياة بالشارع، التقط حقائبه بعد محاسبة النادل غير عابئ بنظراته إليه، اتجه نحو موقف السيارات وبدأت رحلة العودة أخذ لظفي يتخيل محبوبته شريفة ومنظر بطنها المنتفخ، فهي قصيرة همس:

- هذا هو حال الدنيا

أغمض عينيه ليذهب مع أحلامه، كان الوقت يمر بطيئاً، مقيداً يديه على صدره خائفاً أن تذهب إحداها لتصفع السائق على رأسه ليسرع ويطير بالسيارة مازال الوقت يمر بطيئاً عكس بداية رحلته إلى مدينة دمياط، استسلم للنوم، تنبه لصوت السائق بسلامة الوصول، بدأ متردداً، هل يركب الترام الدائري؟ أم يأخذ سيارة الأجرة؟ فهو يريد أن يصل إلى حبيبته الأنفوشي ومنزله الهادئ في أسرع وقت، أشار إلى سيارة الأجرة، دلف

بداخلها مكوماً حقائبه، نظر إليه السائق من خلال المرآة المعلقة أمامه، أمره بالذهاب إلى الأنفوشي، أخذ مراجعة حقائبه وما تحمل من هدايا وموقف امرأته شريفة بما يحمل من هدايا تمنى وجود خالتها وأملها لمشاهدة ما يملك من نقود مرت السيارة أمام سينما الأنفوشي، نظر إلى لوحة الإعلان الكبيرة على جدار السينما، همس:

- عال... فيلم لنجيب الريحاني غداً ندخل السينما

أمر السائق بالتوقف أمام المنزل على الناصية المقابلة للسينما، أعطى السائق حسابه، مسلطاً نظره ناحية نافذة محبوبته شريفة كانت النافذة خالية، أسرع في خطواته نحو المنزل، ظهرت أم حلويات على درجات السلم، رحبت به وهي تسرع لتدق على باب شريفة، كان مسروراً بتصرفها هكذا فتح الباب في ببطء شديد، أطلت شريفة برأسها، كانت شبه نائمة نظر إلى بطنها، وكما توقع منتفخة بارزة حتى إنه لا يرى قدميها تراجعت أم حلويات معللة وجود الطعام على الموقد، قام بتوجيه كلمات الشكر لها ولم ينس أن يخرج قرص المشبك وقطع الهريسة هدية عودته أغلقت شريفة الباب وكان اللقاء الحار، حب ودموع وشوق وعتاب لطول الغياب، سرد ظروف عمله كان منظرها مثيراً للشفقة قصيرة وبطن منتفخة وأقدام لا ترى ولا تقدر على حملها، همس:

- فكيف بالمولود القادم؟!

تركته متجهة إلى الحمام، عادت إليه تعلنه بأن الحمام جاهز للاستحمام

كان الحبيبان في نشوة السعادة، شعر بسعادة شريفة وحركاتها بين الغرف والمطبخ والحمام، كأنها عروس في أول لياليها، أخبرته بحضور خالتها كثيراً أما أمها جاءت إليها مرة واحدة، كما حضر شقيقها صابر لزيارتها ومعرفته بالظروف التي تمر بها ووعدته بإيجاد عمل ثابت للطفي، استراح بعد سماعه هذه الأخبار حتى لا يفارق حبيبته الإسكندرية وزوجته شريفة، أخبرها بالذهاب غداً إلى سينما الأنفوشي فرحت بفسحتها المفضلة بالسينما، لاحظ متابعة شريفة لخطواته داخل المنزل تنظر مرة إلى وجهه ومرة إلى أقدامه ثم إلى صدره، كما كانت تراقبه عند حديثه مع جارتها أم حلويات وتساءل أي الغيرة؟ أم الشك؟ أم الاثنان معاً؟!!

أم وصلتها وشاية من أهله؟ فهم دائماً يسخرون منه لميله إلى أهل أمه وعمله بحرفة حقرت من شأنه أمامهم من أصابع ملطخة بمادة (الجملكة) دهان الموبيليا حتى أدى به هذا الحال من تنحيته من حياتهم العائلية أفراح وأعياد ميلاد حتى المآتم! فقد لا يدعى لهذا الواجب أخرجته شريفة من مشهده الحزين بذهابها إلى غرفة النوم، أراد أن يسبح مرة أخرى في مآسيه، تراجع، فرك عينيه لا يريد أن ينام، يريد أن يتمتع بمشاهدته لمنزله متجولاً بين الغرف، كان شعوره أن هناك شيء يفتقده المنزل إنه المذيع، غداً سيقوم بالشراء، ماركة فيلبس فهو أحسن الماركات مستعمل، وفي حالة جيدة اطمئن إلى قراره، ثم دلف إلى حجرة النوم.

السماء تخلو من السحاب، مياه بحر الأنفوشي هادئة حتى فكر لطفي كان هادئاً صافياً، نظر إلى السماء بابتسامته التي دائماً لا تفارقه كان المشاهد للطفي يقع في حيرة أمام تقاسيم وجهه لا يفرق بين سعادته وحزنه، لطفي الوحيد يعرف مغزاها، كان مسروراً بالعمل الثابت في قاعدة رأس التين البحرية فقد سعى شقيق زوجته حتى ثبته في هذا العمل الدائم، واكتملت سعادته بولادة ابنته ثريا، كان وجهها يحمل خليط من الوجه المصري والعيون الزرقاء الأوروبية والجسد الأبيض فهي تحمل جميع صفات أهلها وأهل أمها وأيضاً جارتهم أم حلويات من خفة الدم واحمرار الوجه ضحك فقد قامت شريفة بإرضاء الجميع، من أهل وجيران انتبه إلى قطعة القطن داخل قطعة القماش المشبعة بالصبغة، واهتزاز يخث المحروسة الملكية، كان فرحاً بالجلوس على مقعد الملك فاروق وتنقله بين الغرف، كان كل شيء يفوح برائحة الملك أعاد ترتيب قطع الموبيليا بعد الانتهاء من تلميعها مثل قطع الآبنوس القاتمة، نظر إلى ساعته قد قاربت على الثانية والنصف بعد الظهر وعليه الذهاب إلى الورشة وتبديل ملابسه والعودة إلى منزله، فعمله في قاعدة رأس التين ومنزله على بعد خطوات منها كل شيء مهياً لسعادته امرأة جميلة عمل مستقر ومولودة بينهم بدون ولادة متعثرة على يد الحاجة نفوسة (قابلة بحرى المشهورة) اقترب من المنزل، كانت أم حلويات تحمل ابنته ثريا على باب المنزل، أخبرته بأن صابر خال ثريا قد حضر ليأخذ شريفة للذهاب لأداء بعض المصالح وحتى الآن لم ترجع، نظر لأبنته ثريا

وهي نائمة على كتف أم حلويات، كان مطمئناً بوجود ثريا معها فهي تمتلك من الأولاد تسعة ومازالت تنتظر المولود العاشر، وحيرته بتسميتها أم حلويات ولا توجد حلويات بين أولادها؟! دلف إلى الداخل كل شيء مرتب حتى الخبز على المائدة بجانب أطباق الطعام المغطاة، فهم أن شريفة ستعود متأخرة همس:

- كم هي ذكية!!

كل شيء مرتب ومعد ومستعدة له، دلف إلى حجرة النوم بدل ملابسه تناول الطعام الذي أنهاه بسرعة فلا أحد يشاهده وكيفية التهامه بهذه الصورة الشرهة الجائعة التي لا تشبع، اتجه إلى المطبخ أعد كوب الشاي جلس بجانب النافذة أمام الشاطئ ينتظر وصول محبوبته شريفة، تذكر المذيع، بدأ البحث، توقفت أصابعه على صوت أم كلثوم تغني أنصت إليها تارك جحوظ عينيه عبر الشارع عسى مشاهدة حبيبته عند عودتها، بدأت الشمس في المغيب، جاء الفرج، العربة الحنطور تقف أمام المنزل، تهبط منها شريفة وخلتها نرجس مع حقيبة ممتلئة تحملها شريفة، أسرع باللاحاق بهن، حمل الحقيبة، لم ينس أن يرحب بالخالة، هبطت شريفة إلى أم حلويات صعدت بثريا، أسرعت إلى غرفة النوم لإشباعها من صدرها، جلست الخالة نرجس تسترد أنفاسها، أشارت إلى لطفي بالجلوس بجانبها، أخبرته بأمورية اليوم ومدى أهميتها وخاصة لزوجته، فتحت حقيبة اليد فهي لا تفارقها هي من أهم مراسم فسحتها وخروجها، أخرجت رزمتان من

النقود، وضعتهم أمام لطفي، تابعت النظر إلى وجهه حبس أنفاسه ولكن دون جدوى، فضحته قسما ت وجهه بابتسامة الفرحة لهذه النقود، سردت له مأمورية اليوم وأنَّ جزءاً من الميراث قد تم تصفيته مع صابر شقيق زوجته وانتهاء الأمر على خير نظر إلى نصيب حبيبته شريفة، كانت إجابته سريعة، إيداع المبلغ بدفتر توفير باسم زوجته، عسى أن ينفع في السنوات القادمة، قطع الحديث صوت شريفة بالموافقة على اقتراح زوجها، اطمأنت الخالة، تسللت إلى الحمام، دلف هو الآخر إلى شريفة ليخبرها بدخول الليل والإمساك بخالتها نرجس للمبيت معهم، خرج قبل أن تلاحظه الخالة، فتح المذياع بدأ البحث بين المحطات عسى الاستماع إلى ما يزيد بهجة هذا اليوم متابعاً إلحاح امرأته على الخالة بالمبيت والتي انتهت بالموافقة وذهابهن إلى غرفة المطبخ لإعداد العشاء فاحت رائحة اللحم المحمر بالسمن البلدي، تمايل مع نسما ت رائحة اللحم، أسرع بإعداد المائدة، أنطلق صوت ثريا من غرفة النوم بالبكاء، استجابت شريفة إليها، جلس مع الخالة نرجس حول مائدة الطعام في انتظار شريفة، كاد أن يلتقط قطعة من الخبز تراجع فإن الخالة ستحسبها عليه، حبس عواطفه أمام رائحة اللحم والبطاطس المحمرة، نظرت الخالة إليه بابتسامة فاضحة لقسما ت وجهه خاصة أنه وانتفاشه أمام هذه المشهيات، مدت يدها بالبداء بالتهام الطعام، مشجعة للطفي أن يشاركها، معللة بأن مأمورية اليوم كانت شاقة عليها، بدأ بتناول الطعام متجنباً لقطع اللحم المحمر حتى تأتي حبيبته شريفة، تنفس

الصعداء انضمت اليهم لتنقذه من عذاب النظر إلى طبق اللحم المحمر،
جلس بجانب المذيع منتظراً إحضار أكواب الشاي حضرت شريفة تحمل
أطباق هريسة محلات (العصافيري)، معقبة بأمها فهي دائماً تحضرها إليهم،
دلفت بحبيبته شريفة إلى غرفة النوم تبكي نظرت إليه الخالة نرجس مشيرة
إليه باللحاق بزوجته، وقف في حيرة، كيف يبدأ الحديث مع شريفة كان
مطيعاً للخالة لحق بحبيبته، خرجت الكلمات منه غير ما توقع، قد أقنعها
بكلماته وتذكيرها بأنها أصبحت امرأة مسؤولة عن أسرة ولا تعتمد على
أمها عليها مواجهة الأمور في بساطة وبشجاعة، هدأت وعادت إلى الصالة،
كانت الخالة قد سبقتهم إلى النوم على الأريكة في زاوية الصالة انسحب مع
شريفة بهدوء إلى غرفة النوم

مرت أحوال لطفي بدرجة عالية من الرفاهية طعام ولحوم وفاكهة وذهاب إلى سينما الأنفوشي أسبوعياً، نظر إلى ساعته اقترب ميعاد الانصراف من العمل كان يشعر بالقلق في هذا الوقت يشغله هذا الخاطر وهو في طريق عودته إلى منزله، همس:

- هبوط زائرین کل یوم سعد ومصطفی أبناء عمه للاستمتاع بشاطئ وبحر الأنفوشي، هو مناسب لهم مشروبات وطعام بغير ثمن، فقد نشؤوا معه في بيت واحد، بيت العائلة، أخوة له رضي أم لا يرضى كان يسعد بحضورهم وأحياناً تأكله الغيرة لعدم الكلفة بينهم وبين امرأته وملازمتهم له وامراته، فقد علموا بنأ ميراث زوجته فلا مانع من الحضور كل يوم والسهر والعشاء وتناول الفاكهة واحتساء الشاي اقترب من المنزل، كاد يطير من الفرح ابنته ثريا تجلس على درجات السلم تنتظره أراد مفاجأتها، لمحتة وأرسلت إليه الابتسامة الملائكية، احتضنها سعد درجات السلم دفع باب الشقة اتجه بهدوء إلى شريفة بغرفة المطبخ قطعت المفاجأة ثريا أطلقت ضحكاتها انتبهت إليهم شريفة لتكتمل ضحكات ثريا بضحكاتها

الساعة تقترب من السادسة نظر عبر النافذة، رأى ما توقع سعد ومصطفى، أبناء عمه يقتربون من المنزل، اتجه إلى شريفة أخبرها بالزائرين، عاد إلى النافذة، نظر إلى سعد وضخامته رغم أنه مازال طالباً بكلية الحقوق، أما مصطفى فهو بكلية التجارة التفوا حول صينية الشاي بجانب النافذة المطلة على الشاطئ، كان لطفي مستعداً لهذه الجلسة فقد شحذ ذهنه للحديث معهم حتى لا يشعر بالفارق بينه وبينهم، فقد ترك دراسته في المرحلة المتوسطة بعد فراق والده لأمه، قطع سعد تأملات لطفي:

- شريفة لم تحضر شيئاً مهما

أكمل مصطفى الملاحظات:

- سندويتشات الجبن التركي

همس وهو يضحك:

- نعم فهي عذبة أبوكم

اعتدل في جلسته، أشار عليهم بالإنصات، كانت شريفة تراقبهم من زاوية الحجرة، نظر إليها، تراجعت بالاختفاء، نظر سعد ومصطفى إلى لطفي، اقترب منهم أكثر، أطلق كلماته:

- هل تعلموا من كان بقصر رأس التين اليوم !!!

أشاروا بالنفي

كان في القصر الملك فاروق ومعه الممثلة كاميليا في رحلة غرام على يخت المحروسة

قطع حديثه سعد:

- هذا حال بحر الأنفوشي، منذ كليوباترا موعود بالحب والغرام
كان تعليق سعد مثل فلنكات القطارات بالابتعاد عن الحديث عن الملك أو
الخوض في السياسة حتى ولو كان عن الفاتنة كاميليا، ولكن أسرع مصطفى
بالحديث:

- كاميليا يهودية، وهناك كلام كثير عنها وعلاقتها بالمخابرات الإسرائيلية
أعجب لطفي بكلمات مصطفى الساخنة ليكمل حديثه:
- وهل المخابرات المصرية جالسة تشاهد الملك ومغامراته فقط، لابد أن
هناك محاولات لإنهاء هذه العلاقة ولكن دون إغضاب للملك
شارك سعد الذي انتشى لطفي فرحاً بعودته للحديث مرة أخرى
- لابد من الدبلوماسية أن تتدخل لاستعادة الملك وعيه وهي قادرة على
ذلك، وأن هناك محاولات لقطع علاقة الملك بكاميليا، ولكن دون
إغضاب للملك، كما أنّ أسرة الملك لها دور، خاصة أن كاميليا يهودية
وجميلة وفاتنة.

سر لطفي بفتح الحوار، ليشبع ذاته وأنه قادر على الجلوس بين المثقفين
ومجاراتهم في الحديث، أشار سعد بفتح المذيع عسى أن يجد ما يغلق
الحديث عن الملك، تركهم لطفي ليطمئن على شريفة كانت نائمة محتضنة
ثريا عاد إلى أبناء عمه، شاهد سعد متأملاً للبحر وأمواجه سلط مصطفى
عينيه على لطفي، لم يترك له فرصة للجلوس طلب أكواب الشاي، فرح فهذه

فرصته للذهاب إلى المطبخ فهو جائع ولا بد من كسرة الخبز أو البحث في (النملية) دولاب حفظ الطعام، وجد ما يريد، قطع وشطائر الفطير مازالت ساخنة، حمل صينية الشاي مع شرائح الفطير، لم يجد مصطفى، وجد سعد يجلس وحيداً، أخبره بمرور بعض السائحين لحق بهم مصطفى كعادته، فهو يحن إلى أهل أمه اليونانية فهو كثير الشبه بأخواله، رد لطفي:

- هذا شيء طبيعي على رأي ستي الحاجة (الدم يحن لسابع جد)

أكمل سعد حديثه بأن عند إنهاء مصطفى من دراسته سيرحل إلى اليونان، إلى أهل أمه، ولن تعرف أن تتحدث معه، أنا عارف مصطفى، أصله خوجة مثل أهل أمه وهم يفرحون بذلك ويميزونه عني، تناول لطفي وسعد قطع الفطائر واحتساء الشاي سرح سعد مع تأملاته لشاطئ البحر

بدأ انسحاب الصيف، افترش السحاب بالسماء واكتملت بواذر فصل الشتاء بالبحر هياج أمواجه كان مناخ الأنفوشي غريباً على شريفة، حتى أصبحت كثرة الكرب هي وابنتها ثريا بدأت العمل في حشر قطع القماش بين فتحات النوافذ المطلة على شاطئ البحر مع سد أعقاب الأبواب، كانت تفعل كل ذلك لإكمال التدفئة للشقة وتكون الأحوال كلها مهيأة للضيف القادم، هي في الشهر التاسع من الحمل، تنتظر بين يوم وآخر تشريفه بالأنفوشي، انتبهت إلى دقائق على باب الشقة أسرع إلى الباب تمسك بزيل فستانها ثريا التقطت أم حلويات ثريا كان منظرها غريباً ترتدي الكثير من الثياب، هي نحيفة طويلة القامة شال أسود على رأسها ملتفاً على رقبتها متديلاً على وسطها، نظرت أم حلويات إلى شريفة مبتسمة على منظرها اقتربت منها وأطلقت آخر الأخبار:

- اليوم الخميس ستدخل عروس جديدة، زوجة ابن صاحب المنزل
سألت شريفة:

- سعيد ابنه الأكبر؟

أمالت أم حلويات برأسها بالإيجاب، التصقت مرة أخرى بشريفة:

- أخت ميمما بائع الحلوى

لم تفهم شريفة ماذا تقصد (ميمما) هذا؟ نفذ صبر أم حلويات جحظت عيناها وأكملت حديثها السري:

- لَصَّ وبائع الحشيش، خارج من بيت خالته السنة الماضية بدأ الغيظ يملأ وجهها بسؤال شريفة عن بيت خالته، هزت أم حلويات رأسها وأوضحت الأمر إلى شريفة بأن بيت خالته السجن، خمس سنوات بداخله اعتدلت فهمت ما تقصده أم حلويات سيدخل المنزل زوار مشبهين وهذا إنذار بالخطر ضحكت أم حلويات اقتربت من شريفة همست في أذنها بالخبر السيئ عن العروس، إنها جميلة ولعوب ومعروفة بين رجال (الموازيني) قد أوقعت سعيد بشباكها قطعت شريفة متعة أم حلويات بالسرد لتدخلها في متعة أكبر:

- إذاً المنزل سيكون

- وأول من ستبدأ بهم هم رجال المنزل
أمسكت شريفة بيد أم حلويات:

- لطفي وأبو حلويات !؟

ضحكت أم حلويات ضحكة المرأة الواثقة، أجابت بالنفي معلنة بأن هذا الصنف من النساء لا يكثرث إليه الرجال عندنا أيدها شريفة مصطنعة الثقة بزوجها، استدارت أم حلويات مصوبة بصرها إلى باب الشقة:

- العريس سعيد عنده إشقاء شباب مثل الورد مع امرأة لا ترحم معروفة
محبها للرجالة

دقت شريفة على صدرها، ارتبكت أم حلويات، دقات على باب الشقة كان ميعاد عودة لطفي، أسرع بفتح الباب، كانت في ذيلها أم حلويات مودعة

لهم انتبه لطفي إلى خروج أم حلويات من الشقة، لم تعط شريفة زوجها فرصة أخذته إلى غرفة النوم، وضعت ثريا بهدوء على الفراش قامت بسرد تفاصيل العروس لم يهتم لطفي بدأ في تبديل ملابسه، همست شريفة:

- لا فائدة بالسرد طالما هو جائع

تناول كوب الشاي أمرها بإخباره عن هذه الأخبار أخفت ابتسامتها قامت بسرد حكاية العروس وأطلقت لخيالها العنان في تقديم صورة كاملة عن العروس اللعوب ومغامرات هذا الصنف من النساء، لم تنس النظر إلى لطفي خلصة لترى مدى اهتمامه وإلى أي مدى سيواصل معها الحديث طلب كوب شاي آخر، ذهبت إلى المطبخ فهي تعرف زوجها وجهه بمشاهدة الأفلام الأجنبية فكم وصف لها صدر اليزابيث تايلور ووجه ريتا هي وارىت ورجولة كلارك جيبيل ورشاقة فريد إستير كان يحفظ أسماءهم كأنهم أصدقاء له وأبناء حارته كانت سعيدة؛ فقد أثارت انتباهه لحديثها المشبع بالجنس، لم تصبر بصب الشاي بالكوب حملته في البراد ومعه الكوب وعلبة السكر خرجت إليه لاحظت الابتسامة تملأ وجهه همست:

- يا ترى هل كشف سرها وعرف مدى متعتها بالحكي عن هذه العروس اللعوب.

جلست بجانبه، تناول كوب الشاي بدأت في تكملة قصتها قاطعها بمدى حزنه على العريس الشاب سعيد وأسرته المحترمة وأن سبب اختراق هذه العروس؟ هوان العريس أمه متوفية أما والده فقد كان همه وشغله الشاغل

هو متابعة العمل بطاحونة الغلال، معتمداً على أن سعيد أصبح رجلاً يمكن الاعتماد عليه في اختياره لعروسه، مكتفياً بالعناية بإخوته من زوجته الثانية، قطع الحديث أصوات بالخارج أعلنها بالخبر:

- أخيراً وصلت العروس

عاجلته شريفة:

- وصلت المتعوسة

ضحك مشارك لها بالمشاهدة عبر النافذة كان جمعاً كثيراً من النساء والرجال ملتفون حول العروسان ورجل يرتدي ملابس صيادي بحري يمسك في كل يد مدية تلمع طويلة السلاح، يمثل مشاهد معركة بالسلاح الأبيض كانت شريفة تشاهد الرجل في دهشة.

شرح لها أن هذا الرجل دائماً يحضر ليزف أفراح الأنفوشي، فهو رجل المناسبات المشهور "حلال عليه"، تركته جلست لتستريح ولتريح ما في أحشائها فقد شعرت بضربات تعرفها، ضربات تنذر بقرب قدوم المولود كانت ضربات ضعيفة، لم تخبر لطفي كما فعلت في ثريا، تماسكت وبدأت تعد نفسها للوضع مقدرة الميعاد إنه صباحاً، رتبت ملابس المولود وأعدت ملابسها وما يلزم من أدوات داخل الحمام، أخرجت رأسها عبر باب غرفة النوم مازال لطفي مع مشاهد العرس اطمأنت رقدت بالفرش فغدا يوماً شاقاً وعليها أن تستعد له من هذه الليلة.

استيقظ لطفي على صوت الترام، نظر إلى ساعته تقترب من السادسة صباحاً، خرج بهدوء إلى الصالة فتح المذياع على أغنيته المفضلة (أرض بلادي محلاها ملاينة وروود)، أدار مفتاح المحطات ليكمل استمتاعه لصوت الشيخ محمد رفعت ، تناول كوب الشاي مع قطعة الخبز هم بالخروج توقف بسماع شريفة تتأوه أسرع إليها، كانت تتألم من ضربات الطلق أمرته بإخبار أم حلويات ، ثم التوجه إلى الحاجة نفوسة (القابلة) لإعلانها بحالة الوضع ويذهب إلى عمله كان يشعر بالاطمئنان هذه المرة دس يده في جيبه تحسس قطعة الخبز تذكر الخالة نرجس فيجب إخبارها بحال شريفة فكم عنفته في ولادة ابنته ثريا وعدم إخبارها نظر إلى ساعته مازال من الوقت متسعاً توجه إلى عم جمعة بائع الخردوات والحلوى أدار له رقم تليفون الخالة أبلغها بحالة شريفة واللاحق بها أصر عم جمعة بعدم قبول أجره المكاملة رغم إلحاح لطفي عليه وتهنئته بالمولود القادم.

الساعة تدق الثانية عشرة ظهراً مازالت الحاجة نفوسة وأم حلويات مع شريفة الولادة متعثرة الخالة نرجس تفتح المصحف على سورة (ياسين) عسى أن يأتي الفرج متابعة لغرفة النوم خرجت أم حلويات همست للخالة:

- إنه ولد ولكنه لم يتحرك والحاجة نفوسة تحاول معه
 همت الخالة بالدخول إلى غرفة النوم توقفت مع صوت بكاء المولود احتضنت أم حلويات خرجت الحاجة نفوسة من غرفة النوم تبتسم متوجهة إلى الحمام تعلقت بها الخالة ناولتها ريالان من الفضة القادم صبي ولا بد من تكريمه دلفت الخالة وأم حلويات إلى غرفة النوم كانت شريفة نائمة محتضنة مولودها الصغير شرحت أم حلويات للخالة بأن المولود ملتصق بكثير من بقاياها فقد تأخر في الخروج أكثر من يومين شكرتها الخالة وأمرتها بالعودة إلى شقتها فيكفي ما قدمت اليوم فرحت بكلمات الخالة اتجهت مع إلى باب الشقة وكانت المفاجأة أم صابر تقف أمامهم تحمل حقيبة ممتلئة بما يلزم ابنتها سعدت بخبر المولود وكم عانت شريفة تركتها الخالة لإعداد الطعام فقد اقترب ميعاد عودة لطفي وإعلانه بالخبر السعيد وكذلك إطعام شريفة فكم عانت في هذا اليوم

مرت الشهور وبدأ لطفي يرى علامات نفاذ النقود على امرأته، والأمر أصبح الآن مختلفاً، الطعام يطبخ (قرديجي) بدون لحم وتكرار رائحة واحدة للطعام في أيام كثيرة عنده وعند الجارة أم حلويات كان لا يهتم بل كان اهتمامه بثريا وشقيقها علي، قد بدؤوا في النمو وقريباً ستدخل ثريا المدرسة وعليه زيادة دخله الشهري، أحضر النادل كوب الشاي قبض عليه بكلتي يديه فالشياء قارص وخاصة الجلوس في مقهى (أنح) المواجهة لبحر الأنفوشي على بعد خطوات من منزله تذكر خاله إبراهيم، منقذه في هذه الظروف الصعبة ابتلع الشاي ثم خرج متوجهاً إلى خاله بمنطقة الحجاري، كانت الساعة تقترب من الخامسة مساءً كان يعرف أين يجده، عند أمه فالخال يسكن بجوار أم لطفي وعليه الاطمئنان عليها خاصة بعد زواج ابنها لطفي عرج إلى بائع الفاكهة أخذ البرتقال البلدي كانت مقابلته لأمه محسوبة كلمات قليلة عن أحواله أحضرت كوب الشاي مع قطعة الخبز نظر إلى ساعته تقترب من الساعة وعليه الانصراف فالخال إبراهيم لم يحضر، هم بالانصراف انتبه إلى دقائق على باب الشقة تنفس الصعداء تمنى أن يكون القادم خاله إبراهيم وكان ما تمنى الخال يقف أمامه فهم الخال وعلم أن في الأمر شيء، أخذ لطفي من يده اتجه الخال إلى مسجد المرسى أبو العباس جلس الاثنان على درجات السلم فهو المكان المناسب لدراسة وضع لطفي بعيداً عن أعين المارة والضوضاء فهم الخال موقف لطفي وحاجته إلى العمل الإضافي توجه الخال ولطفي إلى حارة اليهود، كانت هناك

ورش التجارة شرح الخال حالة ابن شقيقته وحاجته للعمل الإضافي فالعمل الصباحي لم يعد يكفي لسد حاجة الأسرة خلال الشهر وافق المعلم سيد بعمل لطفي عنده يومياً بعد الظهر مع راحة يوم الأحد نظير مبلغ خمسة عشر قرشاً يومياً ولكن بشرط أن العمل سيكون أمام الورشة في رحاب الشارع وذلك لتكديس الموبيليا وسطوات التجارة وزملائه في التلميع لم يعترض لطفي فقد وجد ما يسد به نفقات أولاده دس الخال بعض النقود في جيب لطفي وأمره بالعودة إلى منزله بالأنفوشي، خطوات بطيئة إلى المنزل أقدامه لا تقدر على السير نظر إلى الشاطئ المظلم جلس على سور الكورنيش بدأ يفكر كيف سيواجه امرأته بخبر العمل بعد الظهر؟ هل ستقبل؟ فهي معتادة على عودته من العمل بقاعدة رأس التين بقصر الملك والجلوس عبر النافذة المطلة على الشاطئ أم تأخذ بحكمة (دوام الحال من المحال) تناول قطعة الخبز وبدأ المضغ ابتسم لحاله فكم يشبه الشاه في مضغ كسرات الخبز

جلس بجانب النافذة المطلة على الشاطئ منتظراً لطعام الغداء فاليوم الأحد
ينعم بالجلوس مع أسرته ثريا تلعب بعروستها القماش المنتفخة بقطع
القماش القديم، أما شقيقها على فقد امتطى دراجته ذات الثلاث عجلات
كل شيء قد سار بما يرضي شيء واحد يهتز له وترتعش أطرافه كلما تذكره
جارتة العروس اللعوب، أخت ميمى بائع الحشيش فكم من المرات تحرشت
به على درجات السلم وكم تفادى نظراتها وتشوقها لرجولته أحضرت شريفة
الطعام لم يهتم بهذا الصنف المتكرر من الطعام كان فكره مع المرأة اللعوب
أراد أن يشبع رغبته بنظراته إلى امرأته شريفة ولكن لم تثمر هذه النظرات
ذهب جمالها وظهرت علامات شقاء الأيام وهموم أولادها ثريا وعلي
ومواجهة حياة أخذت تضيق وتذكر الملك وشهواته مع كاميليا وأخواتها
وبعثرة الأموال في بقاع ومشارك أوروبا وعلى طاولات القمار وهو صاحب
أسرة لا يقدر على أن يزيد قرشاً واحداً على دخله اليومي من ورشة بعد
الظهيرة ومرتبته من عمله بالقاعدة بقصر رأس التين بل لا يطمئن حتى
على دخل الخمسة عشر قرشاً من الورشة أخذت ثريا تداعب أذنيه قبض
ابنه على قدميه شعر كأنهم يحاولون تثبيته في موقع أسرته فلا يبتعد عنها
مهما كانت الأحوال أحضرت شريفة كوب الشاي أخذت ثريا وعلي وتركته
يحتسى مع سكونه ذهب مرة أخرى مع صورة جارتة اللعوب كانت امرأة
خليط من الإثارة والجمال كل قطعة بجسدها تهتز وتتحرك كالمفجرات التي
تطيح بكل من يحاول النظر أو الاقتراب أدار برأسه خلال حديد النافذة

عسى أن يطرد ما يسيل لعبه من هذه المرأة اللعوب الشاطىء نائم مع غروب الشمس النجوم تبرق في السماء مشهد الشاطىء يوحى بعودة الصيف ارتحت أعصابه ذهبت اللعوب من دهاليز رأسه بدأ يفكر في أحوال عائلته والقطيعة بينه وبينهم نكاية به لتحزبه لأمه وعائلتها طبقة البروليتاريان الكادحة، وإهماله من العزائم والمناسبات نظر إلى أصابعه وتراكم طبقات مادة التلميع (الجملكة) عليها فكم حاول مراراً إزالتها ولكن لا فائدة حاول العمل بقفاز ولكنه فشل، فحرفته لا بد لها أن تترك بصماتها على كفيه، انتفض من جلسة الكآبة ولكنها مازالت تلازمه، تذكر أبناء عمه سعد ومصطفى، أين هم؟! مضى من الوقت الكثير ولم يرَ أحد منهما، هل ذهبا بذهاب نقود امرأته؟ أم بعمله طوال ساعات اليوم؟! أو الاثنين معاً؟ حك رأسه بكلتا يديه عسى أن يذهب صداد الهموم والكآبة دلف بهدوء إلى غرفة النوم امرأته تغط في نوم عميق محتضنة كل من ثريا وعلى حاول النوم ولكن لا فائدة لم يفلح ترك الفراش مد يده ليلتحف بجاكيت العمل اتجه إلى باب الشقة خرج في هدوء نحو شاطىء البحر جلس في مواجهة منزله عاد إلى أيامه الجميلة مع شريفة ليلة عرسه همس:

- ما أحلاها من ليلة!

نظر إلى نافذة جارته اللعوب كانت الأنوار مضاءة، خيالات تذهب وتعود خلف الستائر أحس بسعادة فهو يريد أن يتسلى نظر إلى نافذة شقته، الضوء خافت كما تركه عاد إلى متابعة شقة جارته اللعوب انطفأت الأنوار إلا

غرفة واحدة كان يعرفها جيداً غرفة النوم لم تطفئ يتحرك خيال خلف الستائر فجأة تحركت ظهرت جارتها اللعوب عارية كانت حركاتها مثل عارضة الأزياء توارت بغلق الستائر لم يحرك رأسه يميناً أو يساراً ولكن إلى الأمام وإلى أعلى عسى مشاهدة خطوات الحب حتى إن كانت كخيال الظل الذي كان يشاهده ويتمتع به في أيام صباه ولكن الآن يشاهده بحلاوة أخرى اختفت الخيالات لم يتحرك من مكانه كان يريد إكمال لذته لم يفلح شعر بالبرد يخترق أوصاله وعليه العودة نظر نظرة الوداع ولكن لا فائدة

امتلاً شاطئ الأنفوشي بالمظلات ونصبت برادات الشاي ونبتت الرؤوس متناثرة فوق سطح الماء وظهر غطاس الإنقاذ (رمز)، المشهور بمنطقة بحري وحكاياته في الإنقاذ في الصيف أما الشتاء، هو منقذ لكل خاتم أو ساعة أو قطعة نقود أو فردة حلق تكون من نصيبه في مياه البحر الباردة تناثرت العوامات البلدي السوداء الشعبية يتابعها عم أحمد هي رأس ماله نظير تأجيرها لفاقدي الحيلة في السباحة الجميع يلها في المياه فوق الرمال تحت المظلات ماعدا ثلاثة، كانوا على الشاطئ ولكن لهدف آخر جمع قطع الخشب المتناثرة على الرمال وبين ورش صناعة قوارب الصيد ثريا تمسك بكلتا يديها ذيل فستانها الأمامي غير مكترثة بظهور ساقها على شقيقها وصبحى ابن جارتهم أم حلويات يقذفان بقطع الخشب في حجرها امتلاً حجر ثريا بقطع الخشب ولتنتهي مأموريتهم بالعودة إلى المنزل استقبلتهم أم حلويات كانت السعادة تغمر وجه شريفة بدأت في إعداد كانون الخشب في زاوية مدخل المنزل أحضرت أم حلويات وعاء الكيروسين قطرات منه فوق الخشب اشتعل الكانون بدأت شريفة في شواء السمك البلطي صغير الحجم الممتلى بالطارخ يطلقون عليه أهل بحري (بالحناني الملبس) أعطت أم حلويات لثريا وعلي وصبحى أرغفة الخبز أمرتهم بالجلوس في انتظار أول دفعة من الشواء، كانت شريفة منهمكة في الشواء تريد أن تنهي عملها على خير قبل عودة لطفى أو حضور خالتها نرجس لترى هذا المشهد المأساوي لابنة الحسب والنسب قد اضطرت للاقتصاد من المصاريف

وانضاج الطعام على الكانون لتوفر بعض القروش غير مكتثرة بزحف أدخنة
النار على وجهها لتدبر شراء ما يلزم من تاجر النوتة الأسبوعية فالخالة
نرجس و أم صابر قد نفدت أموالهما بعد هروب زوج أمها بما لديهم من
أموال.

بدأت طلبات ثريا وعلي تتراكم على شريفة وزوجها لطفي، حتى اضطرت بالذهاب إلى شقيقها صابر وعرض أحوالها وأحوال أسرتها كانت المقابلة فاترة من صابر وقاسية عليها من أخٍ وحيدٍ يعيش حياة رغيدة ولكن امرأته لا تشبع، قام بوداعها مع وضع جنيهان في يدها على درجات سلم (الترام) اقتربت من محطة مصر شاهدت محل (العصافيري) الحلواني تفوح رائحة السمن البلدي وتنتشر بين نسمات الهواء لم تفكر في الشراء فهناك أمور تحتاج إلى هذه النقود وصلت أخيراً إلى الأنفوشي، اتجهت إلى المنزل تجر قدميها تحمل خبيبتها من مقابلة الشقيق صابر، كان الوقت مبكراً لحضور لطفي أرادت أن تستريح؛ فالطعام جاهز جلست بجانب النافذة مع دموعها.

شهر أغسطس الحر يمتلك أحوال الناس فلتان في الأعصاب فلتان في ملابس النساء، كان لطفي يرى الصيف بالشاطئ من خلال حديد النافذة فستان على اللحم، بنت بحري تظهر مفاتها من خلال الملاءة اللف كأنها لا تلبس شيئاً، أخرى ترتدي الفستان القصير ولا شيء يحكم نهديها من التحرك والهز همس:

- آه من الصيف!!

كانت شريفة وثريا وعلي في الشاطئ مع أم حلويات رغم أنه يوم الأحد ولكن تحت إلحاح أم حلويات وافق على ذهاب أسرته مع أسرته إلى الشاطئ، كانت الشقة هادئة إلا من خطوات جارتهم اللعوب أخذ يتسل بمتابعة صوت خطواتها في الحمام حجرة النوم، ثم تسكن وتهدأ لتعود مرة أخرى، سرح لطفي مع خياله لماذا الحمام؟ ثم حجرة النوم فزوجها لم يحن ميعاد حضوره فدائماً يأتي متأخر ليلاً!! سكنت الخطوات تنبه بدقات على باب الشقة أسرع في فتح الباب المرأة اللعوب تدفعه إلى الداخل وتغلق الباب، جمد في مكانه كلوح الثلج فتحت الروب ليري ما كان يتلصص عليه، دفعته مرة أخرى إلى الوراء حبس أنفاسه، أراد أن يفِرّ، عجز عن التحرك، أسقطت الروب وهجمت عليه، كانت شرسة في تعاملها معه، لم يقدر على المقاومة لا يدري كيف يتصرف، أخذت تناوش رجولته مازال بارداً كلوح الثلج، أصرت على اغتصابه وأصرّ هو على عدم إجابتها، ولكن كانت تعرف خطواتها، أخيراً تحركت رجولته أخذت ما تريد ظهر الإشباع

على وجهها، مسحت شفيتها اختبأت داخل الروب، خرجت من الشقة وهي تنظر إليه، استجاب لنظراتها لم يقدر على التحرك من مكانه نظر إليها وهي تبتعد ماذا كان يريد؟ هل الرغبة مرة أخرى أم أراد أن يضع يده على رقبتها وينهي هذا العذاب، أخذ يرتعش من متعته المحرمة، نهض إلى الحمام يدلك جسده بقوة ارتدى ملابسه، خرج لا يعرف أين يتجه؟! ترك قدميه تقوده فلا حيلة له، أخيراً وقف أمام مسجد سيدي ياقوت العرش كانت الشمس قد بدأت في المغيب، صعد درجات السلم توجه إلى الميدة توضاً كانت قطرات الماء تمتزج مع دموعه ذهب إلى مقصورة قبر الشيخ اندس بين مريدين المقصورة تساءل هل هم مثله في متعته المحرمة وحضروا للتوبة؟ نظر إلى رجل يمسح وجهه بقضبان المقصورة النحاسية، آخر يحك ظهره، قطع الصمت إقامة الصلاة، أنهى صلاته انتابه الشعور بالهدوء، توجه إلى الإمام سرد عليه حكايته تفرس الإمام في قسماات وجهه، ثم أخرج كلماته كطلقات المدفع:

- أنت السبب في كل ذلك كنت تريد هذا الأمر، همس:

- يا له من شيخ أهو مثل شيخه الراقد في المقصورة له بركات

أكمل الشيخ:

- وعليك أن تترك هذا المكان إلى سكن آخر لتبتعد عن هذه المرأة، هي لن تتركك، أبواب السماء مفتوحة للمغفرة وأنت رجل طيب، اذهب واعزم على البحث عن سكن آخر.

شكره لطفي ومد يده مودعاً للشيخ كانت يد الشيخ تحمل بعض النقود دسها
في يده أخذها لطفي دون أن ينبس بكلمة واحدة خرج من المسجد
وما زالت حيرته تمتلكه

مرت الأيام على لطفي كسوط يهوى بعدد الأيام على ظهره، كان يتلوى في فراشه عذبه متعته المحرمة أخذ يبحث عن سكن آخر دون علم شريفة ولأول مرة يستغنى عن مشورة خاله إبراهيم كيف يحدثه بهذا الفعل المعيب؟! نظر من النافذة شاهد ابنه علي وهو يلعب مع الأولاد يرددون كلمات يتوارثها الأطفال، فكم ردها لطفي في صباه أخذ يستمع - على عليوة يالي ضرب الزميرة يالي ضربها قلبي يالي قلبي رصاص

يالي

أحمد رقص يالي رقص على مين؟

يالي على شاهين يالي

شاهين ما مات يالي خلف بنات يالي خلفهم تسعة

يالي قاعدين على القصعة يالي

وأخويا فيهم يالي عوج طربوشه يالي من كتر فلوسه يالي

توقف لطفي عند "وأخويا فيهم من كتر فلوسه" تذكر أخاه سالم؛ فهو مازال عازباً لم يتزوج يسكن مع شقيقته جميلة بمحرم بك، هي قد أمسكت بزمام أخوها لتربطه بها لتستفيد من دخله الشهري لم تلفظه عائلة لطفي مثله فقد اختار الانحياز إلى والده وترك أمه تغوص في قاع أهلها، كان له الحظ والعناية من اكتساب خبرة والده في مضارب الأرز خرج لطفي بقراره الذهاب إلى محرم بك وطلب المعاونة مهما كان الأمر أسرع في ارتداء ملابسه بعد احتساء كوب الشاي مع كسرة الخبز فرح لطفي بمقابلة أخيه

سالم وعائلة شقيقته جميلة تسامر مع محمد بك، زوج جميلة فهم تربو سويًا في بيت واحد انفرد بالشقيق سالم شرح له ظروف معيشته وبحته عن سكن آخر معللاً أنّ الشقة غير صحية ورطبة على الأولاد، كان سالم يستمع إليه غير مكترث، فهم لطفي أنه لن يساعده وكان ما توقع معذراً بأن دخله يذهب إلى شقيقته جميلة وأسرتها، مذكراً لطفي بولع محمد بك بمراهنات الخيل، وكثيراً ما يعود إلى بيته خائب خاسر لمرتبته مما يضطر سالم لتحمل مسؤولية جميلة وأولادها، هزّ رأسه فقد أمسك أخوه بأهم الأسباب قناعة بعدم القدرة على مساعدته عاد إلى الأنفوشي يجر قدميه خافضاً لرأسه لا يعرف كيف يتصرف استقرت قدماه في نفس المكان الذي راقب فيه المرأة اللعوب الست مصيبة جلس ولكن ناظراً إلى البحر، سرح مع أمواجه عسى أن يهتدي إلى حل لم يمكث كثيراً على هذا الحال اهتدى إلى الحل لا توجد فائدة من الرحيل إلى سكن آخر أليس من الممكن أن يسكن في مكان آخر وتقابله ست مصيبة أخرى؟! لا بد من نقل حياته من أجساد النساء الغضة البيضاء والقناعة بحبيبتة شريفة والاهتمام بأولاده فعليه أن يجاهد أخرج ضحكاته بصوت عالٍ؛ فلا أحد بالشاطئ نهض وأنهى جلسته المغلقة متجهاً إلى المنزل، عمد بغض النظر عن نافذة الجارة اللعوب، كانت الشقة هادئة لم تشعر به شريفة، نظر إلى غرفة النوم، كانت شريفة منفردة بالفراش تراجع في هدوء إلى الغرفة الأخرى اطمأن ثريا وعلي يغطان في نوم عميق غمرته نشوة معايشة حبيبته شريفة، فالفرصة مهيأة

له بما يحب، بدل ملابسه اتجه إلى المطبخ أعد كوب الشاي مع كسرة الخبز جلس يستمع إلى المذيع كانت فشرة الأخبار اهتم بالسماع فما زال يعشق السياسة وأسرارها، كان هناك بيان يتلى، أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة بشأن ليبيا واستقلالها من معاهدة الصلح مع إيطاليا المبرمة عام 1947م، لتصبح ليبيا دولة مستقلة ذات سيادة كانت التفاصيل كثيرة تخص الناحية التنظيمية، من وضع دستور وتأسيس حكومة بواسطة ممثلي السكان في برقة وطرابلس وفزان، مجتمعين في هيئة جمعية وطنية أعجب بالقرار التاريخي وتوافقه مع قراره هو أيضاً بالمصالحة في حياته مع حبيبته شريفة أغلق المذيع توجه إلى النافذة المطلة على الشاطئ، لم ينظر إلى البحر كان بصره مسلطاً على قصر رأس التين حيث يوجد الملك فاروق وحاشيته، همس:

- هل سيأتي اليوم بزوال الملك وعهد جديد لمصر؟
توجه إلى غرفة النوم ليوفي بوعد التاريخي

مضت الشهور بعد أن أوفى لطفي بوعدہ التاريخي مع حبيبته شريفة بغرفة النوم، لم تشعر شريفة بآلام الحمل كما كان الحال مع ثريا وعلي، رغم انتفاخ بطنها الكبير، كان حملاً سهلاً ولكن كان هناك شيء واحد يقلقها عدم الشعور بحركة في بطنها كان عليها سؤال جارتها أم حلويات، كان الرد قاسياً:

- إن من الممكن أن يكون المولود القادم به عيوب تمنعه من الحركة -
اهتدت شريفة لكلمات الحالة نرجس، بأن في هذه الحالة، يجب تناول مزيج من الماء بماء الورد، أسرع وتناولت المزيج كانت تريد الخلاص من توترها، جلست بجانب النافذة المطلة على الشاطئ عصبت رأسها بالمدورة البيضاء لم تنس بوضع يدها على بطنها مر الوقت لم تشعر بحركة في بطنها زاد توترها ارتعشت يدها اليمنى أحست أن كل شيء يدور حولها أسندت يدها على الحائط متجهة إلى جارتها أم حلويات كانت مترددة خوفاً من حضور زوجها بائع الخضار هي تكره نظراته الحادة وتعاريج وجهه الممتلئة بحرارة الشمس، ولكن لا مفر من الاستعانة، لبت أم حلويات لندائها أخبرتها باحتساء كوب الماء المخلوط بماء الورد ولا فائدة ضحكت أم حلويات ضحكة الواثقة بنفسها بأنها لم تضع ملعقة من السكر بالمزيج أسرع شريفة إلى المطبخ، تناولت المزيج عمدت أم حلويات بإخراج شريفة من توترها أمالت برأسها على أذن شريفة أخرجت السر الدفين:

- الرجل الدرويش، جارنا بائع البخور والسبح تزوج من غازية من طنطا
كل يوم مشاكل خناقات مع ست الحسن الغازية، تخرج بدون إذنه يصحبها
بعلة ويمسيها بعلة

انطلقت شريفة بالحديث تاركة مولودها ومشاكله إلى مشكلة الشيخ
الدرويش:

- أليس من الكفاية علينا الست العروسة أخت ميمما بائع الحشيش، يأتي
الدرويش بغازية!!

هزت أم حلويات رأسها مع مصمص شفتيها لتزيد من احمرارها انتفضت
شريفة أمسكت بيد أم حلويات تشاركها في الإحساس بحركة الضيف
القادم استعادت شريفة ثقتها بالاطمئنان على ما تحمل في أحشائها همست:
- يكفي أجرة القابلة نفوسة.

ودعت أم حلويات حتى باب الشقة وهي تبالح في شكرها أغلقت الباب
توجهت إلى النافذة المطلة على الشاطئ شاهدت علي وثريا يهرولان الخالة
نرجس وأم صابر تحمل كل واحدة منهن حقيبة ممتلئة تعلق علي برقبة جدته
أما ثريا حاولت مساعدة الخالة نرجس في حمل الحقيبة، قفرت شريفة إلى
الخارج لم تساعد في الحمل بدأت بصب عبارات العتاب للخالة والأم
هدأت بالاستماع للخالة ونبا زواجها واستقرار أم صابر معها جلس علي
بجبر أم صابر أما ثريا فجلستها المفضلة في حجر شريفة نظرت الخالة إلى
بطن شريفة المنتفخة لم تتفوه بكلمة كانت لغة العيون بالعتاب على الحمل

قطع الصمت دقائق على باب الشقة هربت شريفة من نظرات الخالة لتستقبل زوجها لطفي رحب لطفي بالخالة نرجس والست حماته كانت ملاحمه فاضحة لسعاده شاهد الحقائق الممتلئة بما لذ وطاب كما سر بمكوث الخالة والست حماته عدة أيام، انسحب إلى غرفة النوم بدّل ملابسه جلس مع الست حماته همت الخالة وشريفة بإعداد الطعام، كان يستمع إلى حماته وحديثها عن إرث وأملك لزوجها بالشام، ولا تجد من يعاونها سرح في حديثها وتذكر المثل " التاجر لما يفلس يبحث في دفاتره القديمة "، كان يوماً هادئاً غاب عنهم شهوراً كثيرة علم نبأ زواج الخالة نرجس من سائق شاحنة، ودائماً على سفر، مما يجعل الخالة والست حماته في زيارات مستمرة عندهم بالأنفوشي غمرته السعادة فهناك مولود قادم ويجب المساعدة اقتربت الساعة من منتصف الليل دلف لطفي إلى غرفة النوم معتذراً، ثم لحقت به امرأته شريفة

البحر يقذف أمواجه، طائر النورس الأبيض يداعبها، ثم يهدأ سطح الماء فيخترقها طائر النورس خارجاً بمنقاره بما رزقه الوهاب كان المنظر يمثل لوحة طبيعية كما زاد من جمالها سقوط الأمطار لتتوحد السماء مع البحر بعيداً عن ناقصات الإنسان هكذا كان لطفي يتمتع من وراء قضبان النافذة المطلة على شاطئ الأنفوشي بهذا المشهد الرباني التفت إلى شريفة كانت جلستها توحى بمدى توترها فهي على وشك الوضع تذكر مفكرة الجيب هي صندوق أسرارهِ أخرجها من بدلة العرس التي مازالت شريفة محتفظة بها في كيس من القماش القطيفة اتجه إلى النافذة راجع تاريخ زواجه وميلاد ثريا وعلي قريباً سيدون ميلاد الضيف القادم همس:

-لماذا دائماً مع امرأته يتحدثان عن المولود باللغة الذكر حتى أولاده ثريا وعلي؟؟

نظر إلى شريفة حدثها بخواتمه كانت إجابتها تدل على فراسة المرأة وخبرتها -سمعت جدتي تصف المرأة الحامل بالذكر انتفاخ الوجه وذهاب جمالها، حتى وإن كانت جميلة جداً أما الحمل بالأنثى، فإن المرأة تصبح أجمل مما كانت حتى وإن كانت دميمة مع روقان للوجه ولمعان في العينين ضحك لطفي مقاطعاً لها:

- إذاً القادم ولد

ضحكت ثم تحول الضحك إلى آهات متتابة فهم لطفي الموقف أخذ بيدها إلى غرفة النوم أمسك مفكرته سجل بالقلم الكوبية، تاريخ هبوط الضيف

المولود للموم هبط إلى أم حلويات أخبرها بحال شريفة توجه إلى الحاجة
نفوسة القابلة

الشمس في طريقها للمغيب البرد قارس، عرج لطفي إلى سوق الميدان مخترقاً لشارع (الحجاري) ثم إلى شارع (الموازيني) كانت النقود قليلة اكتفى بشراء الجبن الفلاحي والفجل الورور المعمم بالرؤوس البيضاء الناصعة، ثم لترين كيروسين والعبوة الهامة الشاي ملم مشترياته، ثم عاد أدراجه صعد درجات السلم لاحظ الباب غير مغلق خرج صوت بكاء المولود وثريا وعلي يقفزان من الفرع يخبراه في صوت واحد:

- ملوم وصل !!

خرجت أم حلويات والحاجة نفوسة القابلة يصفن له قسما وجه ملوم، بما تحمل صفات أهل الشام أهل حبيبته شريفة، لم يصبر دلف إلى حجرة النوم علامات الفرحة تملأ وجه امرأته خلاف فرحتها بقدم ثريا وعلي همس:

- إذاً هذا المولود، أسعد أمه من أول يوم!!

أما هو كانت فرحته فرحتين؛ فهو لم يشارك حبيبته شريفة في عذاب الوضع وليس هناك مصروفات غير أجرة الحاجة نفوسة القابلة، أغتم لطفي فلا يوجد معه غير القليل من النقود انتبهت أم حلويات إلى موقف لطفي أخرجت جنيهين ناولتهما للحاجة نفوسة القابلة التي أسرع بالرحيل استأذن لإجراء المكالمات التليفونية وإخبار الحالة نرجس والست حماته بدأ يردد في الطريق:

- ملوم وعلي، علي وملوم، ملوم وعلي، علي وملوم

جلس لطفي بورشة النجارة بقاعدة رأس التين، كان في حيرة من الهدوء الذي يحيط بالقاعدة وقصر الملك، عكس الشهور الماضية، كانت هناك رتب عسكرية وتشريفات ووزراء يرتادون قصر الملك أخرج مفكرته نظر إلى تاريخ ميلاد ابنه للموم واليوم الخامس عشر من يوليو عام 1952م، أغلق المفكرة مرت الساعات أبدل ملابسه متجها إلى منزله أخذ طريق كورنيش الأنفوشي سماء صافية البحر هادئ أصر على الجلوس أمام المنزل، لم ينظر إلى نافذة شقته، نظر إلى نافذة المرأة اللعوب كانت مغلقة لم يتحمل حرارة الشمس، اتجه إلى المنزل كان اليوم هادئاً أخذ في مراجعة مشاهد القاعدة وقصر الملك وزائرين القصر مع عدم وجود الملك فشل في الوصول إلى نتيجة لما يجري، انتبه لصوتٍ عبر النافذة شاهد عم جمعة صاحب محل الحلويات، يقف مع بعض الرجال يلتحفون بشالات أهل الصعيد ملتفين حول الشيخ عطوة الدرويش بائع السبح والبخور ملتحفاً بشاله الأخضر الداكن المطرز باللون الأسود في آخره، لا تظهر غير عينيه، أما لحيته وشاربه فقد تشابك سوادهما مع لون الشال ارتعش من نظره الشيخ إليه كانت نظرات الشيخ عطوة الدرويش يعرفها، فكم من أمثال الشيخ يملكون الفراسة تسمرت عيناه على لطفي، شعر بالبرودة في جميع أطرافه خشي أن يفضحه ويعرف سره الدفين مع المرأة اللعوب، انتبه إلى دقات على باب الشقة كانت أم حلويات، أشار إلى المطبخ دهشت شريفة من التوتر

الواضح بوجه أم حلويات أمالت على شريفة وأخبرتها بالخبر الرهيب لم
تصبر تركت أم حلويات وأسرعت إلى لطفي لتعلنه بالخبر العاجل:
- الشيخ الدرويش قتل زوجته الغازية، اكتشف خيانتها والجميع يعرف
ويلتزم الصمت، والآن يستعدون للذهاب إلى المقابر، ارتعش قلب لطفي من
نظرات أم حلويات، نظرات قريبة الشبه من نظرات الشيخ الدرويش، هل
عرفت سره وما فعل مع المرأة اللعوب؟! قطع نظرات أم حلويات بالذهاب
مع الرجال والمشاركة في الجنائز اعترضت شريفة وأم حلويات اطمأن إذا أم
حلويات لم تعرف شيئاً عن مصيبتها مع جارتها المرأة اللعوب وإلا كانت
دفعته لمشاهدة مصيره تركهم ودلف إلى حجرة النوم، تمدد على الفراش
سرح مع المرأة اللعوب ومتعته راوده السؤال:
- ماذا تفعل الآن؟ هل علمت بخبر الشيخ الدرويش مع زوجته الغازية
وقتلها؟

جلس اعتدل في جلسته أخذ يردد:

- الغازية وليس عشيقها

استرخى وتمدد بالفراش

أغلق عينيه

وهو يردد:

- الغازية وليس عشيقها، الغازية وليس عشيقها

نهض كعادته مبكراً، توجه إلى المطبخ أعد كوب الشاي مع كسرة الخبز انتهى من ارتداء ملابسه، قبض على كوب الشاي، جلس بجانب النافذة المطلة على الشاطئ كان منظر الكورنيش غريباً، قوات عسكرية مدافع تجرها عربات بدأ يشعر بالاقتراب من استكمال المشهد الغامض بحال قاعدة رأس التين وقصر الملك، خرج من المنزل أسرع في اتجاه عمله داخل القاعدة اعترضه أحد العسكر، أخرج له تحقيق شخصيته بعمله داخل قاعدة رأس التين تركه الجندي في مكانه متجهاً إلى إحدى العربات العسكرية تابع الحوار بين الجندي وأحد الضباط، نهر الضابط وأمر بعدم دخول أي مدني غير عسكري إلى القاعدة، حتى وإن كان يعمل بها أعاد الجندي تحقيق الشخصية إلى لطفي مرتباً عاد أدراجه ولكن إلى أين يذهب؟ مازال الوقت مبكراً، اتجه إلى شارع زاوية خطاب فهناك أولاد عمه سعد ومصطفى صعد درجات السلم دق على باب الشقة لم يجب أحد رفع صوته بالنداء ولكن لا فائدة ولا محجب عاد إلى الشارع ترك لقدميه الحرية، وقف أمام مقهى فاروق شاهد جمع من الناس داخل المقهى، يلتزمون الصمت أمام المذيع كان بيان يُتلى من صوتٍ جادٍ خشنٍ وقويٍّ:

- بيان من الضباط الأحرار بإعلان تنازل الملك فاروق عن عرش مصر لابنه ونفيه خارج البلاد.

انقسم الجمع إلى مؤيد ومعارض حتى وصل الحال إلى درجة المشاحنة. أسرع النادل بغلق المذيع. خرج من المقهى منتشياً بقدرته على ملاحظاته

في الأيام الماضية وبما يدور بقصر الملك والقاعدة برأس التين ومشاهدته لرئيس الوزراء بالقصر وتعيين وزير حربية جديد منذ أيام قلائل. التفت إلى قلعة قايتباي مازالت شامخة فاتحة صدرها لعرض البحر، غير عابئة بما يجري بجوارها من أحداث. الأمواج تتلاعب من حولها، ولكن مازالت صامدة. نظر إلى السماء وهمس:

- يا هل ترى هل ستصمد مصر بما يجري بها من أحداث؟!!

أعطى ظهره للبحر كان أمامه مسجد الأباصيري. تخطى الشارع. دلف إلى ميدة الوضوء أسبغ الوضوء تناول المصحف، جلس بجانب المنبر. كان بجانبه حلقة من الشيوخ، بأوسطهم شيخ كبير يتحدث:

- هذا انقلاب على الملك، ليس بثورة، فالثورة لا بد من مشاركة شعبية لها.

رد عليه شيخ شاب يكاد وجهه ينفجر من شدة احمراره:

- يا سيدي هذه ثورة. أليس هؤلاء الضباط والجند من الشعب؟!!

هز زملاؤه رؤوسهم مؤيدين لقوله

قاطعهم الشيخ الكبير:

- لا ليس الشعب كله قوات مسلحة، فهؤلاء الضباط على درجة من الراحة والرواتب الجيدة. إنما الذي دفعهم لهذا العمل، الدافع الوطني لما شاهدوه من الملك، قضية فلسطين، الأسلحة الفاسدة، أليس الملك منذ سنوات يعربد ويصرف الأموال على الراقصات الأجانب. ألا تتذكرون كاميليا الممثلة واحترق الطائرة بها؟!!

- إنها يهودية يا فضيلة الشيخ!!
- تدخل شيخ آخر:
- كان الملك سيتزوجها خارج مصر!!
- رد الشيخ الكبير:
- نعم، ولكن كان هناك رجال مخلصين لمصر وللملك
- رد شيخ آخر:
- لكن يا فضيلة الشيخ، أليست الملكة هي التي دبرت كل شيء من وراء ظهر الملك؟!!
- أيده الشيخ:
- نعم كان من المفروض على الجيش أن يتدخل قبل الملكة وقبل أسرته. ولكن الجيش لم يتحرك إلا في وقت رأى أنه سيهان ويطرد رؤساءه وقادته. لذلك هذه ليست بثورة ولكنها انقلاب عسكري، وعسى أن يكون في مصلحة الشعب ومصلحة مصر.
- استمع لهذا الحوار، وكم كانت سعادته!! بهذه التوضيحات، فقد أعطته أبعاد هذه الحركة الثورية ومدى تأثيرها على الناس، الآن يقدر أن يتكلم ويحاور، خاصة مع أبناء عمه، سعد ومصطفى. دلف إلى الميدة. جدد الوضوء، استعدادا للصلاة لم ينس أن يمر على مقصورة قبر سيدي الأباصيري الملاصقة بالمسجد بالخارج شاهد خادم المسجد يمسك في يده بسلك رفيع، يدخله في صندوق النذور ويخرج بعض النقود الورقية ويدسها في جيبه

انتبه الخادم لوجود لطفي واكتشاف أمره ارتبك لطفي ماذا يفعل؟ هل يذهب إلى الأمام ويخبره؟ لم يعطِ الخادم فرصة للتفكير. تقدم نحوه. شرح للطفي أنه في حاجة شديدة إلى بعض النقود لأسرته ولابنه المريض، ولا سبيل غير ذلك التصرف وكله خير في الصندوق خير أو في يد المحتاج مثله دس في جيب لطفي بعض النقود وانصرف

" ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد "

لم ينسَ لطفي التغني بها رغم مرور ما يقرب من أربع سنوات على الثورة أو الانقلاب كما قال الشيخ، كان في طريق العمل بقاعدة رأس التين بقصر الملك. كانت توجهات الثورة أن العامل يأخذ مكانه ومكانته في المجتمع. نظر إلى أصابعه تكسوها طبقة " الجملكة " طلاء الموييليا. شعر بالسعادة فأخيراً أصبح لهذه الأصابع بصمة في المجتمع. نظرة عائلته تغيرت، حتى أصبح هناك تواصل متواضع معها. فهو مازال فقيراً كادحاً لتربية أولاده. وهم أغنياء. حتى أنه علم أخبار لقاءات وأعياد ميلاد، مع التوصية بتجنب حضوره بينهم. كان لا يهتم بذلك، حيث همه أن يكون على ود مع العائلة مهما كان الأمر. هكذا سمع الشيخ الإمام يوصي بصلة الأرحام. أنهى تلميع الموييليا بمكتب رئيس الجمهورية، بقصر رأس التين كان المشهد مختلفاً عن الماضي فلا رائحة خمور ولا روائح نسائية كل شيء كان منظماً بدلت صور الملك وأسرته بصورة الرئيس، كما أخذت حجرات القصر حظها من الحداثة. أزيل رمز التاج من على الحوائط، وعُلقت صور زعماء مصر. أحمد عرابي. مصطفى كامل. محمد فريد. سعد زغلول. تأهب لطفي للعودة، فقد أشرف ميعاد العمل على الانتهاء. لم ينسَ أن يأخذ قطع الجبن (النستو) من زملائه البحارة. فهم يعرفون مدى محبة لطفي لابنه الملموم. فهو حديثه المفضل معهم. وأن هذا الغلام سيكون له شأن كبير ومهم. كان واثقاً من حديثه عن الملموم. فدائماً يراقب تصرفاته مع أمه شريفة. وتميزه بين صبية

الشارع وأبناء الحارة. فدائماً يتولى زمام القيادة، منتحلاً أدوار الفرسان. يدس رأسه داخل قرطاس من الورق مثل البطل الروماني (سبارتاكوس) متقلداً بسيفه الخشبي، وإلحاحه على أمه شريفة بصنع قناع يضعه على عينيه مثل زورو وعباءته السوداء. يجري ويقفز بين رصيف منزله ورصيف سينما الأنفوشي. كما سمح له بدخول السينما في أي وقت، بأوامر من الحاج إبراهيم صاحب السينما. كما اكتسب ملموم حب عم عزت قاطع التذاكر وعم على مديرها الجميع يحبه ويتركون له حرية الدخول للمشاهدة المجانية. ثم يخرج للشارع مقلداً لما شاهده من أفلام، اقترب لطفي. شاهد للموم يجلس على رصيف السينما. لم يلحظ وجود والده. اقترب لطفي أكثر، كان للموم يقبض على أغطية زجاجات المياه الغازية.

السينالكو. السباتس. الصودا. الكوكاكولا. يدق الأغطية بحجر، ثاقب بمسمار في منتصف الغطاء ثقب، ثم يدككها في رباط من المطاط. انتبه للموم بوجود والده خلفه. ضحك لطفي. عرف ما يفعل سأله:

- أين مكر الخيط؟

أخرج للموم المكر من جيبه، ثم وضع حلقة المطاط المدكك بأغطية زجاجات المياه الغازية حول المكر متخذة شكل إطار السيارة قبض لطفي على يد للموم متجهاً نحو المنزل كانت ثريا تجلس في ركن الحجرة تكتب الواجب المدرسي، متخذة من مائدة الطعام القصيرة المستديرة، التي فضلها دائماً لطفي مبتعداً عن مائدة طعام أهله الأرستقراطية بحث للموم بين

المتروكات عن عصا لتكملة عجلة المكر نهفته أمه وأمرته بالانتظار حتى يستريح والده، لم يعطها لطفي قطع متعة ابنه ملموم، نظر ملموم إلى أمه ما كان عليها إلا أن تنسحب تاركة لزوجها مع حبيبته ملموم اكتملت اللعبة. قفز إلى الشارع اتجه لطفي وشريفة وثريا لمشاهدة ملموم من النافذة يلعب مفتخراً بين أصحابه. تناول لطفي وجبة الغداء. أخذ يرتشف الشاي. كانت ثريا تراقبه ضحك مشيراً إلى كوب الشاي:

- ما هذا؟

أجابت بكل ثقة وهي تضحك:

- فاكهة الفقير.

ابتسم لإجابة ثريا والتي توارثها هو الآخر من والده. أكمل احتساء الشاي. خرج من المنزل متجهاً إلى ورشة عمل بعد الظهر بجارة اليهود لمحبه ملموم. نظر إليه وهو يبتعد. كان كل منهما ينظر إلى الآخر. فهم لطفي نظرات ملموم أخرج قرش السلطان حسين المثقوب، التقفه ملموم متجهاً إلى عم جمعة بائع الحلوى. سار منتشياً بسعادة ابنه ملموم.

جلس لطفي يحسب عمر ابنه ملموم. كان السن لا يناسب التربية والتعليم، ولكن من الممكن الالتحاق بالمعاهد الأزهرية. عرض على حبيبته شريفة فكرته. أيدته. كان والدها يحمل العالمية من الأزهر الشريف. وسيكون ملموم عالماً من علماء الدين يحترمه الناس. اطمأن. غداً يذهب إلى المعهد الديني بجانب مسجد المرسي أبو العباس.

كان ملموم يذهب إلى المعهد الديني، مخترباً لشارع الحجاري ثم شارع الموازيني، إلى ساحة المرسي أبو العباس يصل أخيراً إلى المعهد، وسط أجرة الفول المدمس ورائحة الطعمية بمطعم الحاج عامر أمام المعهد. لم يأبه بحقيقته الثقيلة بالكتب الدينية وقماشها العبك. المزودة بالحمالتين. يضعها فوق منكبيه. فلا يشعر بثقل ما يحمل من كتب الدين. كان ما يقلقه. هو صياح أمثاله من التلاميذ. ملتصقين بأمهاتهم لا يتركونهن للدخول إلى المعهد يبكون، أما هو فيذهب وحده إلى المعهد. كان المعهد بيتاً عتيقاً محطماً من الداخل. درجات السلم خشبية. الفصول تفرشها الرطوبة. إضاءة باهتة. واكتملت الكآبة فضيلة الشيخ يحمل قطعة الخيزران القصيرة الغليظة مثل الشيخ، كعفريت من الجان بين يدي الشيخ صاحب النظرات المشتعلة. كان في أول اليوم حصتان لقراءة القرآن الكريم، ثم حصتان للحفظ. أما باقي الحصص، فلا أهمية لها غير اللعب داخل الفصل الرطب العفن حائطه ينتهي اليوم. وتبدأ العودة مخترباً حي السيالة، متجهاً إلى الكورنيش، حتى يصل إلى منزله.

كانت الأيام تمر على ملموم في بطءٍ شديد واكتملت بالهم الجاثم على صدره، أوامر الشيخ للملوم وزملاؤه بالحضور باكراً ومع كل منهم وعاء وكيس، فهناك معونة قادمة للأزهر الشريف سمن ولبن جاف، حضر للملوم في الصباح مستعداً لحمل الهدايا الثمينة لأمه، فنجان من الزنج، أعطته له أمه على قناعة بأن كمية السمن ستكون قليلة، وكيس من الورق للبن الجاف، كانت الطامة الكبرى. الشيخ يصب السمن للملوم لم يقدر حجم الفنجان الزنج، قطرات السمن تتساقط على جبهته وجلبابه الأزرق. كان اليوم الأسود للملوم. علقة ساخنة بالخيزران العفريت وشرر عينيه المشتعل ناراً وغضباً. منع عن الملوم السمن واللبن الجاف. عاد مطأطأ الرأس بائساً لا يدري بماذا يخبرهم بالمنزل علمت شريفة بتصرف الشيخ. أخفت قسمات الحزن باحتضان الملوم في صدرها. أما لطفي كان له موقف آخر. الذهاب إلى عائلته بمحرم بك ليستمع إلى النصيحة في استمرار الملوم في المعهد الأزهري. كان استقبال أخته جميلة وشقيقها سالم بالسخرية بسبب إلحاق ابنه للملوم بهذا المعهد الأزهري. ندم لطفي بالذهاب إليهم. فأنهم يتشبهون بالخواجات يحتسون البيرة أثناء تناولهم الطعام، بدلاً من الماء. كما زاد شقيقه سالم أحضر قبة ووضعها على إصبعه كعمامة الشيخ يلفها ويردد:

- زرز. زرز. زرز.

ترد عليه جميلة وزوجها محمد بك:

- زرز. زرز. زرز.

عاد لطفي غير مقتنع بهجوم عائلة محرم بك. ولكن كان قراره موافقاً لهم بإخراج الموم من الأزهر سرد على شريفة موقف عائلته. بادرت بالضحك فهي تعرف أهله أكثر منه. جلس يستمع إلى المذيع. أناشيد وطنية. التف حوله شريفة والموم. خرج صوت الزعيم جمال عبد الناصر. يعلن بتأميم قناة السويس. لم يتمالك لطفي نفسه. أخذ يصفق ويرقص. أما شريفة كانت سعيدة بالخبر. أما الموم فقد ألصق أذنه بالمذيع. لم يتحرك فعل لطفي مثل الموم. وجاء التعقيب بالمذيع. أن هناك أيام صعبة على أهل مصر. انتفض الموم وأغلق المذيع. لم يعترض لطفي. كان همه إخراج الموم من الأزهر.

صفارة الإنذار تعلن هجوم طيران أصبحت الشوارع خالية من المارة رجال الدفاع الشعبي تأمر بغلق شيش النوافذ أغلقت المدارس على التلاميذ لا أحد يخرج كان هذا حال معهد ملموم. ولكنه كان مصراً على الخروج فالحال بالخارج أفضل من داخل المعهد حتى ولو كان هناك الموت ينتظره!! فتح باب الفصل بهدوء. نظر إلى ممر درجات السلم لا أحد باب المعهد لم يغلق. هبط بخوف يمتلكه. لم يعترضه أحد من الشيوخ. التصق بالحائط وصل إلى سلم الدور الأول. لم يجد أحداً هبط درجات السلم، كان بينه وبين باب الخروج خطوات قليلة والخوف من عفريته الشيخ ونظراته المشتعلة أخيراً خرج من باب المعهد. بدأ يجري. لم ينظر خلفه وصل إلى نهاية شارع الموازيني. دلف إلى شارع أبو نواية. اعترضه رجل الدفاع الشعبي. قبض على يده. كان ملموم يريد أن يفر منه خوفاً من إعادته إلى المعهد وخيزرانة الشيخ. أدخله في حوش أحد المنازل. وجد أطفال ونساء. الجميع يقفون في صمت، فحص ملموم النساء عسى أن يجد أمه كان أزيز الطائرات يملأ السماء. ودوي المدافع تزلزل الأرض، اهتزت الأرض بصوت انفجار وتكبيرات، تأتي من ناحية البحر، دلف إليهم رجل من الدفاع الشعبي يخبرهم بسقوط طائرة من سلاح العدو بمنطقة الطابية بجانب عسكر السواحل ويتم البحث عن قائد الطائرة، انطلق صوت صفارة الأمان بانتهاء غارة العدو. خرج ملموم. لم يصبر أخذ يجري ناحية منزله، تذكر الطائرة، ولا بد من مشاهدتها. كانت محاطة بعسكر الحراسة، منفصلاً ذيلها عن كابينته القيادة. وعلى بعد

خطوات شاهد مروحتها. أعجب من حجمها الكبير، فهو يراها صغيرة في السماء. أسرع بالعودة إلى المنزل كان هناك جمع من الناس يقفون تحت نافذة منزله يتحدثون. شعر بالفخر فإن جدته قد أرشدت عن قائد الطائرة، يسبح ويغطس في ماء البحر، على مقربة من جزيرة بحر الأنفوشي المشهورة. قفز على درجات السلم، يريد أن يحتضن جدته، تراجع فقد كان شقيقه علي متربعا على حجرها.

بحر هادئ. هواء منعش. شمس ساطعة، هواء يملأ الرئتين برائحة اليود. ميزة بحر الأنفوشي.

بحري تسكر وتسحر الغريب والقريب. وهذا سر جمال الأنفوشي. أهلها لا يعرفون العنصرية فهي تستقبل جميع الأجناس. من باب (عشرة) بالجمرك. سائحون أشكال وألوان، تدخل من شارع النصر، وتعبر إلى بحري، لمشاهدة مقر الأنتيكة بآثاره الرومانية والبيزنطية ومقابرها الرخامية، ثم يمرون أمام بيت ملموم، للذهاب إلى قلعة قايتباي والميناء الشرقي، كان يستقبلهم ملموم مع أصحابه بكلمتين، يحفظهما كل أولاد الأنفوشي:

- جف مي وان سجرت.

يضحك السائحون. وتبدأ الهدايا للصبية، وتنتهي بالتبادل مع أصحابه، يبدل كل واحد، بصنف من السجائر، وينتهي الأمر، لملموم وأصحابه. يحملون كل واحد منهم نوعاً واحداً من السجائر. يقود ملموم المسيرة بأصحابه إلى سينما الأنفوشي. وتبدأ المقايضة. مع مدير السينما وقاطع التذاكر، بعض أصحابه يدخلون السينما، والبعض. يأخذ النقود إلا لملموم. يأخذ النقود من أصدقائه الكبار عم عزت وعم علي، ويدخل السينما. كان حظه دائماً في الأفلام الأجنبية. يشاهدها ثم يتقمص أبطالها. فتحت صالة السينما أبوابها بانتهاء العرض. أسرع لملموم، فقد قرب ميعاد عودة والده. لم يجد غير أمه. فثريا وعلي لم يحضرا بعد من مدارسهم. تمدد على حافة النافذة المطلة على الشاطئ. ارتبكت الرموش وارتعشت. ذهب مع النوم، ليدخل في

فيلم آخر من أين أتى؟ من مترو جولدن ما ير؟ أم من كولومبيا؟ أم من استوديو مصر؟ للوم يجلس بين أصدقائه. يقرؤون الجرائد على درجات السلم طائرات وجيوش. شقيقه على في معركة، يجرح، شقيقته ثريا تبكي على زوجها. جيران يودعون موتى جنازة كبيرة وعظيمة يخرج لها كل أهل مصر إلا هو فقد حبسته أمه شريفة ومنعته من الخروج إليها يلحق بشقيقه علي في معركة كبرى ترفع أعلام مصر تحتفي الجماهير بالجنود، ثم جلوسه بمكتب كبير بين يديه أوراق كثيرة وجرائد تظهر فيها صورته طلاقات يقتل قائداً يسمى بالشهيد ينعيه للوم وأصحابه يتفرقوا، يلعب صبية صغار بين قدميه، لسعته حرارة الشمس. انتفض من أحلامه. وجد والده يخلع ملابسه في غرفة النوم. دلف إليه للوم. جلس على ركبتيه. حكى له الفيلم اللوم لومي. ابتسم لطفي، قبله وضمه إلى صدره، نصحه أن يكون هذا الحلم سراً بينهما ولا يقصصه على أحد. وافق دون أن يفهم لما هذا التكتم؟! قفز متجهاً إلى الحمام، أما لطفي. نظر إلى البحر ورفع رأسه إلى السماء. دعا للوم دعوات لا يعلمها إلا هو. ورب السماء.

شهر أغسطس وحرارة الشمس الساخنة. والأجساد العارية. طابور الحب على أشده. ازدحام لا يفرق بين حلال وحرام ولا سن. الجميع منتظر دوره في امتلاك أو فعل ما يحب ويهوى بشاطئ الأنفوشي أو بداخل السينما أو بين أمواج البحر. بين مقاعد السينما والظلمة الملتهبة. أو تحت درجات السلم. كان هذا ما يحبه للموم أنسب مكان. صخرة من الزلط الأسود ذات الشكل المستطيل، مرتفعة عن الأرض بمقدار يسمح للجالس أن يأخذ راحته في وضع قدميه في راحة ويسر كانت الصخرة الأريكة تأخذ ثلاثة للجلوس عليها. تقابلها صخرة من الزلط الأبيض. لا تسع لأكثر من جليس واحد. إذا وقف للموم ورفاقه لاتصل رؤوسهم إلى سقف درجات السلم.

كانت (الحناية) تحت السلم يجتمع بها للموم العربي ابن الست أم جرمانية. بالمنزل الملاصق لبית للموم وزغلول ابن الست أم نوال جارتهم خلف سينما الأنفوشي. وسرور جار للموم صاحب الخطوات المزعجة فوق سقف للموم، جمعهم تقارب سنوات عمرهم. كما جمعتهم الغواية تحت السلم مع بنات الجيران حلويات سونة، ونجية صاحبات الأجساد البيضاء المنتفخة رغم الفارق بينهن وبين للموم ورفاقه. يبدأ الحب المتواضع تجلس حلويات وسونة ونجية على الصخرة السوداء يجلس أمامهن للموم على الصخرة البيضاء. يقف زغلول على مقربة منه. أما العربي وسرور فهم يسدون ممر الحناية تحت السلم بأجسادهم. يقف للموم يده اليمنى في جيب جاكيت

البيجامة، على وجهه نظارة شمسية بعين واحدة. يده اليسرى تعبت بين ساقَي حلويات، بعد أن أسقطت سروالها مقيداً لساقِها بعدم الحركة. سونة ونجية ينظرن إليها ينتظرن دورهن في هذا الكشف العاثر بين يدي الطبيب ملموم العاثر، غير عابئين بنظرات العربي وسرور، أما زغلول فهو مراقب لممر درجات السلم تلتهب حلويات ثم تلتهب سونة ونجية مع العربي وسرور، ويأتي دور زغلول ليلهب عواطف حلويات مرة أخرى ويزداد فتح وفرشة ساقِها تاركة يد زغلول تعبت. تنتهي غواية الأطباء من الكشف العبي، ثم يتفرقون عائدين إلى منازلهم في خير وسلام وبدون إزعاج أو قلق لهذا الحبّ العاثر. كان هذا حال ملموم ورفاقه، لا يدري أحد من أهل الأطباء الصغار والمرضى صاحبات الأجساد البيضاء الغضة المنتفخة. كانت التمثيلية العبثية تنمو بينهم مع مرور الأيام. لتأتي بدركات أخرى من الحب العاثر الذي يشغل تفكير ملموم. كثيراً ما يشاهد بسينما الأنفوشي المرأة وهي بين أحضان الرجل يطبع قبلاته على شفثيها. كان لا يفهم ماذا يفعلان حاول أن يسأل؟ لكنه تراجع بعد أن شعر أنه يخص الكبار، فدائماً تشتعل صالة السينما بالصفير والتصفيق عند مشاهدة التصاق الفم بالفم. كان يشعر باللعب يزيد في فمه، وهذا ما دفعه إلى حلويات دون أن يصحب رفاقه في عيادة تحت السلم. رفعت حلويات جلبابها وأسقطت سروالها. لم يضع ملموم يده بين ساقِها. أمسك كتفيها وألصق شفثاه بثرغها. استجابت حلويات له وألصقت هي الأخرى شفثيها.

شعر ملموم بحلاوة شفقي حلويات. التي أطبقت بأسنانها على شفتيه. تراجع دافعاً بقبضته إلى صدر حلويات لترتطم بحافة الصخرة السوداء. لم يأبه للألم. كان الخوف يمتلكه. تورمت شفتاه. وقف بجانب سينما الأنفوشي. ماذا يفعل؟ يتوجه إلى المنزل؟ أم ينتظر زوال التورم؟ نظر حوله، اطمأن لم يجد أحداً من أصحابه. كما أن ميعاد والده لم يحن بعد هدى قليلاً تحسس شفتيه لم يتمكن من معرفة زوال التورم. اتجه إلى باب السينما كان عم عزت قاطع التذاكر يقف مستغرقاً في تدخين سيجارته. لم يلحظ ملموم، تردد ملموم ماذا يفعل مع هذه الشفاه؟ يا ليت له شارب مثل والده! ليخفي به شفتيه. تشجع متجهاً إلى حمام السينما لمشاهدة وجهه في المرآة قفز على حافة الحوض، قبض على يد صنوبر المياه محدقاً متفحصاً لشفتيه أحس بالراحة فقد هدى التورم بدأ بالنزول من على الحوض قابضاً على صنوبر المياه لتندفع المياه على رأسه وملابسه انحرقت قدمه ليستقر في خليط من الماء المتسخ حاول النهوض فشل. اكتمل اتساخ ملابسه زحف إلى زاوية الحمام مبتعداً عن اندفاع المياه. انتصب واقفاً لا يدري ماذا يفعل وكيف يمر دون أن يراه أحد؟ شاهد شاشة العرض. كان الفيلم على الانتهاء. فهو الذي شاهده بالأمس وها هو البطل يقبل حبيبته أشاح بوجهه متحسناً لفمه اندس وسط رواد السينما أسرع بالخطى اقترب من منزله. ارتبك، الست أم حلويات تقف على باب المنزل. كان الحظ معه لم تلحظ دخوله الصامت. دفع بيده باب الشقة. دلف إلى الداخل. لم يجد. أمه اقترب من

باب الحمام. كانت أمه. تجلس القرفصاء. على مقعد الحمام. ذو الأرجل. القصيرة. الملتحمة بعضها ببعض، تضع بين أرجلها طست الغسيل مرتدية جلباب الغسيل الممزق فهو بالكاد يستر القليل من جسدها الأبيض الناعم، استحي من منظر أمه أراد أن يعود في هدوء. اصطدم بنداء أمه. استدار إليها. نظرت إليه. رفضت الطست بقدميها. تفحصت ملابسه المتسخة المبتلة. عاجلها بإجابته السريعة والمرتبة، اصطدام شفتيه برأس صاحبه سرور ابن الجارة امرأة سعيد، التي تكرهها أمه وجارتهم أم حلويات. كان يريد سد أي منفذ للتحري عن صدق كلامه. أمسكت بذيل فستانها. مسحت يديها. تحسست ملابسه المبتلة، وقف صامتاً، لم يقدر على أن يزيد في كذبه فهو يعرف أمه ومدى فراستها وهل قبلت إجابته عن شفتيه ليخبرها عن اتساخ ملابسه!! سحبته من يده إلى غرفة النوم. نرعت ملابسه المتسخة. عاجلته بالتقدم إلى الحمام في صمت، وقف أمامها كيوم ولادتها له. لم يأبه لحاله، كان همه أن لا تعاود السؤال عن شفتيه، أنهت استحمامه. تركته لإحضار الملابس النظيفة من غرفة النوم، كانت فرصته ليتحسس شفتيه. مازالت شفته السفلى منتفخة. لم ينتبه لوجود أمه تراقبه بجانب الحمام. أكمل ارتداء ملابسه في صمت. أعاد كذبه مرة أخرى مع صاحبه سرور ووقوعه على الأرض واتساخ ملابسه. لم تأبه بسرد حكايته. جلست القرفصاء واضعة طست الغسيل بين فخذيها. دلف هو الآخر خارج الحمام. اندس في فراشه يستريح من عناء عضه حلويات.

انتبه لطفي ليد ابنته ثريا توقفه من نومه. أخبرته بوصول زملائه أمام المنزل. لحق بها قبل مغادرتها. طبع قبلة على خدها. لم يترك يدها. أسبلت ثريا عينيها. تلون وجهها مثل التفاحة الحمراء الناضجة. ضحك تارك يدها حتى لا تسقط من غصن شجرتها الربانية. كانت ثريا ترتدي روب أمها. لمته تحت إبطها أسرع بالهروب من وجه أبيها. اتجه إلى النافذة. أشار إلى زملائه بالانتظار. دلف إلى الحمام ثم إلى حجرة النوم ارتدى ملابس الخروج. لاحظ مراقبة شريفة لحركاته. تعجب فهو دائماً يخبرها من أين جاء وإلى أين يذهب. كما أن اليوم الأحد، إجازته وعلمها بوصول أصحابه اليوم. نظر إلى المرأة غير مكترث بنظراتها. أشاحت هي الأخرى عن مراقبته. هجم ملموم متعلقاً برقبة والده. تركه يعبث في جيب القميص. أخرج ملموم القرش المخروم. قفز على الأرض مثل عصفور أبو فصادة متجهاً إلى خارج الشقة. فهو يعرف طريقه إلى عم جمعة بائع الحلوى. أشار لطفي من النافذة إلى زملائه. خضع لآخر خطوات خروجه من امرأته شريفة. مررت يدها على القميص تصلح ما عبث به للموم. ناولته المنديل الكاكي الأميري. تركها لينضم إلى أصحابه بالخارج. كانت شريفة تراقبه من خلال قضبان النافذة ملتصق بها علي وثرثريا. كان للموم منهمكاً في مناقشة زملاء والده. الأسطة أحمد ملمع الموبيليا مثل والده وعم سعيد الحداد. وربيع جارهم الميكانيكي الذي منح للموم قرش مخروم. ضحكت شريفة بهرولة للموم إلى عم جمعة بائع الحلوى. تابعت شريفة ذهاب زوجها مع زملائه. لم تترك النافذة حتى

دلف زوجها وأصحابه الشارع الجاني، كانت مطمئنة فهي تعرف إلى أين يذهب زوجها مع أصحابه، فهم يفضلون مقهى الخرس. لا يسمعون ولا يتكلمون، إلا بالإشارات. شيء واحد يقلق لطفي بالمقهى تلك النظرات الحادة المنبعثة من عيون الخرس، خاصة للأغراب أصحاب الألسن الطويلة والآذان الصاغية للقليل والقال، انتبهت شريفة إلى صوت مأمأة بالشارع أسرع إلى النافذة ارتعشت فالقادم زميل زوجها عطية الأخرس رفع يده مشيراً إلى تحت أنفه مع برم أصابعه؟ أجابت عليه بترك يدها اليمنى تلوح إلى الأمام، ويدها الأخرى تحت أنفها مع برم أصابعها هي الأخرى. أخذ عطية الأخرس يرفع يده اليمنى إلى رأسه يلوح بها. أجابته شريفة برفع يدها على رأسها. كانت نظراته حادة شبيهة بنظرات طائر البوم، كانت ترعب شريفة. أكملت الإشارات بكلتا يديها التي علمها لها لطفي لتخبره بتواجد زوجها بمقهى الخرس هو وأصحابه. أعطى لها ظهره منطلقاً إلى المقهى. مسحت العرق من على جبهتها وعناء مواجهة عطية الأخرس. جلست على الأريكة بجانب النافذة مثل زوجها والاستمتاع بالنظر إلى شاطئ البحر وتوحده مع السماء. صافية كانت أم بها غيوم. فالاثنان لا يفترقا عن بعضهما البعض. تعلق ملموم برقبتها. لم تتبرم فهي تحب أن يكون ملموم رفيقها في هذه الجلسة. لا يفترقا عن بعض مثل السماء والبحر. جلس على فخذها، أخذت تلقنه كلمات تحرص على ترديدها له منذ صغره. أشارت إلى طريق الكورنيش وقصر الملك:

- هذا طريق مرور الملك فاروق إلى قصر رأس التين داخل العربية الملكية، يجرها الخيول. العربية مزينة بالذهب والفضة وأعلاها تاج الملك.
- الملك فاروق ينظر من نافذة العربية الملكية ملوحاً بالتحية لي. وأنت تضحك له. وهو يضحك لي
- أنت تدخل رأسك بين كتفيك خوفاً من بريق أعين العبيد السود على جانبي العربية الملكية.
- العبد الأسود يخرج لك لسانه الأحمر وتبرق أسنانه البيضاء ويلمع أنفه المنتفخ.
- أنت تدخل يدك ورأسك في صدري. تختبئ هرباً من نظرات العبد الأسود.
- العربية الذهبية تبتعد عنا، يصحبها العبيد السود.
- الملك فاروق ما زال ينظر لي، وأنت تنظر إليه تضحك له وهو يختفي بعربته الملكية المزينة بالذهب والفضة.
- تنظر إلى الملموم منتصباً على حافة النافذة يبدأ بإعادة ما سمع من أمه. يتم التلاوة. تحتضنه وتقبله بقبلاتها التي كانت تشبعه وتغنيه من ذهابه لعم جمعة بائع الحلوى.
- خرج شريفة والملموم من توحدما مع الملك فاروق على صوت شقيقه علي يخبر بوصول أم حلويات. ركب الملموم على كتف أمه وأخذ يردد:
- الملك فاروق ينظر من نافذة العربية الملكية ملوحاً بالتحية لي ولك. وأنت تضحك له. وهو يضحك لي.

- أنت تدخل رأسك داخل كتفيك خوفاً من بريق أعين العبيد السود على جانبي العربية الملكية.

- العبد الأسود يخرج لك لسانه الأحمر وتبرق أسنانه البيضاء. ويلمع أنفه المنتفخ.

- أنت تدخل رأسك في صدري. تريد أن تختبئ من العبد الأسود.

- العربات الملكية المزينة بالذهب والفضة تبتعد عنا. يصحبها العبيد السود.

- الملك فاروق مازال ينظر لي وأنت تنظر إليه. وتضحك له. وهو يضحك لي وهو يختفي بعربته الملكية المزينة بالذهب والفضة.

لم تلقِ أم حلويات التحية على شريفة. أسرع إلى النافذة تنظر. لم تجد أحداً. اقتربت من شريفة ولملوم جاحظة عينيها: -أين الملك فاروق؟ أين الملك فاروق؟!!

ضحكت شريفة مع ولديها لملوم وعلى. قفز لملوم متجه إلى الحمام. مازالت أم حلويات تعاود النظر من النافذة. لم تقدر شريفة على الوقوف ومواجهة سؤال أم حلويات. سحبتها من ذيل جلبابها.

أجلستها بجانبها. مازالت أم حلويات تردد السؤال:

- أين الملك فاروق؟ أجابت شريفة وهي مستغرقة في الضحك:

- ملك فاروق إيه.!! الملك فاروق ترك مصر منذ

سنين. خلاص ما عاد باشا وما عاد بيه. كل ده راحت عليه.

تقاطعها أم حلويات:

- طيب ولملوم وكلامه والملك والعبيد السود والسلام والتحية. أنا لا أفهم شيء!!؟

تعتدل شريفة في جلستها وتلاحظ عيناها ويخشن صوتها. تقبض على يد أم حلويات:

- الولد للموم حضر عهد الملك فاروق أكثر من عامين، أحس بشيء يدفعني لأحفظه مشاهد الملك فاروق والعربات الملكية والخيول والعبيد السود، وهو يستمع ويحفظ ويسأل عن المزيد وتكملة مشاهد الملك وأسرته الملك.

تنظر إليها أم حلويات بنظرات تفهمها شريفة وتعرفها من خلال بائعين الأسواق. سحبت أم حلويات يدها وأمالت على إذن شريفة. استجابت لها وبدأت تنصت. فهي تعرف أم حلويات عندما تتمايل وتقرب من رأسها:

- آخر أخبار الست مصيبة أخت ميمما بائع الحشيش. هل تعرفين؟
- لا؟

- زوجها يرجع في ساعات متأخرة من الليل.

تلتصق شريفة بأم حلويات تريد المزيد.

- إخوته الصبيان من والده.

- نعم. يتناوبون عليها كل واحد يوم.

تدق شريفة على صدرها:

- يا خرابي. يا خرابي. فهمت الآن الأصوات.

تقاطعها أم حلويات.

- أصوات من؟

تمسك شريفة بيد أم حلويات وتلتصق بها:

- صوت أسمعه خلال ساعات النهار. ولا أعرف أن أميزه.

تقاطعها أم حلويات:

- صوت من أين؟ ومن؟

تقبض أم حلويات على أسنانها البيضاء، ثم تخرج فكها الأعلى. تبتعد شريفة خائفة ترتعش:

- حلمك يا امرأة. واحدة. واحدة. ادخلي أسنانك في فمك أنا خائفة.

تضحك أم حلويات. تبتعد عن شريفة وتخفي أسنانها بيدها.

تكمل شريفة ما سمعته من خلال المنور الداخلي بالشقة. أصوات لا تقدر أن تميزها؟ أصوات ترتفع ثم تنخفض، ثم ترتفع ثم تنخفض ثم تختفي بخطوات الأقدام إلى الحمام.

يرتعش جسد أم حلويات. تضع يدها على فمها والأخرى بين فخذيها:

- نصيبتي السوداء. ألا يكفيها الأغراب. يا نصيبتي السوداء.

تضع كلتا يديها بين فخذيها. ويرتعش جسدها.

تنزع شريفة أيدي أم حلويات من بين فخذيها:

- هل عواطفك سائبة لهذه الدرجة؟!!

خيم الصمت عليهن. أشاحت أم حلويات بوجهها. مسحت العرق من على صدرها ورقبتها. تابعت شريفة خطوات أم حلويات وهي في طريقها إلى باب الشقة.

عيون جاحظة. أصوات ممزقة. إشارات الأصابع تطيح بالهواء. بالأنف. وكثيراً في وجوه بعضهم البعض، جلس لطفي وأصحابه بمقهى الخرس، لا حياة إلا ليد تحمل كوب الشاي. أفواه تتحدث في هدوء وبصوت خافت، كانوا ملتزمين مثل رواد المقهى، عطية الأخرس، يفعل كما يفعل زملاؤه الخرس. يتصرف بملأ حرите. صوت المأمة والإشارات، التي تكاد أن تطيح بعين زملائه، أو بأكواب الشاي على المنضدة، يفرك لطفي أصابعه يحاول إزالة طبقة الجملكة، دهان الموبيليا منها ولكن لا فائدة. قبض ربيع الميكانيكي، أيضاً أصابعه يريد التخلص من الطبقة السوداء. ولكن لا فائدة. تقابلت نظرات ربيع بصديقه لطفي. ضحك ربيع شاركه لطفي بالضحك، ولكن لم يلتزم بأداب مقهى الخرس، فضحكاته كانت قوية وعالية. كانت عين عطية الأخرس تراقبهم. التزم الصمت أحمد الأسترجي وسعيد الحداد. لم يُعطِ ربيع فرصة لأحد من أصحابه. بدأ يحرك يديه في الهواء. لصاحبه عطية الأخرس ولأصحابه أحمد الأسترجي وسعيد الحداد:

لاحظت أخي لطفي يفرك أصابعه من الجملكة، بعصبية شديدة، أحسستها، فبدأت أنا الآخر أفرك أصابعي أشاركه في همه الذي لا يعرفه غير حامل بصمات مهنته في يده وأصابعه. الجنس يا أخوة. نعم الجنس وخاصة الملامسة. وهي عندي ألد من مباشرة الجنس. اللمس محروم منه حتى مع امرأتي أم أولادي، أعمل كل ما يحلو لي، إلا اللمس بيدي على جسدها. أصابع خشنة وسوداء تبتعد بي عن الأماكن التي أحبها وأتلذذ بها، إني

محروم مما أحبه وأهواه. لطفي ذكرني بامرأتي وهو يفرك أصابعه من الجملة ومحاوله إزالتها.

خفض ربيع يديه فقد أتعبه شرح الأمر لزميله عطية الأخرس. الذي قبض على يدي لطفي. أسلم له يديه عسى أن يجد له حل لمشكلته هو الآخر. نفر عطية الأخرس من يدي لطفي الذي بدأ هو الآخر البوح بهمه:

- نعم عندي مشكلة أخي ربيع، كل حديثه صدق وعذاب مشاعره وحرمانه من أقرب الناس إليه والتلذذ بما يهوى ويجب وهذا أمل أود الوصول إليه، ربيع عنده حق، ولكن أنا زودت الطين بله، مثل ما يقولوا في المثل في يوم كنت مشتاق للمس حتى وصل الأمر أن ذهبت إلى منزل المعلمة فلة الراقصة، بجارة اليهود وأنا أعاهد نفسي أن لا أفعل شيئاً يغضب. كل ما أريده هو الملامسة بيدي لكل ما أحبه وأهواه. تناولت كوب الشاي. كان من نصيبي في وجه مثل القمر وجسم غصن البان، عود ملفوف وشعر أسود ناعم. كلها جميلة مثل الفل. كان همي في شيء واحد. أن ألمس وأتحسس. دفعت المبلغ المطلوب. دخلت مع الغصن الملفوف بالغرفة. أخفيت بكل ما أستطيع أصابعي وما تحمل خشونة مثل الصنفرة الحدادي. أمرتها أن تطفئ الأنوار. كانت مطيعة لما أريد. بدأت تستجيب لرغباتي. شعرت بخشونة أصابعي. هبت واقفة. أضاءت الأنوار. نظرت إلى أصابعي ثم إلى جسدها. لطمتني على وجهي وصاحت:

- البضاعة ليست لك وحدك. اذهب اتجوز ولا اتنيل على نفسك.

نظر لطفي إلى أصحابه كانوا مستغرقين في متابعته سقط عطية الأخرس بمقعده على الأرض من شدة الضحك انتبه أصحابه الأخرس إليه التفوا حول لطفي وأصحابه كانت نظراتهم مثل طائر البوم. قبض أحدهم على رقبة لطفي هجم عليه عطية الأخرس ينقذ صاحبه لطفي من يده. شرح الموقف وما حمل من سوء الفهم. انصرف زملاؤه الأخرس. مسح لطفي العرق من على جبهته. أشار على أصحابه بالسلام. أعطى لهم ظهره. ترك قدميه تقوده إلى الطريق.

جلست شريفة أمام النافذة المطلة على شاطئ الأنفوشي تتأمل المصطافين، فهم يأتون من جميع أطراف الإسكندرية، خاصة المناطق الشعبية وحهم للشاطئ الشعبي المشهور بشاطئ "ستانلى ماعز" فكما هو مزدحم في شهور الصيف بالمصطافين. مزدحم في شهور الشتاء. يرتاده العربجية، أصحاب الخيول والحمير والبغال للسباحة وإمتاع خيولهم وحميرهم وبغالهم ليأخذوا بعض الراحة من مشاق الحمل والضرب بالكرباج والعصا الغليظة، وفك أسرهم من جر العربات ومن اللجام والحديد وغطاء جوانب العيون. كان استغرابها من التفاهم والود والصداقة والمحبة بين الرجل العربي والحيوان وسط مياه البحر. ولا ترى اختلافاً عن شهور الصيف، إلا في مشاهد بين رجل يلهو في الماء والإمساك بنهد امرأة. أو بمؤخرتها ثم يتلو كلمات الاعتذار لهذه المرأة أو تلك الصبية. خافض رأسه أمام النظرات القاسية بالعتاب عما فعل مبتعد ليلحق بجسد آخر. عسى أن يتجاوب معه في اللمسات تحت الماء. وتستمر حلقات المداعبة وهذا ما كانت تحبه شريفة. من مشاهدته أسبوعياً أيام الأحد والجمعة. ومشاهدة ختامها ونهايتها التي كانت دائماً تنتهي بالعراك والمشاجرة وينقلب شاطئ الأنفوشي لساحة قتال وتتحول أيدي المظلات إلى آلة فتاكة من الممكن أن تنهي حياة من تطوله، فإذا كانت ضعيفة مترددة فينتهي الموقف إلى بعض الغرز الطبية في الرأس. مع فقدان لحل وأواني الطهي بما تحمل من الكرب المحشي بالأرز والمميز بالرائحة النفاذة، التي تسيطر على معدة متناولها بالساعات الطوال ليخرج

روائح. وتناثر السلطة والبطاطس المقلية المحمرة وتلون رمال الشاطئ بما وقع عليها من قطع البطيخ مع سيلان برادات الشاي لتكتمل صورة توحد العراك مع خليط رمال الشاطئ وما يظهر به من خليط الدماء والبطيخ وقتامة الشاي. ثم يهدأ الشاطئ ويبدأ البحث ولملمة ما تناثر من حلل وأواني وبرادات الشاي. ابتسمت شريفة تذكرت هذه المرأة وهي تجري لاهثة وراء زوجها قابض على يد المظلة للاشتراك في العراك ومآزره أصحابه. تصرخ بأعلى صوتها:

- لباسي. لباسي.

وهو عالق بيد المظلة في يد زوجها، كالعلم المنتصر يتوقف العراك بين الطرفين لستر لباس المرأة تنتهي المعركة بابتسامات وتصافح ثم الجلوس للتصالح مع تناول الشاي ولا مانع من إحضار النارجيلة وتناوب أنفاس الدخان. طرق على باب الشقة أخرج شريفة من تمتعها باللباس المرأة وعراك المظلات. اتجهت في خطوات متثاقلة. فالوقت مازال مبكراً لحضور أحد. نظرت من خلال شقوق الباب. كان الواقف صديق زوجها عم رشاد وبناته اطمأنّت فما زال استمتاعها بالشاطئ متصللاً ولم ينقطع. فالزوار حضروا لأخذ مظلة الشاطئ رحبت بهم من خلال شقوق الباب. أحضرت المظلة وبعض المقاعد الخشبية. كانت مطمئنة بعدم فتح باب الشقة لعم رشاد وبناته. راجعت المتطلبات. لملمت شعرها الطويل الأسود الناعم. فتحت الباب لترحب بزوار الشاطئ تناول عم رشاد المظلة وتوزيع مقاعد الشاطئ

على بناته. أعطى يد المظلة إلى ابنته السمينة الكبيرة المنتفخة الصدر والأرداف. لم تتمالك شريفة كتم ضحكاتهما وتخيّلها بتعلق لباس ابنته بيد المظلة وكم سيكون كبيراً وعظيماً وواضحاً للناظرين وهو يرفرف في الهواء كالعلم المنتصر. نظر عم رشاد إليها مستغرب من هذه الضحكات. جحظت عيناه وانتفخت أوداجه وتلون وجهه وقفزت أذنه إلى أعلى رأسه لم تتوقف شريفة عن الضحك. بل ارتفعت ضحكاتهما أكثر. ازداد عم رشاد غيظ. فقد شاركها بالضحك بناته وتعالّت الضحكات. لم يتمالك عم رشاد شد أعصابه. انفلتت ضحكاته مع بناته وشريفة. " مع أن الضحك بدون سبب قلة أدب " تذكرت شريفة هذا المثل. سحب بناته في اتجاه الشاطئ وهو يلتفت إلى شريفة ويضحك وشريفة تبادله الضحك. أغلقت باب الشقة اتجهت إلى النافذة. كانت لا تدري لماذا تحب هذه الجلسة والنظر دائماً إلى الشاطئ وأمواج البحر. هل لمتابعة أحوال الشاطئ وما يحمل من مشاهد باكية أكثر من ضاحكة؟ قطبت حاجبيها. فكم فقد من أحباب وأصحاب بين أمواج البحر!! حاولت التذكر منذ متى لم تطأ شاطئ الأنفوشي؟! فالشاطئ يأتي إليه من كل حذب. تذكرت قول جارتها أم حلويات. أن الشاطئ وهذه الرمال وأمواجه الزرقاء الصافية محرومين منه في شهور الصيف. لا يعرفون الشاطئ إلا في شهور الشتاء. فهم على ميعاد بأربعاء سيدنا أيوب وتقديسهم لهذا اليوم والاستحمام والاستمتاع بماء البحر.

الجميع يلها ويستحم. المريض تأسياً بسيدنا أيوب والمعافي ليزداد قوة وعافية. خطر عليها لباس استحمام زوجها
لطي وتمتعها بالنظر إليه وهو يقفز بين البحر والرمال وكثيراً ما كان يقفز
عليها يصب عليها ماء حبه الدافئ. هرولت إلى خزانة الملابس بغرفة النوم.
بحث بين طيات الملابس على لباس بحر لطفي أخذته في صدرها، نظرت إلى
جسدها بمرآة سراحه غرفة النوم مازلن أردافها تحمل الأنوثة. مسحت
بيديها فوق نهديهما مازلن يحتفظن بالشباب فوق صدرها.
أرادت أن تكمل رحلتها مع جسدها الأبيض الغض. أغلقت باب غرفة
النوم بدأت في خلع جلبابها أمام المرأة. سقطت تحت قدميها. رفعت قميص
النوم إلى كتفيها. شعرت بنشوى تعريها في اكتمال احتواء مشاهد جسدها
الملتهب.

أسقطت لباس عفتها بين قدميها. أخرجت نهديهما من جرابها أسدل قميص
النوم المشهد بستر جسدها. رفعته ولكن ليفارق جسدها لتقف عارية
أمام المرأة التفت حول نفسها ومراقبة جسدها كله. من الخلف من الأمام
بين ساقيهما خلعت الإيشارب من رأسها، هبط الشعر الأسود الناعم كأمواج
البحر المتراكم تحسست بيدها أمالت برأسها بين ساقيهما سحبت الشعر
الأسود بيدها بدأت خطوات الحكي مع صرتها. دارت بها غرفة النوم، هربت
أعصابها، انسحبت نظراتها تكاد أن تلتصق بحاجبيها. مدت يدها

المرتعشة بلباس بحر زوجها دسته بين فخذيها. ارتمت على الفراش، ليدور مع دوران غرفة النوم.

أفاقت شريفة من غفوتها على دقات باب الشقة أسرعت بارتداء الجلباب. رفصت بقدميها الملابس الداخلية تحت الفراش. مازال الطرق على الباب مستمراً. وضعت لباس بحر زوجها تحت وسادة الفراش. عصبت بالإيشارب. أدارت نظراتها بالغرفة. اطمأنت فلا يوجد شيء يلفت الانتباه. لم تنس أن تنظر إلى المرأة وهي في طريقها إلى باب الشقة. كانت مسرورة بهدوء فوران جسدها الغض كما هدأت الدقات على باب الشقة. شاهدت من وراء الشقوق، أم المغربي من عائلة أمها المحترمة رحبت بالأحضان التي مازالت ساخنة في صدرها شعرت أم المغربي بسخونة جسد شريفة. فحصت وجهها. أزاحت ذيل فستان شريفة إلى أعلى حاولت هي الأخرى الابتعاد عن يد الزائرة ولكن لا فائدة، غير أن تضم ساقها حتى لا تعبت بهما أم المغربي. نجحت من الإفلات من أيدي المرأة العابثة بما لا تملك. سحبت شريفة أم المغربي إلى حجرة النوم. جلست الاثنتان مع صمت البسمات على حافة الفراش. تربعت أم المغربي. بدأت تنظر إلى وجه شريفة التي كانت مسلطة كل نظراتها على لباس بحر زوجها لطفي، المخبأ بالقرب من أيدي أم المغربي التي بطشت ليقع اللباس في يدها. أطلقت صليل ضحكاتها المشهورة بها بين نساء العائلة. شاركتها شريفة الضحك بإخراج قميص نومها ثم لباسها من تحت الفراش. فرت شريفة من أيدي أم المغربي في زاوية الحجرة.

أكملت ستر جسدها. لم تتمالك أم المغربي وضعت وجهها بين كفيها، أخذت في البكاء. ضمتها شريفة إلى صدرها فهي تعرف مدى حنين أم المغربي لهذا الفراش. فهي مطلقة منذ سنوات قليلة. أفاضت أم المغربي إلى شريفة بمدى حنينها لهزات الفراش وفركشة أغطيته اللزجة المبتلة. لم تدري شريفة كيف تبدأ الحديث معها بعد هذه الشقاوة ونهايتها الحزينة، غير أن تترك الحجرة والذهاب إلى المطبخ لإعداد أكواب الشاي.

الأنفوشي!! حبيبة لطفي لا يقدر أهلها أن يبتعدوا عنها. صيفا أم شتاء. صيف مصطفىين شتاء زوار يعشقون أمواجها الهاججة على وجوه أهلها. لا يغضبون، لا يبتعدون. يتبركون ويداعبون هذه الأمواج ويلهون معها يتنسمون رائحة اليود كما يتنسمون رائحة الفل والياسمين لطم رذاذ الأمواج وجه لطفي. تكحلت عينيه بما يجب. اقترب أكثر من شاطئ البحر عسى أن يأخذ لطفة أخرى فالبحر النزل في الماء والسباحة يدفعه أن يلقي بنفسه في هذا اليم. تراجع لتكملة مشواره عرج إلى مقهى القويري. ظهرت ملامح صيدلية الإسعاف راجع ما يحمل من نقود. فدواء حماته أم صابر سيكون غالباً. هكذا قال له الطبيب بعد الكشف عليها كان يريد أن يقدم لأم صابر أقصى ما يستطيع من كل شيء. الوقت. الرعاية الدواء. خرج من صيدلية الإسعاف بالدواء. توجه إلى السماء بالحمد. فكم كان الدكتور الصيدلي متعاوناً معه متفاهماً. بعد أن عرف حكاية المريضة. وإهمال ابنها صابر. لها. والتوصية بالرجوع إليه في أي وقت، لأخذ ما يحتاج من أدوية للسيدة حماته، ولا ينعي أي هم في دفع النقود فأصحاب الخير كثيرين. اقترب من ناصية شارع الحجاري، لمح شقيقته عائدة قادمة نحوه. أراد أن يتجاهلها في هذا الموقف ولا ترى ما يحمل من دواء. همس:

- أتاك الموت. يا تارك الصلاة.

لن يخلص من طفلها ونظراتها إليه، من أخمص قدميه حتى رأسه. بدأ العرق يملأ جبهته متسللاً إلى حاجبيه. أراد الدخول بمسجد الحجاري

بجانبه. تراجع أمام شقيقته، أغلقت الطريق بجسدها الممتلئ. اهتزت الأرض تحت أقدامه. يداه ترتعشان. نظرت إلى ما يحمل من دواء، بعد الفشل في إخفائه. أخبرها بمرض حماته أم صابر. مطت شفيتها. قبضت على قميصه الخشن:

- إلى متى تتنازل ياسيد لطفي وترضى بالتعاسة والسيدة شريفة وأولادها في عز وعيشة رغدة ولا أولاد الباشوات، وأنت متهتك الثياب. بنطل عسكر. قميص عبك. ألا يكفيك ما قدمت. خبز بالنوتة. وزيت وسكر بالشهر. ولولا تدخلني عند عم جابر صاحب محل الخضروات والفواكه وضمانني. لك عنده... لأصحبت أنت والسيدة شريفة وأولادك نائمين من غير عشاء. دارت الأرض تحت أقدام لطفي. ليس من كلام شقيقته ولكن لانتباه المارة بالطريق لهذا الحديث وهذا العتاب الجارح، تذكر قول إمام المسجد "النصيحة على الملاءم فضيحة". أخرج منديله الكاكي. بدأ يمسح العرق من على جبهته وعينه. خطفت عايذة المنديل من يده:

- حتى المنديل منديل عسكر!! يا رجل كفاية تنازل ومهانة وبهدلة. كفاية. انظر لنفسك مرة واحدة.

تراجع لطفي دون أن ينبس بكلمة متجهاً إلى أسرته وحماته، غير عابئ بنظرات شقيقته عايذة وذهاب كلماتها أدراج الرياح. فهو راضٍ بما يفعل من خير غير مهتم حتى بقطعة القماش المرقعة بين فخذي بنطاله، تسميها امرأته بالسمة لا تظهر إلا في موضع واحد، عند سجوده في الصلاة تظهر

كعين الشمس الساطعة في عز النهار لكن لا يراها إلا العابدين الساجدين أمثاله داخل المسجد نظر إلى حذائه المرقع بقطعة الجلد اللوزة كما يسميها عم يوسف الإسكافي. صاحب العين الواحدة، المشهور في شارع جودة بالأنفوشي. منقذ الأسر الفقيرة من السير حفاة. وإتقانه صناعة حذاء "صندل الأولاد أبو سوبع" من إطارات، السيارات أطفال الأنفوشي يستعملون صندل عم يوسف الإسكافي في شهور الصيف. اقترب من المنزل. استقبله ابنه علي. اختطف الدواء من يده مهرولاً إلى أمه. كانت جدته أم صابر راقدة بالفراش. رفعت يدها إلى لطفي. لم يفهم ماذا تريد. لا تقدر على إخراج الكلمات. كررت الإشارات بيدها. نظر لطفي إلى شريفة. لم تفهم هي الأخرى ماذا تريد أمها من لطفي. أمسك ابنه علي، يد جدته، أخذ يهزها:

- جدي تريد خلع الذهب من يدها.

بركت شريفة بجانب أم صابر وهي تبكي.

مازالت أم صابر تهز يدها أمام لطفي. دق بيديه على رأسه:

- أنا ما أزال بصحتي وعلمي بالنهار والليل على خير ما يرام. علاوة على تعاون مدير الصيدلية ولن يتأخر في صرف الدواء.

أشاحت أم صابر بالنظر إلى لطفي، ضمت على وأمه إلى صدرها، رفعت يدها اليمنى مشيرة بأصبع السبابة إلى السماء، انتبه لطفي لموقف حماته، خرَّ على ركبتيه بجانبها، فهم أن حماته ستفارق الحياة أقرب مما كان يتصور.

مرت على شريفة أيام الحزن بفراق أمها وغياب الخالة نرجس وذهاب لطفي كثيراً مأموريات خارج الإسكندرية. كان العزاء الوحيد لشريفة هو الذهاب إلى حدائق قصر رأس التين، بجوار " الأنتيكة " المقابر الرومانية، فالثورة اهتمت بإنشاء الحدائق العامة والمنزهات لجميع طوائف الشعب. يخرج إلى الحدائق أهل الأنفوشي عند غروب الشمس وحتى منتصف الليل. تمتلئ الحدائق، فتزحف الأسر بالجلوس على كورنيش البحر، فيمتلئ فيزحف بقية أهلها إلى رمال الشاطئ حتى مشارف قلعة قايتباي.

همسات وأحاديث ونظرات ومشاحنات ومداخلات بائع الترمس والفول المقلي بالشطة والليمون. وماسحي الأحذية وبائعي الذرة المشوية.

كانت شريفة مستعدة لإشباع نظرات ثريا وعلي وملوم وصدهم عن فتح جوزلان النقود وبعثرة قروشها القليلة على بائعي الحدائق والكورنيش. سندويتشات الجبنة القريش والبطاطس المسلوقة الصغيرة مثل حبات الليمون والملح المخلوط بالفلفل الأسود الناعم كان شيء يقلق جوزلان نقود شريفة. بسكوتة البوظة المثلجة فهي تتمناها قبل أولادها بدأ الهواء البارد يتسرب إلى جسد شريفة رغم جلوسها بجانب نافورة المياه المعطلة والتي لم تقدر الثورة على إزالتها فهي من الآثار الملكية الثابتة في مكانها المتوحدة مع أهل الأنفوشي وقصر الملك. تحن إليها تجلس بجوارها وتحت ظلها.

كان لملوم يمسك بطرف الحبل وعلى يسمك بالطرف الآخر، أما ثريا فعليها القفز بين هزات الحبل مع هزات فستانها. عين شريفة تراقب ثريا وهزاتها وجسمها الأبيض الغض.

اقترب لملوم من أمه تصك أسنانه من شدة برودة الهواء. أشارت إلى علي وثرىا. فقد حان وقت العودة إلى المنزل. لَمَّ لملوم الملاءة. جمع علي وثرىا ما تبقى من طعام. وضعت شريفة بالحقيبة. أمسك لملوم بذيل فستان أمه. قبض علي بيد ثرىا. بدأت خطوات وداع حدائق رأس التين وكورنيش البحر. أشارت شريفة على قصر أمام الحدائق. لم يتأخر لملوم في الرد:
- هذا قصر أم البحرية.

سعدت شريفة بإجابة لملوم. شاركت ثرىا فرحة أمها. نفّض على يده من يد ثرىا، مهرولاً إلى داخل المنزل.

شاطئ الأنفوشي يودع زواره. هواء محمل برمال الشاطئ، يطرح على الأغراب، عسى أن يرحلوا فيكفي ما أصابه، كانت تلك نظرة لطفي إلى الشاطئ ومشاهدة أحواله وتقلباته من خلال قضبان النافذة. فاليوم الأحد. اقتربت الساعة من السادسة مساء، لن يرحل من جلسته والخروج لمقابلة أصحابه في مقهى الخرس. اعتادوا على غيابه في آخر كل شهر. لم يحاولوا إجباره على الجلوس معهم بالمقهى وإزاحته عن المشاركة في دفع الحساب. تناول كوب الشاي الساخن، نظر إلى علي يقرأ وثرى تصحح له الكلمات. كان المنزل هادئ. شريفة ولموم بالخارج، فاليوم الأحد تستعد عائلة جرمانية جارتهم لزفاف ابنتها نعيمة ومهمة شريفة القيام بالواجب مع نعيمة من تنظيف للجسد وحك للأقدام وقص للأظافر وإزالة المعاص المتراكم على حافتي أعين نعيمة ونتف للشارب. نظر لطفي إلى ابنته ثريا، بدأت الدخول في بوابة الأنوثة. سرح في حال نعيمة وموافقة أهلها من الزواج بميكانيكي يكبرها بعشرات السنين. قبلوا الزواج مع تنحية فارق السن أمام نعيمة وصغر جسدها وظهرها المحدث. أصحابها يطلقون عليها " الحدباء " كانت مميزة بجسدها الأبيض وشعرها الكستنائي المتماوج مع ضوء الشمس. هذه المشهيات كانت كفيلة بقذف الخطيب الميكانيكي مقدما حنكته الموتورية وجيوبه المنتفخة بالمال وعمارته على كورنيش شاطئ كليوباترا وعائلته الثرية التي باركت هذه العروس المحدثبة الظهر المكحلة بالمعاص. انتفض لطفي على صوت فرقعة قوية آتية من داخل الحمام. ارتمت ثريا وعلي في

صدره. انطلق صوت صراخ من الحمام. حاول زحزحة أقدامه. تقدم بخطوات ثقيلة. ظهر على باب الحمام عم بيومي وامرأته سنية جيرانهم في المنزل الملاصق. لا يرى منهما إلا أعينهم. كانت أجسادهم يكسوها الغبار والأتربة. أمسك لطفي بيد جارتة سنية. أخرجها من بين ركام الجدار المنهار. أشار إلى ثريا بإحضار جلباب لستر جسد عم بيومي. ضحك علي. هزّيد لطفي مشير إلى الحمام:

- الآن عندنا حمامان وليس حمام واحد. حمام عم بيومي. وحمامنا!!.

جلس لطفي على درجات سلم مسجد المرسى أبو العباس بعد صلاة العشاء وغلق المسجد أبوابه ترحم على خاله إبراهيم وعلى من فاته من أحباب حتى حبيبته شريفة. عراك وخصام. لا تريد أن تمكث في شقة الأنفوشي خوفاً على أولادها من سقوط جدران المنزل كما سقط جدار الحمام. حاول إقناعها بقلعة الحيلة والمال والبحث عن شقة أخرى لا فائدة فهي مصرة على الرحيل لم ينتبه لطفي لتلك المرأة، وضعت في حجره شقة من الخبز. نظر إلى الشقة. كان بها فول نابت وقطع من اللحم المسلوق. حسم موقفه أمام اللحم المسلوق حاول اللحاق بالمرأة ورد شقة الخبز. لم يتمكن باللحاق بالسيارة. عاد إلى مكانه على درجات سلم المرسى أبو العباس. التهم شقة الخبز. أسند رأسه على الحائط. بدأ إلحاح احتسائه لكوب الشاي. أين يجد ثمن كوب الشاي؟ حتى عند شريفة لا يوجد القليل من الشاي. هبت نصائح خاله إبراهيم. جلسته لا تفيد. حتى المسجد أغلق أبوابه ولا يوجد من يساعده في الخلاص من إلحاح امرأته بالرحيل من الأنفوشي والبحث عن شقة أخرى. هبط درجات سلم المرسى أبو العباس. عاد للصعود. أعاد الصعود والهبوط. التفّ أبناء الشحاذين حوله. أمرهم بالجلوس على درجات السلم. فتح أزرار قميصه العبك ذو اللون البيج المميز. ظهرت قسّمات الفانلة المقطعة. تخرقها شعيرات صدره الكثيفة. رفع يده اليمنى إلى السماء. أشار باليسرى إلى قلعة قايتباي العتيقة الصامدة بين الأمواج:

- أنا العبد الفقير لطفي. الشريفة زوجتي شريفة كانت لطيفة وحببية وجميلة. أهدتني للموم وثرىا وعلي. أولادي أحباي. أطعمهم من حلال. كسوتهم أحسن ثياب. أحسن علام أعلمهم. أفضل طعام أطعمهم. أشرفه وأحسنه الحلال. وأنا لا أرزق إلا من الحلال.

تزاحم حوله وعلى درجات سلم المرسي أبو العباس الشحاذين. قال أحدهم:
- أكمل يا سيدي أكمل!! أمتعنا بكلامك يا سيدي أمتعنا!!.

قطع لطفي قطعة من الفانلة المقطعة. ظهر الكثير من الشعر:

- كل عمري وحياتي في الحلال. أسمع كلام الشيخ الأمام وأصل الأرحام. وأهلي قلوبهم حجر وأعينهم نار وحطب. لا شفقة ولا رحمة. أنا أخوهم وابن عمهم. وخالمهم وزوج عمتهم ما ذنب أكفي الملطخة بالجمملكة من مهنتي؟! ما ذنبي بفقري وغلبي وقلة حيلتي؟!، أليست تلك موازين الأرض؟!، لا أعرف قسم الشرطة ولا أعرف المشاكسة ولا المعاييرة. أعيش في حالي أربي أولادي. ما ذنب أولادي؟ هل الفقر عيب؟ ابتعد أهلي عني. لم يرحموا أولادي. أخي سالم يمر بالأنفوشي أمام أولادي ولا ينظر حتى إلى نافذة منزلي!!، يصطدم بابني للموم ولا حتى جبر خاطر ولا سلام!!، قطع قطعة أخرى من الفانلة المقطعة. ظهر صدره الملطخ بالشعر الأسود الكثيف.

- أعمل ليل ونهار.

قاطعته شحاذة من الشحاذين الدراويش.:

- وامرأتك الشريفة شريفة العفيفة اللطيفة الجميلة؟

لم ينظر لطفي إلى تلك المرأة، صورة امرأته شريفة تمتلكه امتلاك الأسير
المقيد بالسلاسل والجنائز خلع القميص العبك. أكمل تمزيق الفانلة.
تساقطت على الأرض. ازدحمت أيدي أولاد الشحاذين على قطع الفانلة. كان
العرق يتصبب من جسد لطفي. حملق في دائرة الشحاذين حوله. بحث عن
صاحبة السؤال. :

- شريفة الجميلة العفيفة. الآن طنانة. زنانة. سعرانة.
قاطعها أولاد الشحاذين. :

- طنانة. زنانة. سعرانة.

هبط درجات سلم مسجد المرسي أبو العباس متجهاً إلى شاطئ البحر. ما
زال الشحاذين وأولادهم يسرون خلفه. سعد رصيف الكورنيش. التفت
إليهم.

حاصرته المرأة الشحاذة بتكرار السؤال:

- وامراتك شريفة الشريفة العفيفة الجميلة؟؟!!

حملق لطفي إليها، أشار بيده إلى قصر رأس التين وشاطئ الأنفوشي:

- لن أتركها من أجل أولادي. ثريا وعلي ولملوم. سأرحل وأعود. سأرحل
وأعود.

خلع بنطله ثم قفز بين الأمواج.

"ثلاثية الأنفوشي"

**أزميرالدا
الجزء الثاني**

نظرت "شريفة" من نافذة ترام الحاضرة، تجتر ويلات غياب زوجها "لطفی" بمستشفى الأمراض العقلية. كان المنقذ لها من عذاب غياب لقمة العيش، العمل بمصبغة "الحاج نجاتي" نظير بضعة قروش.

هبطت "شريفة" في محطة الحاضرة. أحكمت إغلاق صدرها بالدبوس الشنكل، فكم تُعاني من تلصص نظرات الرجال إلى صدرها، إعجابهم بهذا الصدر المنافس لجماليات هوليود، صاحبات زوجها "لطفی" بفراش أحلامه، الممتدة من أيام عزوبته حتى مستقره الأخير في صدرها اللين المرمري الناعم. اقتربت من مصبغة "الحاج نجاتي"، أعادت الاطمئنان على ستر صدرها. فهي تريد غلق نظراته إليه.

وضعت يدها على ثغرها، تخفي ابتسامتها الحزينة بمدى إعجاب زوجها بهذا الصدر النافر الجامح الراوي لكل متعطش لماء الحب.

اقشعر بدنّها! ها هو "الحاج نجاتي" يقف على بوابة المصبغة. تماسكت مع تجاهلها لنظراته. دلفت إلى الداخل خافضةً لرأسها بين كتفيتها؛ لتختفي بين زميلات العنبر وأكوام الأقمشة والخيوط.

مرت ساعات اليوم بـ "شريفة" متثاقلة باردة، مع نظرات "الحاج نجاتي"، ومتابعة حركاتها خلال العمال وبين أحواض الصبغة. كانت تفكر إلى أين يريد أن يصل معها؟! هل هو المزاح وإعجابه بها؟! أم يريد أكثر من ذلك المزاح والإعجاب؟! هو يعلم ظروف حياتها الصعبة، بمرض زوجها "لطفی" بمستشفى المجانين، وتحملها أعباء معيشة أبناءها: "ثريا" و"علي" و"ملوم".

تحاول صد الجوع إلى قليل من الخبز والبقول النبات والمدمس وقطع البطاطس المسلوقة مع حبات الملح والفلفل. لا تقدر أن تفعل أكثر من ذلك.

تمادت مع تأملات "الحاج نجاتي". هل يريد الزواج بها؟ أو إشباع رغبته فقط، والتنزه بين مفاتها بعيداً عن الحب الذي تفتقده بغياب زوجها؟ سقطت خصلات الخيط من بين يديها باقتراب "الحاج نجاتي" نحوها. حاولت إخفاء التوتر أمام عينه الراصدة لصدرها المغلق بدبوس الشنكل. استدارت تتسلل بين أكوام الخيوط والابتعاد. لم تكمل مسيرتها في الاختفاء. تجتاز على أسنانها بابتعاد زميلاتها عنها واقتراب الحاج. همست:

- آه من ناقصات العقل والدين!

أمرها "الحاج نجاتي" بالتوجه إلى حجرة مكتبه.

أغلق باب الحجرة. لم تفزع من غلق الباب، فهي تريد أن تنهي خطواته ونظراته إليها وإلى صدرها.

وضع لفافة من النقود على طاولة المكتب. بادلته النظر إلى النقود، كما كان ينظر إلى صدرها.

مدت يدها تلتقط اللفافة. كانت تريد رفع درجات المشهد بكشف نيته. أهى الرغبة بالزواج؟ أم الحب فقط؟ أو الاثنان معاً؟ ابتسمت لإغوائه لإسراع خطواته القادمة.

جذب "الحاج نجاتي" المقعد. جلست بجانبه. لم تهتز "شريفة". أزاحت دبوس الشنكل من صدرها، شعرت بسحر مفاتها أمام فوهة فمه المفتوح إلى أقصى درجات الانفتاح. أخرج لفافة أخرى من النقود. ضمها "شريفة" مع أختها! مدَّ "الحاج نجاتي" يده ليلتقط سماعة الهاتف القاطع لخطوات الحب الصامت.

انقلبت سحنته إلى وحش جائع. دفع بالسماعة إلى فريسته "شريفة". أعادت غلق صدرها بالدبوس الشنكل. كانت المكالمة من شقيقها "صابر"، يُخبرها بشفاء زوجها "لطفي" والإسراع إلى مستشفى الأمراض العقلية قبل دخول الليل.

لم تستطع إخفاء فرحتها بشفاء زوجها. نظرت إلى "الحاج نجاتي"، مازال فاغراً فاه. مُتَحَسِّراً هذا الحب الضائع. قذفت وجهه بلفافات النقود. أسرع بالخروج.

نظر من خلف قضبان النافذة وهو يرتدي ملابسه، عسى يُشاهد امرأته "شريفة"، فاليوم يوم مولده الثاني وعودته للحياة، ليس من بطن أمه، لكن من عنبر الأمراض العصبية والنفسية.

لم يدرك كم مضى عليه من الزمن بعد انتشاره من مياه البحر، إثر اللوثة التي أصابته على شاطئ بحر "المرسی أبو العباس"، وهروبه من مشاكله بين الأمواج؟!!

سؤال تصمت زوجته عن إجابته.

انتبه إلى خطوات زميل عنبره، صاحب النظارة السوداء، خشن الملامح، بطيء الحركات. أمر "لطفی" بتلاوة النصائح لمواجهة الحياة. لم ينس أن يدس بعض النقود في يد "لطفی". لم يقدم كلمات الشكر، فهو يعرف زميل عنبره ومبادئه التي أوردته في مهالك وظلمات غرف التعذيب، والتنقل بين محافظات وصحاري مصر، وكان آخر المطاف مستشفى الأمراض العصبية والنفسية بالإسكندرية والالتقاء به.

أشار صاحبه ناحية بوابة المستشفى.

- "شريفة" زوجتك قادمة.

أشار "لطفی" بيده عبر قضبان النافذة. فهمت "شريفة" بانتظاره بإدارة المستشفى.

لم يشعر بذهاب صاحبه، أسرع بالخروج من العنبر، لا أحد بردهة الممر، اختفى صاحبه وزميل عنبره. لم يتأثر بهذا الوداع الجاف من هذا الرجل،

فقد اعتاد على حركاته وخطواته في العنبر وبين نزلاء المستشفى! هبط درجات السلم.

كانت امرأته تنتظره أمام مكتب الخروج. لم يسلم من نظراتها. تحاشى النظر إليها. أنهى إجراءات الخروج. انتبه ليد صاحبه، نزيل عنبره، يربت على كتفه، يأمره بالخروج من حجرة المكتب؛ فقد حان وقت مواجهة "شريفة" بالإجراءات الأخيرة من مراسم خروجه.

التوقيع باستلام زوجها "لطي"، مع التعهد بعدم التعرض بإثارتته وفتح بركان غضبه وإثارة مشاعره.

اعترضت "شريفة" بعدم التوقيع على التعهد. أغلق الموظف باب الحجرة. أمرها بالجلوس، وحاول إقناعها. قاطعته بإشارة من يدها:

- كيف أكون مسؤولة عن رجل، وهو الأولى أن أكون مسؤولة منه؟! ألا يكفي ما تحملت خلال غيابه عن بيته وأولاده؟! ثلاثة أشهر في ذل وهوان وأبناء جياع، لا أملك حتى أن أطعمهم الخبز. ماذا تريد مني أن أفعل؟ لن أوقع التعهد. فيكفي ما تحملت، وإن كان لا يقدر على مواجهة الحياة؛ فالأولى له أن يمكث عندكم، ولا داعي لخروجه.

نفذ صبر الموظف. تناول سماعة الهاتف، أدار القرص. تحدث بصوتٍ منخفض وكلمات غير مفهومة. لم تعرف "شريفة" ماذا يدبر لها! لم تمر غير دقائق.

فتح الموظف باب المكتب، "لطفی" یدخل مع صاحبه نزیل عنبره. فهم موقف امرأته. اقترَب منها. لم یعترضه أحد. لم تستطع الاستمرار فی موقف الاعتراض عن التوقيع. تنفس الموظف الصعداء. أخیرًا وقعت "شریفة" بید مرتعشة، وتساقطت دموعها علی الأوراق. قبض "لطفی" علی ید امرأته. خطوات متكاسلة، ورؤوس تقترب من الأرض. أزاح حارس البوابة الحدیدية الجنزیر. استقبل "لطفی" نسیم الحرية. أخرج قطعة الخبز من بنطاله، اقتسمها مع امرأته.

الشمس في طريقها إلى المغيب. صوت الشيخ "محمد رفعت" يجلجل في المذيع. تابع "لطي" "شريفة" وهي تعد مأدبة الإفطار. لم يتبقَّ من الزمن غير دقائق معدودة وينطلق مدفع الإفطار بنهاية يوم آخر من أيام شهر رمضان.

التفت من خلال قضبان النافذة. ولداه "ملوم" و"علي" و"صبي" ابن جارتهم "أم حلويات" يتجهون مع أبناء الحارة لرحلة كل يوم قبل الإفطار. "كوم الناضور" بمنطقة الباب الأخضر؛ لمشاهدة الكرة الحديدية أعلى التل وهي تنخفض مطيعة للشمس في المغيب، ثم تختفي مع اختفاء قرص الشمس، وينطلق مدفع الإفطار، وتبدأ رحلة العودة السريعة للأصحاب، ويُلْم شمل أسر الأنفوشي ويبدأ الإفطار. أنهى "لطي" إفطاره. جلس بجانب النافذة يحتسي كوب الشاي، فاكهة الفقير" كما تُطْلَق عليه ابنته "ثرثيا".

لم ينظر إلى الشارع أو شاطئ البحر. كان ينظر إلى "ثرثيا" ابنته الحبيبة. نضج جسدها، واكتملت أنوثتها. لم يبقَ غير أن يطرق الخاطب الباب ليقطف زهرة حبه. كان مستعدًا لهذا الطرق. راتبه بقاعدة رأس التين، وعمله بورشة تلميع الموبيليا بعد الظهر؛ يجعله مستعدًا لهذا الطرق. خرج "لطي" من تفكيره بالخطاب. أذان العشاء، أسبغ الوضوء. أمسك بيد ابنه "ملوم". كان عليه تلقي طلبات امرأته لوجبة السحور:

- البيض المسلوق والبقول المدمس وطواجن الزبادي الفخارية مع إضافة قرصة الصائم لحبيبه "الملوم"، جزاء المواظبة على صلاة التراويح. دلف "لطفى" لحجرة النوم، مازال ابنه "علي" يغط في النوم. جذب "الملوم" والده يحثه على الخروج، حان الوقت لصلاة العشاء والتراويح.

الأنفوشي تتوهج تحت أضواء أنوار شهر رمضان. أصوات الدراجات المزودة بقطع الكرتون بين أسلاك إطاراتها تُقعقع على الطريق، تتحدى أصوات المستعجلة الخشبية ذات الثلاث عجلات الرومان بلي المُستعمل، صاحبة فاقدى الحيلة في ركوب الدراجة.

هذه الأحوال لا تغري إلا عددًا قليلًا من أولاد الأنفوشي. لكن الكثرة من الصبية كان لهم طريق آخر. من ضمن هؤلاء "علي" شقيق "الملوم". فزع من نومه بعد الإفطار على صوت أصحابه لأمسية ليالي رمضان. الذهاب إلى سوق العيد، والاستمتاع بتلك الخلطة العجيبة من كل شيء تشتهيهِ الأنفس.

أكمل "علي" ارتداء ملابسه. مال على كتف أمه، فقد حان أخذ قطع النقود والذهاب مع أصحابه.

تابعت "شريفة" من خلف قضبان النافذة المطلة على شاطئ البحر ولدها "علي" مع أصحابه في طريقهم إلى فسحتهم المفضلة: سوق العيد. كانت تشعر بالأسى من أحوال "علي" وشقيقه "الملوم". المصاحب لزوجها إلى المسجد وصلاة التراويح. ثم متابعة هوايته المفضلة. الأفلام العربية والأجنبية. وقراءة القصص والمجلات.

ابتسمت. ها هو قادم "الملوم"، أشارت إليه بالانتظار. ناولته قطعة نقود الثورة، حاملة النسر الذي يطير بأسطًا جناحيه بمجرد ملامسته للهواء.

ليالي شهر رمضان المتوهجة بأنوار الإيمان، صيام نهارها، وصلاة ليلها، حلقات الذكر والدعاء، جلسات السمر بالليل على المقاهي والطرقات، وتناول ما لذ وطاب من أطباق البليلة المزينة بالزبيب وجوز الهند والصنوبر، الجاذبة بالعائدين من صلاة التراويح، الهاضمة بما امتلأت به الأمعاء.

كان "علي" وأصحابه ينظرون إلى هذه المقاهي، نظرة المترقب لجريان السنين، للجلوس مثل هؤلاء الرجال. اقترب "علي" وأصحابه من (سوق العيد) المزدهم برواده. أشار على الراقصات أصحاب الأجساد البيضاء والسمراء والحمراء، تهتز وترتعش مثل الحبان، فوق القاعدة الخشبية المثبتة بإحكام؛ لإغواء المشاهدين بقطع تذاكر الدخول، ومشاهدة ما تم إخفاؤه على هذه المنصة من إباحية وأشد فضح للأجساد. أشارت إحدى الراقصات بالتحية لـ"علي" وأصحابه. همس "علي" في أذن صاحبه:

- هل تعرف من هذه الراقصة؟

أجاب بالنفي.

انتشى "علي" وأكمل حديثه:

- هذا هو "توحة" العايقة، الهاججة على شباب الأنفوشي. "توحة" في المساء. و"فتحي" المدلل في الصباح. راقصة ليالي شهر رمضان. له من الأخوات ست، هو آخر العنقود.

قاطعها صاحبه:

- وهل يخرج للرقص في غير أيام شهر رمضان؟!

أجاب "علي" بالنفي، فهو يعرف "توحة" معرفة عن قرب. فهذه التوحة، ما هي إلا "فتحي"، الشاب المخنث وسط نصف دسته من الإناث، أخواته. تنهد "علي" متأثراً بالحديث عن "فتحي". لم يكمل مسيرته مع أصحابه. تسلل وسط رواد سوق العيد يهاجمه هذا السؤال الغريب:

- هل من الممكن "فتحي" أو "توحة" الهاجئة أن يتزوج أم تتزوج؟!

الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. الله أكبر الله أكبر، والله الحمد. نهضت "شريفة" من نومها على تكبيرات العيد. تسلت بالخروج من غرفة النوم وسط شخير زوجها "لطفی". كانت مطمئنة من نومه، فقد عانى في ساعات الليل بإعادة تلميع أثاث المنزل مع صديق أمسيته، المذيع الفيليبس الضخم القديم.

جلست بعد الانتهاء من كسوة غرفة الجلوس للأهل والأصدقاء، المطلة على شاطئ بحر الأنفوشي. أعادت النظر إلى وعاء الكحك والبسكويت والفول السوداني، وقطع الحلوى، هدية العيد لجارتها "أم حلويات"، ساكنة البدروم أسفل شقتها. التفتت إلى الشاطئ من خلال النافذة، كان المشهد غريباً. صياح وشتائم! رجال يهرولون وراء امرأة عارية. تحاول الفرار من هؤلاء الرجال بعبور الطريق.

تراجعت للخلف إثر دقائق باب الشقة. كانت القادمة حبيبها ووكالة أنباء الأنفوشي؛ جارتها "أم حلويات"، الواردة لـ "شريفة" بالأخبار المعتمدة. لم تعطِ فرصة لـ "أم حلويات" بالجلوس. سحبته من يدها إلى النافذة. مازال الرجال يحاصرون المرأة العارية!

أطلقت "أم حلويات" ضحكاتها، والتي تعرف "شريفة" توابع هذه الضحكات. أمالت "أم حلويات" على أذن "شريفة":

- هذه امرأة الشاطئ، وهؤلاء الرجال سكارى بحري. يخرجون بعد قضاء ليلة العيد بين الخمر والنساء.

التفتت "أم حلويات" إلى وعاء الكحك والحلوى. لم تكتمل فرحتها. نهرتها
"شريفة" بكلماتها الهامسة بعدم مس الوعاء إلا في شقتها مع أولادها.
أسرعت "أم حلويات" بالوعاء خارج الشقة، وهمست:
- الآن أقدر أمد يدي وأتناول منه رغم أنفك!
ضحكت "شريفة" وهي تراقب "أم حلويات" تلتهم الحلوى أثناء طريقها إلى
شقتها.

أسرة "لطي" على قدم وساق. الأسرة كلها تستعد لميعاد هذا اليوم، لم يلتفت "لطي" إلى ولديه "علي" و"لموم" وهما يجهازان أنفسهما؛ للذهاب إلى عقد قران ابنة العمة "جميلة". كان يراقب مشهد "شريفة" وهي تجهز ابنته "ثريا". غض بصره عن "ثريا" وما تفعله "شريفة" بها. هي تحاول بقدر ما تستطيع إظهار مفاتن وأنوثة "ثريا"! من الصدر البارز، مثل صدر أمها الجامح، والأرداف العامرة باللحم والشحم والأنوثة.

لم يقدر عن صد إبراز هذه الوجبات الشهية أمام احترام امرأته بإخراج مفاتن ابنتها لجذب وصيد العرسان والخطاب، خاصةً في مثل هذه المناسبات. كان مستعداً لطرق الخطاب، وتلبية وتجهيز ابنته بكل ما ترغب، مثل أي عروس من بنات عائلته الأرستقراطية. كان يعرف أن هناك من الفوارق بينه وبين رجال العائلة. فهو - إن طلع أو نزل - عامل تلميع الموبيليا الأسطى "لطي"، صاحب الأصابع المصبوغة بطبقة الجملة. نظر إلى كفيه، وراوده السؤال المؤلم:

- كيف يكون حال العريس عندما يضع كفه في هذا الكف المصبوغ بمادة الجملة؟! نعم، هذه الكف ستُغطى بالمنديل الأبيض، لكن لا مفر من إحساس العريس بخشونة الأصابع. التفت إلى امرأته، ما زالت لم تنتهِ بعد من تجهيز ابنتها. انسحب هو الآخر. فقد حان الوقت بحلق ذقنه وارتداء ملابس الأفراح والمآتم!

الموسيقى تشتعل مع إضاءة الأنوار. رجال ونساء فوق حلبة الرقص،
يتمايلون مع أنغام الفرانك وآراب.

كان "لطي" يراقب عائلته، محاولتهم التشبه برقص الخواجات الأجانب!
حركات نشاز عن مشهد فانتات أوروبا، وما يشاهده بسينما الأنفوشي، من
الأجساد النحيفة المشتعلة بالإغراء والشهوة.

ابتسم لمنظر شقيقه "سالم"، علامات السكر بدأت تفضح حركاته وكلماته.
انتبه لتوقف هذه المشاهد الساخرة من موسيقى ورقص. تلاشت الفوضى،
كما يتلاشى ضوء النهار، مع خطوات فضيلة المأذون. أخفى "لطي" كفيه
بعد مشاهدة تلاقي كفى العريس ووالد العروس: "محمد بك" زوج شقيقته
"جميلة"، والتفاف الأهل والأصدقاء؛ لمشاهدة طقوس عقد القران.

انتبه "لطي" لغمزات امرأته، بمتابعة هذا الشاب خلف ابنته "ثرى". لم
يتحرك من جلسته؛ طبقاً لتعليمات "شريفة":

عدم الاعتراض على مَنْ يحوم حول ابنته!

كظم غيظه. ما زال الشاب وراءها، بل تمادى في الالتصاق بجسدها الأبيض
الغض، مُستغلاً الازدحام حول مشهد المأذون. كان عليه تلقي أوامر
"شريفة" بما هي الخطوة القادمة. لم تتبرم من هذا المشهد السعيد! بادلتها
بغمزة الرضا والارتياح!

الآن "ثرى" في طريقها لبيت الزوجية.

طأطأ "لطي" رأسه إلى كفيه، وهمس:

- إلى متى ستظل هذه الأيدي ملطخة بصبغة الجملة؟!
- تنهّد بالإجابة الحزينة:
- حتى دخول القبر.
- أخرج قطعة الخبز من بنطاله، وبدأ القضم في هدوء.

رائحة البخور تملأ غرفة الجلوس المطلة على شاطئ بحر الأنفوشي. كل شيء مُرتب ونظيف، حتى أبواب الغرف.

لم تنسَ "شريفة" إزالة الأتربة وخيوط العنكبوت. وتلميع خشب وزجاج النافذة المطلة على الشاطئ. تابعت خطوات ابنتها "ثرثرا" في انتظار خطيبتها، فالיום ميعاد الزيارة الأسبوعية التي سمح بها "لطفى" لهذا الخاطب للجلوس مع ابنته؛ حدده بالساعة واليوم؛ حتى لا يختلط الحابل بالنابل، ويدوب جمال "ثرثرا"، ويفلت العريس بعد تناوله حلاوة عسيلتها.

نهضت "ثرثرا" مع احمرار وجهها، تهز عسلها وحلاوتها؛ لتختبئ في غرفة أخرى.

نظرت "شريفة" من النافذة. العريس قادم؛ يحمل ما لذ وطاب من هدايا كل أسبوع. دلفت إلى فتح باب الشقة لاستقباله، وصدته من الاصطدام بجارتها "أم حلويات"، التي ساءت العلاقة بينهما حسداً للخطاب وما يحمل من هدايا.

الشوارع خالية من المارة، نوافذ المنازل مغلقة. السماء تُنذر بهطول المطر. برودة الهواء تتسلل من شاطئ البحر تصفر في الآذان. أنوار البلدية فوق الأعمدة تؤنس وحدة عربات الكرو التي امتلأت بالعِزال. أعطى "لطفي" إشارة التحرك، مُودِعًا لشقة زواجه، فقد رُزق فيها بأولاده الثلاثة: "ثريا" و"علي" و"ملوم" وأجمل لياليه مع امرأته "شريفة". لا حيلة له مع إصرار امرأته بالانتقال إلى مسكن آخر؛ خوفًا من انهيار آخر. يكفي ما سقط من جدران الحمام، لم يُصب أحد. لم تصبر "شريفة" بإصلاح وترميم. أصرت على الرحيل، وقد كان.

فرك يده على درجات السلم الرخامية. قبل يده، التفت إلى شقة الجارة "أم حلويات" البارزة من الأرض. رفع نظراته في بطاء وحذر. شقة المرأة اللعوب (الست مصيبة) كما يسميها. تمنى أن يراها في لحظات الرحيل. المغتصبة لشهوته منذ سنوات مضت، يريد أن يُشبع نظراته منها، ما زالت ذكرى متعة الحرام تراوده، بل وتلح عليه في هذه الدقائق المعدودة.

انتبه إلى الجارة "أم حلويات" وهي تحتضن أولاده وامرأته، تبكي بجانبها. رفع يده مُنهيًا هذا المشهد الدرامي وسرعة الرحيل، فالسماء بدأت تُسقط قطرات الماء. تابعت "أم حلويات" رحيل العربات. لم ينظر "لطفي" إلى الوراء. أغلق ملف ذكرياته الأنفوشي. فتح ملفًا آخر بسكنه الجديد منطقة الحجاري، المطلة على مداخل بحري القديمة. ميدان المساجد، أولياء الله الصالحين. السiale، بمنارها القديمة وقواربها على أركانها.

ربت على كتفه ولده "الملوم":

- أين زوج شقيقتي "ثرثا"؟ أليس من الواجب حضوره للمعاونة ومساعدتنا؟!

لم يهتم "لطفى" بالحدث، فهو راضٍ كل الرضا بما قدم زوج ابنته من خدمات، والمعاونة في تقديم المال اللازم للانتقال لهذا السكن الجديد. نظر إلى امرأته بالعربة الأخرى، وهمس:

- يا لك من زكية! كم تشبهك "ثرثا" في استغلال مفاتنها وحركاتها في أخذ ما تريد!

مسح جبهته من الأتربة، لم يفلح في إزالته من شعره وحواجبه. كان مُغتمًا لفراغ حافظة نقوده مرة أخرى، بعد أخذ امرأته كل ما تريد لتجهيز ابنته "ثرثا"، غير عابئة بمصاريف ولديه "على" و"الملوم". كان همها أن تتحدى عائلته الأرستقراطية في المنافسة بكل ما يلزم ابنتها، بل وأكثر من بنات عائلته! حتى أصبح مكبلًا بالكمبيالات الشهرية؛ لتسديد بقية جهاز ابنته "ثرثا"، ولا يدري، هل سيقوم العريس بالمطالبة بما قدم في المساعدة بمصاريف الانتقال لهذه الشقة الجديدة؟ أليس من الأولى أن نعرفه بتكلفته جهاز حبيبته "ثرثا"؟ هز "لطفى" رأسه بالنفي. لا يريد أن يقف أمام امرأته "شريفة" وعاقبة كشف المستور.

لا مفر من تناول كوب الشاي وكسرة الخبز، ومواصلة تعاسته كما كان في الماضي!

التفت لشاطئ البحر. بدأت العربات تنعطف عن الطريق، ويختفي فيروز عينية. كورنيش الشاطئ، بما يحمل من ذكرياته، بين امرأته والمرأة اللعوب. همس:

- هل من عودة للسقوط بين أمواج البحر مرة أخرى؛ هرباً من مشاكله؟ وهل هذه المرة سيخرج من البحر إلى مستشفى الأمراض العقلية أم.. إلى القبر؟!

أطلت "شريفة" من النافذة الوحيدة لشقتها الجديدة، المطلة على الشارع، لا تملك غير أن تبرز غير رأسها، أمام ما ترى من السائرين على جانبي الطريق، وأمام نوافذ الجيران وعلى درجات أبواب المنازل. رجال ونساء على الدرجات. لم يهتموا بهذه الملابس الفاضحة للمفاتن وعنفوان الشهوة. عروض بدون مقابل، تطلب كل محتاج من رجل وامرأة لسد حاجته من لذة وشهوة! لم يقف الأمر إلى هذا الحد؛ رائحة الكيروسين وماء النار تكمل رحلة الإطلال من النافذة. المحل الملاصق للنافذة؛ "سعداوي السمكري"؛ مُنقذ الأسرة الفقيرة المترامية بين أطراف محله، صاحب مزاجه العالي من سنة الأفيون اليومية مع فنجان القهوة.

كان عليها الصبر ومحاولة إخفاء مدى التعاسة التي وصلت إليها، فهي التي اختارت تلك الشقة ومغادرة الأنفوشي، حبيبة زوجها وذكرياتهما، بكل ما تحمل من إمتاع. ضحت بماء البحر. والشاطئ ونسيمه المعطر برائحة اليود؛ في سبيل إنقاذ الأسرة من انهيار المنزل عليهم والسكن بشقة الدور الأرضي، ذات العين الواحدة. نافذة تستقبل الهباب والأتربة وهففة روائح ماء النار.

كل هذه المنفردات، كان نتاجها؛ إغلاق باب الزيارات من الأهل والأصدقاء، حتى خالتها "نرجس".

مضت الشهور، ولم تحل إلى بيتها المتواضع لمعرفة أحوالها وأحوال أبنائها، كما كان في الماضي. هبت عليها رائحة شاطئ البحر؛ اقتراب جارتها "أم

حلويات" إلى المنزل. قفزت تكاد أن تطير لاستقبالها بما تحمل من راحة البحر، وبما تحمل من أخبار أهل الأنفوشي.

لم تسلم من نظرات "أم حلويات" وعتابها المتكرر كأمواج البحر، بالرحيل إلى هذا السكن، فهي ما زالت تسكن بالبدروم مع أولادها السبعة، ولم تهتز كما اهتزت مثلها بالرحيل. لم تلتفت "شريفة" لتلك النصائح. كانت تظن أن هذا الرحيل وقربها من الأولياء الصالحين، "المرسي أبو العباس" و"سيدي ياقوت العرش" وقبور المشايخ أصحاب البركات سيجعل من سكنها جنة من جنات الله في أرضه. أملت "أم حلويات"، أعطت "شريفة" أذنّها. بدأت بالإنصات لأخبار أهل الأنفوشي الطازجة. كانت هي الأخرى مستعدة بمد جسور الأخبار بأخبار أهل الحجاري. لم تسعد "شريفة" بأخبار الأنفوشي، فهي الأخبار القديمة الجديدة. الست مصيبة اللعوب الشهوانية، كما يسميها زوجها "لطي" ومغامراتها مع الرجال وخاصة الشباب. كما لم تسعد بأخبار "الشيخ الدرويش" قاتل زوجته الخائنة بالسّم ودفنها، وزواجه بأخرى. انكسرت عيون "أم حلويات" أمام إخبار "شريفة" الطازجة، الملتهبة.

عاشقة المنجد "جماليات"، ورفيقة الرجل الدبلوماسي الزنجي أنجي. وبائعة الهوى سكرة، وتاجرة المخدرات "أم حربي".

انقطع شريط الأخبار بطرق الباب. همست "شريفة":

- جئنا بسيرة القط. جاءنا ينط.

القادمة جارتها "أم حربي" تاجرة المخدرات. زيارة كل صباح. لم تسلم "أم حلويات" من نظرات "أم حربي". انكمشت بجانب "شريفة". لا تقدر على الوقوف والخروج من جلسة الشُّبهات. امتلأت الغرفة بدخان الأنفاس، وتمايل "شريفة" و"أم حلويات" مع تمايل رائحة المزاج من فوهة "أم حربي".

آه.. مالك؟ سعودي مات.. شخ عليه.

نظر "لطفي" من النافذة على أصوات (شخ عليه) أطفال وشباب الحارة، يحملون نعشاً صغيراً. مُزيناً بطرحة وعِقال. يرددون: (شخ عليه)! كان ابنه "الملوم" يُنظم صفوف الأولاد أصحابه وأطفال الحارة. لم يكن يتوقع أن تسوء العلاقة إلى هذا الحد بين مصر الثورة وبلدان الخليج والأراضي الحجازية. هذه الإمارات والممالك في فزع من ثورة مصر، وما تحمله من دعوى لثورات الشعوب على حكامها! لم يتبرم "لطفي" من كلمات (شخ عليه)؛ تمنى زيادة العبارة. تذكر ابن عمه، وكيف طُرد من الأراضي الحجازية لمجرد وصول خطاب له بالحجاز يحمل عنوانه: "جمهورية السعودية العربية". ضارباً بعرض الحائط بالمملكة العربية السعودية! كان يوم قيامة ابن عمه؛ جُذب من فراشه بالليل، وتم ترحيله إلى مصر بدون - كما يقول المثل - (ولا إحم ولا دستور).

ابتسم "لطفي"، فهو يعرف كلمة دستور. فماذا تحمل كلمة (إحم) تلك؟! التفت إلى زوجته "شريفة"، تقبل عليه حاملة فاكهة الفقير؛ أكواب الشاي، همس إليها، واثقاً كل الثقة من إجابتها عن تساؤله؟
لم تتردد في الإجابة:

- كلمة (إحم) لا تقال هكذا، لكن تقال مرتان، وأحياناً ثلاث مرات: (إحم إحم إحم) وذلك عند دخول دورة المياه (الخلاء)؛ خوفاً أن يكون بالداخل أحد يقضي حاجته.

لم تبخل عليه بإكمال الإجابة:
- إنها تُنذر ساكني الخلاء من الشياطين والأبالسة أن يبتعدوا لدخول زائر الخلاء أو دورة المياه.
لم تتوقف إلى هذا الحد، بل سردت باقي (الإحم) بذكر آخره (دستور):
- هذا قانون الإذن بدخول المنازل في كل مكان موجود على سطح الأرض، وهذا حال الغريب، والقريب عليه حرج.
لم تعطِ فرصة لزوجها بالاعتناع بهذه الإجابة:
- وأعلى دستور: ألا يُفاجئ الزوج زوجته في غرفة نومها!
أنهى "لظفي" احتساء كوب الشاي بعد هذه المحاضرة الرائعة من زوجته العبقريّة "شريعة". اتجه إلى غرفة النوم بدون.. (إحم ولا دستور).

التفتت إليه، وقالت عبارتها المتكررة:

- أنت حضرت؟! -

لم يأبه "الملوم" لكلمات أمانة المكتبة وهي تهتم بفتح باب المكتبة لأول الحاضرين.

"الملوم"، لا يهتم بأصحابه؛ أولاد حارته وزملاؤه بالمدرسة، وهم يتغامزون عليه في طريقه إلى "قصر ثقافة الحرية". رحلة كل يوم، بعد انتقاله من الأنفوشي، والحناية تحت درجات السلم مع حلويات، ولعبة الطبيب العابث. إلى قصر الثقافة، والحب الجديد بالحجاري "بيحة" ابنة الجيران، صاحبة الشعر الأصفر والجسد النحيف واللقاء الساخن على درجات السلم. سجل اسمه بدفتر رواد المكتبة. أخذ مكانه المفضل: ركن القصص وبطوط وعم ذهب وسندريلا. بحث كثيراً عن قصص الشاطر حسن، لم يرها! لا يدري من أين كانت تأتي بها أمه "شريفة"؟! وبراعتها في مقدمة الشاطر حسن: طمبك طار. طمبك طار. أخذها الشاطر حسن وطار، مع الأميرة الجميلة، مد شعورك الطويلة، يتسلق الشاطر حسن شعر الأميرة. يلتقي بها في قلعة الساحرة الشريرة.

التفت إلى أمانة المكتبة؛ تحت الجالسين:

- قد حان ميعاد غلق قصر الثقافة.

أخذ "الملوم" طريق عودته، كورنيش البحر النظيف. كان يريد أن يحافظ على أناقته؛ من حذاء "باتا" الأصفر، والفانلة الحمراء الزاهية، والشورت المدعم

بقطع الصفيح الصفراء. كان يمتلك من الفانلة أربعة ألوان: الحمراء لذهابه لقصر الثقافة. والصفراء وهي من مراسم ذهابه لشراء اللحم، طبقاً لتعليمات أمه؛ لشهرة صاحب المحل الواسعة في تشجيع فريق الكرة الإسماعيلي؛ يتسم بمشهد "ملوم" بالشورت والفانلة الصفراء؛ يلفظ النارجيلة من فمه، ويهم واقفاً لتلبية طلبات "ملوم" من اللحم الأحمر الفاخر، ولا مانع من ملمة العظام المدعمة باللحم فوق الميزان، ليس من أجل عيون "ملوم"، لكن إكراماً لهذه الفانلة الصفراء النظيفة الزاهية.

كان "ملوم" لا يتبرم بالإسراع بالعودة للمنزل؛ ليبدل الفانلة الصفراء بالخضراء، والخروج مرة أخرى لشراء ما يلزم اللحم من الخضار والطماطم والفلفل من المعلم سنكر مشجع نادي الاتحاد السكندري!

عبر "ملوم" الكورنيش إلى ميدان المساجد، صعد درجات سلم مسجد المرسي أبو العباس المغلق. جلس يتأمل مياه البحر ومراكب الصيد، وهي تعبر فنار القلعة العتيقة الصامدة. "قلعة قايتباي" الشاححة الحامية لحبيته الجميلة، الإسكندرية. أسرعت دقات قلبه مع خطوات حبيبته الجديدة، "بيحة" بشعرها الأصفر وجسدها النحيل. تلاقى الحبيبان على درجات المسجد المغلق. لم يلتفت إلى خصلات شعرها الأصفر. أطبق على يدها بين كفيه، لم تتراجع حبيبته بسحب يدها. ضمت جسدها إليه وهمست:

- أتعرف من قابلت عند خروجي إليك؟

لم تمهله فرصة التفكير والاختيار:

- أبوك "لطفی" كان قادمًا من الخارج.
انتفض "الملوم" من جلسة الحب والغرام. أسرع في خطوات الرجوع، لم
يلتفت لنظرات "بيحة"، وضحكاتها العالية بينما تتابعه في طريقه إلى البيت.

صعد "لطفی" السيارة "الفورد" قاتمة اللون، كثيبة المنظر. الجميع يحشاها ويخشى حتى مرورها بجانبهم. كانت ممتلئة بأمثاله من الرجال. لا يدري لماذا جُرَّ بعد صلاة الفجر وتم سحبه من قفاه، على باب المسجد؟! لم يرتكب جرماً! ولم يفعل بعمله النهاري والليلي شيئاً يؤدي به إلى هذه السيارة، بهذه المعاملة القاسية، من هؤلاء الرجال غلاظ القلوب والأجساد! حاول التحدث للرجل الجالس بجانبه، تلقى على وجهه أسرع حديث؛ قبضة اليد الغليظة!

هبط من السيارة في طابور المقهورين أمثاله. نظر إلى المبنى القديم المتهاك، عبر إلى ممر ضيق، انحشر مع زملاء صلاة الفجر، كان هو الشخص الرابع عشر لصُحبة الغرفة الخالية من النوافذ. لا يوجد غير دائرة صغيرة بالباب الحديدي. نظر إلى ساعته، لم تتعدَّ الساعة صباحاً. ربت على كتفه الرجل الذي حاول التحدث معه بالسيارة وهمس:

- ألا تعرفني؟ أنا جارك، خلف منزلك، "أبو تمام". ولدي "تمام"، زميل ابنك "الملوم". لا تحزن ولا تقلق، أنت رجل مُسالَم، ليس لك نشاط.

لم يتفوه "لطفی" بكلمة واحدة. أخذ يفكر:

- كيف عرفني هذا الرجل؟ هل من خلال ابنه "تمام" زميل ولده؟ أم من خلال زمالة المسجد؟

كان يريد أن يسأله: ما الذي أورده إلى هذه المهالك؟! وما هو مصيره؟ وكيف حال امرأته "شريفة" وأولاده علي و"الملوم"؟

نظر إلى ساعته؛ تجاوزت الثامنة صباحًا. لم يسمع أي خطوات قريبة من الغرفة أو الزنزانة. ولا أصوات خارج المبنى تُبين في أي شارع هو، ولا في أي منطقة؟ أسئلة كثيرة لم يجد لها إجابات! أخرج قطعة الخبز من بنطاله؛ أخذ يقرضها في هدوء.

فتح عينيه من غفوة النوم بعد قرص كسرة الخبز. كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة صباحًا. التفت إلى باب الغرفة يُفتح، أبطأ في الوقوف مثل زملاء زنزانتة. أظلمت الدنيا أمامه. لم يرَ غير نجوم السماء في عينيه. مسح وجهه؛ عسى أن يُخفف مما نال من القبضة التي لا ترحم؛ عقابًا لهذا التباطؤ. اصطف بين أصحابه. لم يرَ علامات الارتياح من الخارجين من تلك الغرفة؛ تحمل وجوههم العبوس والتوتر.

اقرب دوره بالدخول إلى الغرفة. أرقت الآزفة؛ قد حان دخوله، لم يرفع رأسه من الأرض؛ كان يريد أن يتفادى أي قبضة أخرى تأتي إلى وجهه. يريد أن يُظهر مدى طاعته لصاحب هذه الغرفة.

جاءه صوت يحمل نبرات الرحمة والشفقة، أمره بالجلوس. تردد في الجلوس، رفع رأسه ليُشاهد صاحب تلك النبرة الحانية.

أضاءت السماء أنوارها، خرجت الشمس والقمر في ساعة واحدة، تحفهما النجوم وصفاء السماء بضوء النهار. المُحقق؛ زميل عنبره بمستشفى الأمراض العقلية، صاحب النظارة السوداء، خشن الملامح، بطيء الكلمات، أشار عليه بالصمت التام. انتهى من كتابة سين وجيم، دس في يد "لظفي"

لفافة من الورق، قُرِع جرس بجانبه، أسرع "لطفِي" في خطواته، لم ينظر خلفه.

حداثق الشلالات تظهر أمامه، تعج بالمارة واختلاط السيارات. أخرج كسرة الخبز من بنطاله، جلس تحت ظلال الأشجار يلتهما، لم ينسَ إخراج لفافة ورق زميل عنبره، لم يفرح بالنقود بقدر فرحه بمنصب صاحبه، في هذا المكان الهام. فحص قصاصة الورق، رقم هاتف زميل عنبره صاحب النظارة السوداء خشن الملامح، بطيء الكلمات. التفت حوله، اطمأن؛ لم يجد أحداً يراقبه. اتجه إلى ما يُحب أن يُشاهده ويكتحل بمائه الأزرق؛ شاطئ البحر. كانت خطوات قدميه تقفز مثل طائر "أبو فصادة". لم يقدر أن يحكمها، بل تركها تقفز بحريتها، فهي تعرف طريقها إلى المحبوب.. امرأته "شريفة".

- مدد يا مرسي يا أبو العباس. شلله يا سيدي القباري.
خطوات هادئة. نظرات تخترق ملكوت الأرض، تصعد إلى ملكوت السماء.
حركات مطمئنة، ركوع وسجود، نظرات حاملة.
تلك كانت نظرات "الملوم" إلى كتاب اللغة العربية. يستند بظهره على عاموده
المفضل بمسجد "المرسي أبو العباس"، بجانب مقصورة الشيخ العالم، الراقد
تحت صحن المسجد هو وأبناؤه. صعد مقصورة "أبو العباس المرسي"، فهي
المشهد الوحيد داخل المسجد. يحلم كما يحلم زملاؤه المنتشرون تحت
أعمدة المسجد، يجتمعون جميعاً في موضة الوضوء. ثم اختطاف الصلاة،
والانتشار مرة أخرى تحت الأعمدة؛ لاستكمال المذاكرة تحت أنوار قوارير
الثريا المعلقة، وفوق السجاد الأحمر الفاخر.
هدوء المكان؛ من أهم أسباب نجاح "الملوم" وأصحابه. الزميل "شكري" يشرح
اللغة الانجليزية، و"الملوم" يشرح اللغة العربية، ويبدع في شرح الأدب.
كانت مادة الرياضة العدو الغبي أمام "الملوم"، وصمة العار! كل شهر يسقط
بين أنيابها، وتأتي في ذيلها مادة اللغة الأجنبية! يُعاني الكثير لفهم المواد.
يحتاج إلى دروس التقوية، لكن لا فائدة؛ والده مازال يعاني من تسديد
(كميالات) تجهيز شقيقته "ثرثيا". طريق الدروس مغلق أمام تطلعات
"الملوم". أغلق "الملوم" كتاب اللغة العربية، لا يقدر على مواصلة المذاكرة.

هبت عليه عاصفة فقر أسرته وما بها من مشاهد المعاناة. كما تخلى عنه زملاؤه بالمسجد، لينفرد كل واحد منهم بدروسه الخصوصية! تمت "ملوم" بكلمات لا يسمعها إلا هو ورب المسجد:

- نعم، الجميع يتنافس من أجل الشهادة الإعدادية. آه من مُدرس اللغة الأجنبية! صدق في تصوير أهمية هذه الشهادة؛ فهي مثل تحويلة القطارات، من الممكن أن توصلك إلى القاهرة، ومن الممكن أن توصلك إلى صعيد مصر.

لم ينسَ "ملوم" موقف هذا المدرس طيب القلب بالتنبيه بإحضار كراسة جديدة، وعجز والده "لطفی" في تدبير القروش القليلة لشرائها. لن تُشتري إلا بعد استلام "لطفی" مرتبه الشهري خلال أيام قليلة. كانت مفاجأة مدرس اللغة، وموقفه الإيجابي مع "ملوم"؛ بتحويله إلى الاختصاصي الاجتماعي! سين وجيم! لم يتحرك قلم الاختصاصي الاجتماعي، في معاونة "ملوم" بمحنة الكراسة الجديدة! كان وزر والده "لطفی" أنه موظف حكومي؛ يتقاضى مرتباً شهرياً.

نهض "ملوم" من جلسته المغلقة، وَوَضَعَ حذاءه تحت إبطه، قبض على كتابه وكراسته؛ فقد حان ميعاد غلق مسجد "المرسي أبو العباس". هبط إلى الساحة الواسعة، عبر إلى شاطئ حبيبته الإسكندرية. نظر إلى كحل عينيه؛ البحر وأمواجه. تتهادى قوارب الصيد، تُداعب حاميتها الكبيرة الصامدة؛

"قلعة قايتباي" الشاحنة مجدرانها وثباتها أمام أمواج البحر المداعبة والمهاجمة سواء.

كان يتمنى أن يصمد هو الآخر أمام اللغة الأجنبية والرياضة. مادة الجبر، لم يفهم منها شيئاً. كيف يتعامل مع س وص؟! ما هذا الكلام غير المفهوم؟! لم ولن يكون حماراً مثل زملائه الحاصلين على درجات النجاح. هم الحمير، فعليهم الحفظ دون فهم! ثم يفرغون كلمات السين والصاد؛ سيبقى حماراً من نوع آخر، مثل زملائه أصحاب الدوائر الحمراء في الشهادات. أسرع في خطواته؛ مُحْتَصِراً الطريق من خلال حارات "السيالة". هبت عليه رائحة شواء الأسماك تنبعث من داخل أبواب صيادي البحر. لم يستجب لرغبات معدته، استجاب لرغبات قلبه؛ محبوبته "بيحة"، تنتظره على ناصية الشارع.

ينظر إلى شاطئ البحر، يتقدم خطوة. الطربوش النحاسي ملتصق برأسه، متحدياً هواء البحر، لا يقدر أن يُزحزحه مقدار أنملة، مثل مبادئه التي ذهبت به إلى المعتقل والنفي! يشمخ بأنفه، رأسه مرفوعة عالية في السماء. كل ما يرتديه من النحاس، مُلتصق بجسده النحاسي. تجلس أسفل منه المرأة المحروسة تتعلق بغصني الزيتون.

مسح "لطفی" الغبار من على وجهها النحاسي، يستعطفها أن تصعد معه إلى الزعيم. يريد أن يُصافح "سعد زغلول" بيده ويلامس جسده، جسد هذا الزعيم حتى ولو كان نحاسياً. ويشاركه في مُشاهدته، خلال وقفته الصامتة والصامدة، عبر الزمان، أمام أمواج البحر الهادئة والهائجة في كل آنٍ؛ تتراقص لغة العيون بين سعد وقلعة قايتباي. يستمد كل منهما قوته من الآخر.

هبط "لطفی" درجات "سعد" في هدوء. لا يدري أهو خشوع أو انسحاب الخائب الذي لا يعرف ما هو مصيره ومصير أولاده أمام هجمات الظلم وأساليبه؟! ها هو يذهب بإرادته للقاء زميل عنبره بمستشفى الأمراض العقلية، الذي أصبح - بقدرة قادر - المُحقق - عالي المقام - بإدارات الأمن القابضة الخائقة لكل مُتنفّس للحرية، والمُغلقة لكلمة "لا". لا بد أن تخرج كلمة "نعم". نعم، نعم، لا سبيل إلى كلمة "لا" بمصر. مصيرها الحبس والقتل بأساليب التعذيب المتطورة التي نهضت وترعرعت مع خطوات أحرار مصر؛ ضباطها الأحرار!

رفع "لطفي" رأسه إلى تمثال الزعيم. لا حيلة له! لا يقدر أن يُصافح يده أو يتعلق في رداءه النحاسي أو يلمس حذاءه!

- لماذا هذه المنصة العالية؟ هل وُضعت هكذا لإبعاد الشعب الحر وعاشقي الحرية؟ فلا يقدرُوا على أن يتقربوا إلى الزعيم. ويأخذوا نصيحته أمام الطغاة وأصحاب الأقلام الحمراء وحاملي مفاتيح الزنازين وزوار الفجر؟
شعر "لطفي" بنشوة النصر. النصر على نفسه، وعلى آماله الزائفة التي رسمها خياله الواسع المتسع لكل شيء، حتى إلى التعاون مع صاحبه وزميل عنبره العالي المقام بإدارات الأمن.

مع اقتراب الساعة من هذا الميعاد المشؤوم بحديقة الزعيم "سعد زغلول" بميدان محطة الرمل، كان واثقًا من قراره بعدم إتمام المقابلة. لَوَّح بيده إلى الزعيم مودعًا. أخرج كسرة الخبز من بنطاله. لم تصل يده إلى فمه! توقفت. حمد في مكانه! ظهر صاحب النظارة السوداء؛ زميل عنبره، يهبط من السيارة السوداء. لم يُخَفِ "لطفي" كسرة الخبز، بل أصر على ظهورها أمام الرجل، وفي هذا الموقف، لماذا؟! لا يدري! اقترب بثقة وثبات إلى صاحبه وزميل عنبره. ابتسم "لطفي" إلى الزعيم "سعد" في استحياء، كان يتمنى وصول كلماته إلى أذن الزعيم:

- سيارة سوداء، ونظارة سوداء، وأيامك كلها سوداء على رأسك ورأس أهلك (ورأس اللي يشغلوك).

كان "لطفی" مطيعًا لصاحبه. لم تمر دقائق، توقفت السيارة أمام مقهى "السلطان حسين". أشار لصاحبه بيده. أدار موتور السيارة مرة أخرى. توقفت أمام كافيتيريا "إيليت بوتيت". سبق "لطفی" صاحبه بالدخول. تابعه صاحبه يبتسم، همس:

- لا فائدة، فقر و(عنتظة). أين أنتِ يا أم بتعة؟!

أسرع النادل، لم ينظر إلى صاحب النظارة السوداء وملابسه الراقية الزاهية. بل مُسلطًا بصره على "لطفی".

دق صاحب النظارة السوداء على الطاولة. دقات تشبه دقات قاضي المحكمة. قاطعة نظرات النادل. أصر "لطفی" على متابعة النادل له. أخرج كسرة الخبز من بنطاله. رفعها في وجه النادل:

- محتاجة هذه الكسرة لكوب من الشاي الكبير، الثقيل، خفيف السكر، وأفضل أن يكون هناك كوب من الماء المثلج.

ضحك صاحبه، أمر النادل بفنجان قهوة سادة. ابتعد النادل بين احمرار أذنيه واختفاء رأسه بين كتفيه.

أمال زميل عنبره رأسه، تابعه "لطفی" بخفض رأسه هو الآخر، مُصاحبًا انخفاضه بغمز عينيه.

النادل قادم، يُصاحبه رجل أنيق الهندام؛ البدلة السمراء الزاهية. كانت كلماته رقيقة؛ معذرًا عن قبول "لطفی" بهذه الملابس؛ مُبررًا هذا المكان هَيئ للترفيه والانسجام. لم يكتفِ بهذا؛ أشار بيده في زاوية الصالة:

- هنا يجلس الفنان سمير صبري، وهذه يجلس عليها أبناء الجالية اليونانية، وتلك يجلس عليها...

قطع إشارته صاحب "لظفي" بلكمة قوية في وجه هذا الأنيق. انسحب الأنيق متكئاً على كتف زميله النادل. لم يتردد "لظفي" بقبض يد صاحبه؛ مودعاً لهذه الكافيتريا وهؤلاء البني آدميين الغرباء عن عدالة عبد الناصر وشعارات الثورة. سعد "لظفي" في قناعته بأن ثورة الضباط الأحرار قد بدأت في الزوال.

توقف محرك السيارة مرة أخرى أمام كايفتريا "علي كيفك". أشار "لظفي" لصاحبه:

- أترى هذا الجالس الصامت. يضع ساقاً فوق الأخرى، جلسته لا يشعر بها إلا مَنْ يعرفه ويعرف مصيبته وآلامه. أترى؟ لا يتحرك، ولا تهتز سيارته بين أصابعه. فنجان قهوته برد ونفد دخانه. صورة مكتملة باردة. أترى يا صاحبي؟ إنه الفنان والمخرج والمؤلف "نجيب سرور". كنت أذهب إليه لإعادة تلميع أثاث شقته. كنت أحسده على فلسفة كلماته وتعليقاته على أحوال مصر. كما حسدته على جمال امرأته. كان يبهرني بحديثه عن الثورة، والحرية، وكرامة الإنسان. سقط مع سقوط الألقعة. لا حُرية، ولا كرامة، ولا ثورة! أتعرف؟ حتى امرأته ذهبت عنه! تركته بين أمواج العذاب، تقذفه في شواطئ التيه. ترتمي في حضن الآخر. الآخر يا صاحبي صديقه! الآن، يجلس وحده في عالمه الخاص.

قاطعته صاحبه ونزيل عنبره:

- الآن تذكرته. شاهدته كثيرًا بين ردهات عنبرنا بمستشفى الأمراض العقلية. كنت أظن أنه مثل مَنْ غضب عليهم القوم. مسكين هذا الرجل؛ عذاب حبه لا يساويه شيء. مسكين هذا الرجل!

جذب صاحب النظارة السوداء، جامد الملامح، "لظفي" من قفاه. أدخله السيارة. لم يتفوّه "لظفي" بكلمة. أراد أن يرى نهاية هذا اللقاء! أخيرًا تكلم بطيء الكلمات:

- أنت يا رجل! ألا تُشاهد أحوالك وأحوال أبنائك؟! التحقوا بمدارس مجانية، ويذهبون إلى الأندية الشعبية، وفُتحت لهم أبواب المستشفيات، وتوفرت لكم جميع السلع الهامة والضرورية. ألا ترى تحسن أحوال مصر في كل هذا؟!

أخرج "لظفي" كسرة الخبز من بنطاله، كأنما يستعد لمبارزته بها. - كسرة الخبز تلك، أحملها دائمًا معي. أقضم منها. وأخترن بقيتها ليوم آخر. وهل ترى التعليم قد أصبح مجانيًا بعد الثورة؟!

أسألك؛ كيف تعلم الزعيم عبد الناصر؟ وكيف دخل إلى الكلية الحربية وهو ابن البوسطجي صاحب الراتب المتواضع؟!

أليس قبل الثورة مجانية في التعليم؟ أما المستشفيات؛ ألا تقرأ مستشفيات أسرة الملك: "مستشفى الملكة نازلي" و"مستشفى ناريمان" وبناءهما بمجهودهما الشخصية. و"المواساة" وغيرها من أعمال البر؟

طبقة الباشاوات، والتي أطلقت عليهم الثورة طبقة الإقطاع، كانوا لا يتأخرون عن أعمال الخير والبر.

أفرغ "لظفي" كلماته، وداخله يرتعش خوفاً من صاحبه، مُنقذه من الاعتقال، ومركزه عالي المقام في الأمن. هل يكمل ثورته على الثورة؟ أم يتوقف إلى هذا الحد ويصمت؟ عِراك وحِراك بداخله، لم يقدر على صده. صعد مع صاحبه على درجات مسجد القائد إبراهيم. لم يقدر أن يحبس كلماته أو يُغلق فمه.

- مسجد "القائد إبراهيم" كما نسميه. "إبراهيم باشا" ابن "محمد علي" من أشهر مساجد حبيبي الإسكندرية. نصلي فيه ونردد اسمه. لكن مَنْ هذا إبراهيم؟ وماذا فعل؟ وما هي نهايته؟ نُردد الكلمات مثل البغاء ولا نفكر في هذا الرجل. هذا القائد إبراهيم ابن محمد علي باشا صاحب النهضة الصناعية بمصر. لم يتأخر "محمد علي" بإرسال شقيق إبراهيم هذا؛ "طوسون" ليحارب مَنْ؟ يُحارب أكبر دعوة مُجددة لعقيدة التوحيد! هذا المجدد؛ قضى على عصابات نشر الفِرْع والنهب والسرقة بين قبائل الأراضي الحجازية. لماذا يُعظم؟ ولماذا يُمجد "طوسون" هذا؟ وعمله، يُظهر مدى الحرص على تغييب أمة الإسلام عن جوهر عِزتها ومجدها التوحيد! لا شيء آخر. استخفاف بعقول المصريين! "محمد علي" الوالي لمصر. الألباني. يُنصبه المصري. المصري المجاهد "عُمر مكرم" هو بنفسه وقناعته، يرفع الألباني ليكون حاكماً لمصر! يستخف "مكرم" بذاته، بقدره وجهاده ومصريته! كان

الأولى أن يكون هو الحاكم. نعم "محمد علي صاحب نهضة مصر، لكن بسواعد مَنْ؟ سواعد أهل مصر.

- لا تتعجب من حديثي. تذكر حديثي معك بعبرنا بالمستشفى. أنا لست بعامل جملكة وتلميذ الموبيليا فقط، بل كنت في المرحلة المتوسطة من التعليم، لكن هذا قدرتي؛ انفصال الأب وتزوج الأم؛ فكان حالي هكذا. أعشق الفن، وأحب الجنس، ويدوب جسدي في حضن امرأتي، ولا أفارق حبيبتي الإسكندرية. أكلّل عيني بمائها الأزرق.

صديقي وزميل عنبري، لا تمل من حديثي، أتمنى أن تصبح حتى ترى ملامح حال مصر. أظنك لا تراها جيداً من خلال نظارتك السوداء.

توقف "لطفي" عن خطابه وحديثه. صاحبه يخلع نظارته السوداء. ارتعش قلب "لطفي" صاحبه بعين واحدة! لم يستطع الكلام. توقفت نبضات قلبه! ابتسم صاحب النظارة السوداء. أزاح قناع وجهه الجامد بتلك الابتسامة. أشار إلى عينه المغلقة:

- أأشاهد؟ هذه كانت ثمن ما تحدثت به الآن. تلوت تلك الكلمات، وذاك الحديث منذ أعوام مضت. كان هذا ثمن كلماتي؛ فقأت عيني، واعتقلت وطفت سواح بين سجون مصر. كان آخر المطاف، مستشفى الأمراض العقلية، معك أنت، بعد فرارك من مشاكلك بمحاولة الانتحار بين أمواج البحر. كان قدرك أن تخرج من الماء، وتواجه الحياة مرة أخرى ومشاكل أكثر اتساعاً. أحوال أسرتك أحوال مصر كلها. لن أنتظر سؤالك عن وُضعي في هذا

المنصب المهم. والذي من خلاله أنقذتك من السجن، حتى ولو لأيام قليلة. مَنْ أشار بإصبعه في وضعي بهذا المنصب، هو نفسه الذي فقأ عيني؛ لكلمي التي أعشقها وأحترمها: "لا". كان هناك من زملائي، مَنْ كنت أظن أنهم أكثر مني ذكاءً. رحلوا من مصر إلى بلاد أوروبا والخليج. كنت مُصرّاً على المواجهة، وتحمل الظلم والظالمين. هل تعلم يا صاحبي أن هؤلاء الظالمين لهم قلوب صغيرة! لا تتحمل نظرات امرأة. وهذا هو كان مفتاح خروجي من مستشفى الأمراض النفسية! عاملة السويتش بالمستشفى، هل تتذكرها؟ الجميع يخشاها، لا يقدر أحد أن يرفع بصره إليها. هل تعلم مَنْ تكون؟ إنها زميلة من فقأ عيني! كنت في أوقات كثيرة أجالسها وأتسامر معها، تستمع إليّ وأنا الآخر أستمع إليها، كان إعجاب كلٍّ منا بالآخر. جذبتني إلى التصنت ومراقبة أمثالي، أعطيتها الكثير من ملامح شخصيات عنابر المستشفى. هذا شيوعي، هذا إخواني، هذا يحب عبد الناصر، وهذا يكره... حتى جاء اليوم السعيد لي؛ أمرتني بخلع نظارتي، كانت مفاجأتها مثلك! بما رأيت! لم تتمالك نفسها؛ بكيت كثيراً، وكانت فرصتي للخروج وشغل هذا المنصب. جلس صاحب العين الواحدة على درجات "مسجد القائد إبراهيم". أشعل سيجارته. لم ينظر إلى "لطفی" على الدرجات العليا. نظر إلى دخان سيجارته يصعد إلى صاحبه.

(قُلْنَا هَنبَنِي، وادي احنا بنينا السد العالي)
تغنى بها "الملوم" مع أصحابه وأبناء حارته، في طريقهم إلى حديقة "سعد
زغلول" بميدان محطة الرمل.

التفت الجماهير تحت أقدام جهاز التلفاز. وضعه الأحرار؛ ليُشاهد الشعب
منجزات الثورة. ومد جسور الثقافة؛ لتكون في متناول الجميع. من أجل
هذا؛ وُضع هذا التلفاز، يُلازمه مروضه ومُشغله الرجل العريض المنكبين،
صاحب الشارب الكثيف المُكِم لفمه. كلماته تخرج من العصا الغليظة إلى
كل مَنْ يقترب من هذه الشكنة العسكرية؛ فما زال فكر الأحرار يتحرك
ويدور من بين الشكنات والمعسكرات!

رؤوس المشاهدين مُعلقة بين السماء والتلفاز، لا تتحول أبصارهم! يهتفون:
(كنا حانبنِي، وادي احنا بنينا السد العالي).

تمايل ظمأى الحُرِّية والأمانِي مع تفجيرات صخور السد، على يد الزعيم عبد
الناصر.

انتفض "الملوم" مع أصحابه حول التلفاز. التهب الحماس. ارتفعت الأصوات
مع حليم:

(قُلْنَا هَنبَنِي، وادي احنا بنينا السد العالي).
ومشاركة فرحة الزعيم. لم يُقدر الحارس مشاعر الفرحة؛ العصي الغليظة
تهبط على الرؤوس!

اختبأ "الملوم" وأصدقاؤه خلف منصة الزعيم "سعد زغلول". كانت المفاجأة؛
لم تكن عصا الحارس وحده، لكن ظهرت عصي وهراوات كثيرة! تُفرق
الفرحة، وتقطع وحدة الجمع!
مرت الدقائق، هدأت ساحة الزعيم.
كان المشهد مُحْيِيًا لآمال "الملوم" وأصحابه. تحسس "الملوم" رأسه، شعر بنتوء
بارز؛ العصا الغليظة لم تُفرق بين الكبير والصغير. الجميع وقع تحت
قبضتها وشرها.
أشار "الملوم" على أصحابه بالعبور إلى كورنيش البحر والعودة.

أرخی ستائر النوافذ، أحكم غلق باب مكتبه، فصل حرارة الهاتف، أشعل لفافة التبغ المدعمة بالحشيش الفاخر. كل شيء هادئ حوله بانصراف زملائه، أصحاب الملفات المتلصصة على خلق الله! لم يبقَ بالمبنى غير أفراد الحراسة والحجرات الممتلئة بالمطلوب؛ فك شفرات خزائن عقولهم، والتغلغل داخل قلوبهم.

كان يفكر في كلمات صديق عنبره "لطفی". كيف لم يلاحظ تلك الثورة العارمة وسيطرتها على وجدانه وعقله؟!

شخصية مُسالمة، لا تحمل العدوانية، يعشق كسرة الخبز. وحبه لكوب الشاي هو القمة دون غيره من المشروبات، لم يشاهده مرة يُدخن.

تساؤلات كثيرة متزاحمة في رأس صاحب النظارة السوداء. أوقف مشاهد صاحبه "لطفی" وزميل عنبره. لم يكن هناك إلا المشهد الوحيد لحياة هذا الصاحب؛ حالة الانفصال بين والديه، وزواج كل منهما بزواج آخر. مع انخياز "لطفی" إلى عائلة أمه؛ طبقة "البروليتاريا" الكادحة في سبيل لقمة العيش، وتنكر والده الارستقراطي المتشبه بأجانب مصر!

انتعش صاحب السواد. أشعل لفافة أخرى. ابتسم للدخان الصاعد مع صعود فكره لصاحبه "لطفی"؛ يعشق طبقة "البروليتاريا"؛ الطبقة الكادحة الحاملة بالقفز فوق خط الفقر!

جاءت الثورة لتعبر بمصر، من حاشية الملك والباشاوات والبهوات، إلى عدالة التوزيع والمساواة بين أفراد المجتمع المصري.

لكن مازال "لظفي" بعيدًا عن الوصول والقفز من الفقر إلى حق أول درجات التنعم، ولو بالقليل من الرفاهية وسعة الرزق. هداً صاحب النظارة السوداء. بدأ كتابة تقريره حول طبقة "البروليتاريا"، ومدى ما تُعانيه قبل رحيل رحيق اللفافات المدعمة بالحشيش من رأسه، ورحيل صاحبه "لظفي" في آن.

نظر "لملوم" إلى أمه، ممددة على الأرض، تغط في نومها. انسحب من الصالة في هدوء إلى غرفة نومها. فتش بين طيات ملابسها! أخيراً عثر على جوزلان "شريفة"، كان فارغاً من النقود! أغلق الجوزلان، خرج من الغرفة يرتعش جسده؛ ليس من عادته فتح جوزلان أمه دون علمها، لكن لهذا السبب المهم؛ يعتبره "لملوم" أمراً لا بد منه؛ فالיום تظهر نتيجة الشهادة الإعدادية، وعليه إحصار الخمسة جنيهاً لمعرفة النتيجة ومصيره من عبور (فلنكات) القطار. كما وصفها مدرس اللغة الأجنبية. الحاكم بأمره في هذا اليوم هو فراش المدرسة؛ يظلم الطالب، لا يرد إليه الخمسة جنيهاً. يفرح الطالب بهذا الظلم الجميل؛ فهو ناجح. ثم يأتي طالب آخر ويرد له الخمسة جنيهاً، لا يرضى الطالب بعدل الفراش؛ فقد رسب.

نظر "لملوم" إلى أمه، ما زالت تغط في نومها، وما زال هو يرتعش. خط على قصاصة ورق:

- خرجت لمقابلة أصحابي بمسجد المرسى أبو العباس.
وضعتها بجانبها.

وضع جنيهاً يحتاجها! هل يذهب إلى بيت شقيقته "ثريا"؟ أم يذهب إلى...! لا يرى أحداً بالقائمة بعقله المهتز. خطواته المترددة لا تعرف سبيلاً لطريق البحث عن نقود الفرج.

مر الوقت، وبدأ النهار في الوداع. عليه أن يلتجأ إلى مَنْ بيده كل شيء. اقترب من بوابة "المرسى أبو العباس". دلف إلى صحن المسجد. لم يجلس

"ملوم" في مكانه المفضل بالمسجد. جلس بجانب مقصورة الإمام؛ العارف بالله المرسى أبو العباس، تحت صندوق النذور. أخذ يُراقب مريدي مقصورة الإمام وما تحمل أيديهم من نقود تعرف طريقها إلى صندوق النذور. تمنى أن تُخطئ يد الصدقة؛ فتنزل بين يديه. لم تفلح معه هذه الفكرة.

مر الوقت، لم يتبقَّ من الزمن إلا ساعة وتُغلق المدرسة أبوابها. لم يشاهد أحدًا من زملائه. كان يتمنى أن يقوم أحدهم بنجدته في هذا الموقف. هبط درجات المسجد، اتجه إلى المدرسة. ما زالت أكف زملائه عالية في السماء؛ تلوح لفراش المدرسة بالخمسة جنيهاً. يده مازالت فارغة يمينًا وشمالاً. كان واثقًا من نجاحه، لكن كم حصل من الدرجات؟ وهل ستذهب به إلى الثانوي العام أم الصناعي أم التجاري؟ لم ينصفه فكره. اللغة الأجنبية والرياضة، مادة الجبر الجاثمة على صدره.

انتبه بجلوس صاحبه "نعيم" بجانبه على درجات السلم. برزت عيناه مع هدفه الخمسة جنيهاً بيد "نعيم" المطأطأ الرأس، شرح لصديقه (الساقط) مدى حاجته إلى الخمسة جنيهاً؛ ليرى مصيره هو الآخر، سيل من الوعود المتراكمة بإرجاع الخمسة جنيهاً من يد الفراش أو يد والده "لطفي". التقط الخمسة جنيهاً، لم يتردد بصعود درجات السلم. رغم هياج فكره، كيف سيُرجع هذا المبلغ إلى "نعيم"؟ وإلى أي مدى استجابة والده "لطفي" له؟ اختفت الخمسة جنيهاً مع اختفاء الفراش. دقائق مرعبة في حياة "ملوم"، في انتظار الفراش. ظهرت يد الفراش خالية من الخمسة جنيات؛ ابتسم:

- مبروك. ثانوي في.
دارت الأرض تحت أقدام "الملوم"؛ المصيبة الآن مصيبتان! رد الخمسة
جنيهاً، ودرجاته للثانوي الفني.
لم يتوقع مصيره بالثانوي الفني، القصير النفس - كما يسميه زملاؤه -
"حسان" و"عطية" و"شكري" زملاء جلسات المذاكرة بمسجد "المرسي أبو
العباس". أخيراً (فلنكات) قطار الشهادة الإعدادية ترمي به خارج التعليم
العالى، والذي أصبح صعب المنال.
نظر إلى صاحبه "نعيم"، مازال جالساً مطأطأ الرأس. انسحب "الملوم" في
هدوء. دلف إلى الشارع الجانبى. يدخل من شارع ويخرج من شارع آخر.
لا يريد أن ينظر خلفه، أو يتعرض لملاحقة صاحبه الساقط "نعيم".

هبت "شريفة" مذعورة على صوت المذياع.

(شبكنا ستائر وحرير. يلاه يا حبيبي نظير).

أغلقت المذياع. لم يتبرم "لظفي" من غلق المذياع، فكم تكره "شريفة" تلك الأغنية (شبكنا ستائر وحرير). لا يقدر أن يفعل أكثر مما فعل مع زوج ابنته "ثريا" بعد كشف المستور أمامه، ورأى وتحسس وباشر مفاتن الحُسن والجمال مع ابنته "ثريا". والآن أصبحت الكحكة في يد اليتيم عجبه! تهافت بنات الجيران حول زوج ابنته "ثريا"؛ متابعة خطواته ليل نهار، يعدون مرات غلق نافذة حجرة نومه وفتحها!

كان أمامهن وهو عازب بشحمه ولحمه وكيس نقوده الثقيل. الآن بنت الجيران تشاغله من خلال النافذة وخلف الستائر - كما تقول شادية - لماذا بدأ يتحسس أجسادًا لا تخصه؟! أو حتى ينظر إليها؟! كيف يفعل هذا الخزي؟! وبعد أن رُزق بزوجته "ثريا" الفاتنة، صاحبة العيون الزرقاء والجسد الأبيض الناعم؟!

أنوثة متحركة. نعم، هي الآن منتفخة البطن. ما ذنبها؟! فهو الذي نفخ فيها حُبه ورغبته وماء شهوته. لماذا هذا التحول مع أول خطوات مظاهر حبه على "ثريا" الفاتنة؟! زوجته "شريفة" عندها كل الحق في الثورة على زوج ابنتها.

نظر إلى "شريفة"؛ مازالت عابسة الوجه. همَّ بفتح الحديث معها؛ عسى أن يُذهِبَ عنها مشاكل "ثريا" وغراميات زوجها؛ لم يستطع الحديث، فيكف ما

أعطائها من الوعود بكل هذه الأزيمة. ولم تُحل. حتى زوج شقيقته "جميلة"،
"محمد بك"، كم وعد "شريفة" بإمكانه نسف منازل جيران "ثريا" أصحاب
المعاكسات لزوجها! تهدأ "شريفة" للنسف والقتل
تنفس "لطفی" الصعداء، أخيراً خرجت "شريفة" من الغرفة. لعبت أصابعه
بالمذايع، لم يكف عن البحث من بين المحطات، عسى يجد ما يُذهب عنه
همومه في ابنته "ثريا" وزوجها وامراته "شريفة".

فَجَرَّ نور النهار ظُلْمة الليل. أصوات المشاة في الشارع.
 راجع "لملوم" محتويات سلة الصيد؛ البوصة الهندية القصيرة.
 شقيقه "علي" مازال يغط في النوم. فتح مزلاج الباب بهدوء؛ لا يريد إزعاج
 النائمين بصوت أصحابه، القادمين لاصطحابه برحلة كل يوم: رصيف "قلعة
 قايتباي"، أو كما يسمى "رصيف عم محمود" حارس الرصيف.
 كان "لملوم" يستحي من اصطحاب أصحابه الأشقاء: "سردينة" و"بطاطا"
 و"ممس" لشقيقتهم الكبرى "أحلام"؛ للصيد معهم. فهو مُعجب بثقافتها،
 وتفوقها الدائم في الدراسة، تتحدث بثقة وطلاقة. يظهر كل ذلك بمناقشتها
 لزميل رحلة الصيد "عاصم"، الطالب معها بكلية الهندسة، تسبقه بعام،
 يُنصت لنصائحها في تحصيل المحاضرات والمذاكرة، تعطف عليه "أحلام".
 "عاصم" يقف وراءه من الأشقاء تسعة من الذكور والإناث. كلهم وكلهن
 فتحوا أيديهم وأيديهن للطعام والشراب والملبس ومصاريف التعليم
 والأعياد والأفراح والمناسبات! لا يقدر عليها والد "عاصم"، العامل البسيط.
 فهو بالكاد يكفيهم بالخبز وقليل من الفول والطعمية. وأيضًا توفير بعض
 النقود القليلة؛ لوجبتة المفضلة: الخبز المفتت في إناء الكحول والمياه
 الغازية! يخلو بنفسه، يُغلق باب الحجرة؛ ليتناول هذه الوجبة الشهية!
 يضرب بعرض الحائط أحوال أولاده وتلبية طلباتهم المتواضعة.
 التفت "لملوم" إلى "عاصم"، يجلس على حافة الصخور، مصوبًا (بوصته) إلى
 الماء، ينتظر الفرج. الجميع يعرف أنه يمتلك مفاتيح بوابة النجاح: العزم،

والمثابرة، والتحمل. تفوق بالثانوية العامة. ثم بكلية الهندسة، ولديه إصرار على الالتحاق بالكلية العسكرية بعد التخرج. "عاصم" يتمنى أن تُملأ سلتة، لم يأتِ للتسلية وُصْحبة الرفاق؛ بل لجمع القروش من بيع الأسماك؛ يسد بها حاجة أمه وأسرته المنكوبة بإناء الوالد وفتة مزاجه.

سحب "لملوم" (بوصته)، يتسم لقدوم سمكة البطاطا الكبيرة (البرطوشة) كم يسميها. تبعته "أحلام" تخرج بوصتها بسمكة بطاطا. اقترب شقيقها "سردينة"، لم تتبرم، نصحته بإطالة خيط الصيد إلى عمق أكبر. التفت "لملوم" إلى شقيقهم الثالث "بطاطا". مازال قابلاً على صخرته المفضلة وسط المياه.

نهض "لملوم"؛ فقد حان وقت الرحيل. اقترب من صديقه الكبير "ممس". كان يحترم فكره وسعة أفقه. خطوات قليلة، ويصبح "ممس" مُعيداً بكلية الزراعة. كان في إمكانه تبوأ كليات القمة، الطب والهندسة، مثل شقيقته "أحلام". اختار كلية الزراعة، بعدها استدعاه عميد الكلية، ينصحه بالتحويل إلى كليات القمة. يصر "ممس" على موقفه. كانت إجابته لـ"لملوم" على سؤاله:

- لماذا الزراعة؟!

يأتي الرد الماكر والذكي:

- طلبة الزراعة كلهم من (ترسو) الطلبة، وهذا ما أريده. التفوق عليهم بسهولة والتميز.

انتبه "ملوم" لصوت "أحلام". بدأ الأصدقاء في تصنيف الأسماك والمبادلة.
افترق الأصدقاء. لم ينسَ "ملوم" أن يلتفت إلى نظرات "عاصم" لـ "أحلام"
وهي في طريق العودة مع أشقائها: "ممس" و"سردينة" و"بطاطا".

البحر يكتّم أنفاسه، النجوم تتلألأ في السماء، تحرس شاطئ الأنفوشي بعد زوال النهار.

وَضَع "لطفی" على الرمال حقيبته الخشبية، رأس ماله من مواد دهان الموبيليا: الجملكة والقطن وزجاجة الكحول.

كان يومًا شاقًا عليه، بدايةً من ساعات النهار الأولى حتى هبوط الليل. تهلل وجهه للنقود الورقية نظير عمل هذا اليوم، كانت أكثر مما توقع. قام بتقسيم الغنيمة، جزء لشخصه الكريم، والآخر لحبيبته "شريعة" زوجته أم أولاه. نظر إلى باقي النقود، فهي تكفي بالكاد لتسديد قِسط من (كمبيالة) تجهيز ابنته "ثریا". أَعْرَضَ عن الجلوس في قهوة (أَنَح)؛ الحقيبة تجذب الأنظار، ألوان الصبغة وبقايا المعجون وألوان الدهان، خليط من القذارة المِهْنِيَّة تُثِيرُ اشمئزاز الناظر! حاول مرات أن يغير شكلها العفن، لم يُوفِّق، نُصِرَ على مشاركة أصابع كفيه المدمغة بالجملكة وخليط الصبغة ورائحة الكحول!

أشاح بوجهه عن مياه الشاطئ الهادئ. عليه هو الآخر أن يهدأ من عذاب التلميع وأصابعه المشوهة. لم يلتفت يمينًا أو يسارًا. مازال قلبه ووجدانه موصولًا بمنزله القديم ونوافذ شقته. تذكر أيامه مع حبيبته "شريعة"، ومُتَمَتِّعته الحرام مع جارتة اللعوب. هل مازالت تصطاد الرجال وتتمتع معهم؟ أم خمدت عواطف حبها الجنسي بعد تواتر ولادتها؟! ابتسامته الساخرة تملأ وجهه؛ أولادها على كل نوع وشكل، لا أحد يشبه الآخر، يحملون ملامح أهم اللعوب! زوجها التائه الغائب عن عواطفها، لا يشبهه

أحد من أولاده! الكل نتاج حب الشارع الممتلئ بما تهوى؛ لإشباع رغبتها.
لم يرفع عينه عن نوافذ اللعوب، يتمنى أن يراها ولو مرة واحدة - كما في
الماضي - عارية تتمايل بإظهار مفاتها عبر النافذة الليلية.
هبطت طموحاته لنافذة شقته القديمة، أسفل شقة اللعوب. نوافذ مغلقة، لا
أنوار ولا حياة، أين امرأته "شريفة"؟ وجهها خلف قضبان النافذة تنتظر
حضوره! لم يشعر بخطواته أمام النافذة. تلاشت حبيبته "شريفة" خلف
النافذة. ظلام يشع من خلفها. يضيء إليه خطوات عودته إلى منزله الجديد.

قرص الشمس في طريق الزوال. مظلات الشاطئ تتساقط على الأرض، بعدد زوار بحر الأنفوشي، يتناقصون مع الدقائق الباقية من غياب الشمس. أمواج البحر تسترد هدوءها، عكس نظرات شباب بحري؛ يقدّرون هذا الوقت ويحسبون حسابه. ميعاد خلع ملابس الاستحمام، ومشاهدة اللحم الممنوع من اللمس. اللحم الأبيض، الحمري، الأحمر، والأسمر. يتربصون خلف أكشاك خلع الملابس، يشاهدون ما يقصه الرقيب من شريط الشاطئ. أصحاب "الملوم" ينتشرون، موزعين أنفسهم مع عدد الأكشاك، لا يختلفون وبدون عراق. الجميع يعرف مكانه وينتظر نصيبه من اللحم المخبأ بين الكستور والعبك والحرير والملاءة اللف.

كانت عين "الملوم" تراقب جسمًا ملفوفًا أبهره. أغلقت الفتاة باب الكشك الخشبي. اطمأن للمشهد الممتع والمُشيع لنظرته الثاقبة والحادة. ابتسم لحيرتها؛ الباب الخشبي القصير، بالكاد يستر نصف جسدها؛ ما كان عليها إلا أن تجلس القرفصاء. انتفخ أنف "الملوم" مع انتفاخ جسده. كان عليه بالهبوط الاضطراري على الرمال. منظر اللحم الأبيض بما يحتوي في ثناياه! ذهب ورحل كل ما حوله! يُشاهد دنيا أخرى! لم تدر الفتاة بما يسترها من جدران ناقصة أعلى وأسفل.

أعجب "الملوم" بهذه الستارة الربانية السوداء. تحجب الكثير عن عينه، ما يُحب أن يراه واضحًا وضوح الشمس فوق سطح المياه. لم يتبرم منها، يعرف متى زوال هذه الستارة السوداء في ليلة بيضاء، يوم زفافها وعذابها السعيد

بقطعة حلوى السكر والليمون. تُصبح جسداً مرمرياً أبيض ناصع التوهج
واللمعان؛ لا ينتظر غير أن يؤكل من كل اتجاه.
صرف "الملوم" نظراته، توقف عن التلذذ. يقترب منه موكب عمته "جميلة"
وأولادها. اعتدل في جلسته، الآن يأتي سؤال كل عام:
- أخبار نتيجة الدراسة؟
- لم تظهر بعد.
سار موكب عمته، وصار هو خلف جسده الأبيض الناعم.

جدار الحائط، مُزين بالخيال، لا تحمل أعلامًا ولا تحمل مصابيح، تُضاء في عز النهار، مشابك خشبية تتدلى منها مصابيح من نوع آخر؛ أخبار وأحوال العالم؛ جرائد ومجلات: أهرام. أخبار. جمهورية. سمير وميكي. روايات أجاثا كريستي. أرسين لوين. روايات الجيب. كتاب الهلال.

"عم علي" يتربع بالكشك الخشي، رسول الأخبار والثقافة بزواية خطاب وفُرن حبيب ورأس التين. لم يتبرم يومًا من إطلاع المارة على الصحف المعلقة، لا يزعجه ولا يخرج من هدوءه إلا لمس الأصابع للجرائد المعلقة. أبرزها، أصابع "ملوم" وأصحابه؛ تتلصص في غفلة من "عم علي"، وتقلب الصفحات. لم يفلت "ملوم" وأصحابه من تكرار إنذار "عم علي" لهم عن اللمس والقلب والفتح. نفذ صبره معهم، وكان الإنذار الأخير بعدم الوقوف أمام مصابيح ثقافته وأخباره.

التف الأصحاب حول زعيمهم وأكبرهم تعليمًا وثقافة. "ممس" شقيق "أحلام". عَقَدَ تكافلًا ثقافيًّا: "عاصم" و"ملوم" و"عز" و"عبيد"، الدور الأول في الشراء. "سردينة" و"بطاطا" و"ممس" و"النحاس" الدور الثاني؛ لشراء العدد الأسبوعي من الأهرام الساخن، مقال هيكِل: "بصراحة".

لم يدم الأمر كثيرًا. جاءت محطة فراق الأحبة؛ (النكسة)؛ معارضو الزعيم عبد الناصر: "ممس" مُعيد الزراعة، "عاصم" هندسة. "ملوم" تجارة. أمام مؤيدي الزعيم: "عز" تجارة، "عبيد" فاشل الثانوية، "سردينة" الثانوي. "بطاطا" لم يفصح عن موقفه، يُكرر كلمته: انتظار ما يحدث في الأيام القادمة،

فالأحداث على أشدها، حرب 1967م، والإطاحة بتاج الزعيم وتتويجه تاج النكسة!

توقف "الملوم" عن تكملة "بصراحة" لهيكل. نهض من بين أصدقائه على درجات سلم زميلهم "النحاس". أراد أن تكون هذه اللحظة الفاصلة. صعد أعلى درجات السلم، مزق "بصراحة"، قذفها في وجهه أصدقائه، أمرهم بالإنصات:

- بيانات حرب النكسة: أسقطنا ثلاثين طائرة، النصر يا عرب. أسقطنا ستون طائرة، النصر يا عرب. اقتربنا من "تل أبيب"، النصر يا عرب.

رقص "ممس"، و"عاصم" يلطم على خده ويضرب على رأسه. كان هناك صمت من "عبيد" وسردينة و"عز"، بعد أن بُحَّ صوتهم:

- الزعيم عبد الناصر لم يقصد هزيمة الأمة.

زحزحوا تاج النكسة إلى رأس المشير عامر، لم يفلحوا. انتفش "الملوم"، الآن يكمل حديثه:

- عبد الناصر علمنا بالمدارس المجانية. نعم، "ممس" مُعيد بكلية الزراعة، "عاصم" أنهى الهندسة، سيلتحق بالكلية العسكرية. كلنا أخذنا حظنا من ثورة الضباط الأحرار، الأسر بدأت تشعر بكثير من الخير. جمعيات استهلاكية، لا احتكار للسلع. مساكن شعبية تُقام مكان الخرابات

والعِشش والأكشاك، كل هذا لا يكفٍ ولا يستر عورتنا بنكسة 67. نحن الآن أمام...

توقف "لملوم" عن الحديث، تنحى الأصدقاء على جانبي السلم في حياء؛ شقيقة صديقهم "النحاس"، ست البنات؛ تصعد درجات السلم في دلال، ضاربة بعرض الحائط نظرات شقيقها. لم يتابع "لملوم" ست البنات. تابع نظرات صاحبه المُعيد "ممس" لها، بادلته نظرتها الحانية الملتهبة بنيران الحب. كان على "لملوم" لفت انتباه شقيقها "النحاس" وأصحابه؛ حتى انتهاء "ممس" من نظراته الملتهبة إلى حبيبته ست البنات. فجّر "لملوم" سؤاله:

- النكسة لم تأت مع موجة بحر ولا فوق سحابة. النكسة كانت منذ سنوات، تتذكرون أحداثها؟ سأذكركم بها...

قاطعه صاحبه "عبيد":

- أخبرنا يا أستاذ التاريخ. أخبرنا يا عبقرى.

انتفض "ممس" بعد أن متع نظره من حبيبته ست البنات، بعد اختفائها على درجات السلم:

- أكمل يا أستاذ. أكمل. احكي يا شهرزاد.

أشار "عاصم":

- أكمل يا أستاذ "لملوم"، أمتعنا يا سيدي أمتعنا.

صعد "لملوم" أعلى درجات السلم. انتعش أنفه برائحة عطر ست البنات:

- أنا أحكي لكم بصدق، عن رجل يُلامسني كل يوم، عام دراسي كامل. أستاذ، مثال الاستقامة والأدب والعلم. كنت أراقبه في تصرفاته. تذكرة الترام. الصغيرة، الصغيرة. هل تدرون ماذا كان يفعل بها؟! يهبط من الترام، يبحث عن صندوق القمامة حتى يجده. يسير خطوات بعيدة ليلقي بها في أول صندوق قمامة يُقابله. دائماً حامل للمصحف الشريف وكتب الدين. كانت هي سر نهايته واعتقاله خمسة عشر عاماً سجنًا؛ جنايته وإثمه هذه الكتب وهؤلاء الناس! كنت أحبه لأخلاقه وإخلاصه بعمله.

توقف "الملوم" عن الحديث، هبط درجات السلم. لم يقدر أن يُكمل كلامه بسجن واعتقال مفكرين وعلماء، سُجن مَنْ سُجن، وأُعدم مَنْ أُعدم. جلس يُريح وجدانه وعقله من عناء الأحداث وسردها على أصحابه. لا يستطيع الإفصاح أكثر من ذلك بأن هذه الأحداث كانت البوابة الواسعة لنكسة 67، وما تلاها من نكسات لشعب مصر المحروسة. كل أبنائها يلبسون تاج النكسة في الداخل، وخارج مصر أصعب وأشد. ربت "ممس" على رأس "الملوم". التف حوله أصحابه. همس "الملوم":

- الآن سنبدأ خطوات إحياء الفكر الذي كان في سبيله إلى الزوال.

الشمس في طريق الرحيل. مياه البحر تخلع رداؤها الفيروزي، تتوشح بالسواد. مازالت صنارة "الملوم" في الماء تتحدى الرحيل والسواد. تصبر بعدم قطع شهوة سمكة البطاطا، المفتونة بخصلات خضرة الصخور، يجمعها "الملوم" من غير عناء أو دفع نقود. أخيراً، اهتز خيط الصيد، صعدت سمكة البطاطا تتراقص برقصات الموت وتساقط دماءها الحمراء. صيد بلا رحمة. الشليح الهلب المُدبب بثلاث سنارات كبيرة الحجم، كافية لالتقاط السمكة من أعماق البحر. ليست لها وجهة محددة، من الفم، ذيلها، بطنها، جسد السمكة متاح لشليح السنار. الآن عليه العودة، وجبة العشاء جاهزة.

اقترب من المنزل، لم يشاهد أحداً بالنافذة. تذكر، هذا ميعاد عودة والده من ورشة بعد الظهر. هرول إلى الداخل، لم يبحث عن والده، توجه إلى المطبخ. كان ما توقع؛ أمه "شريفة" تعد طعام العشاء. رائحة الفول المدمس المدعم بفصوص الثوم وقطع الطماطم تملأ المكان، لم يتبرم "الملوم" من اللحاق بأمه؛ لعمل وجبة البطاطا، حبيبة والده، الذي يُنقذه من عتاب أمه المتكرر والمتراكم في أذنيه:

- يا بني لا يوجد في البحر غير سمكة البطاطا؟! ألا يوجد سمك آخر حتى ولو قراميط؟!

ما كان على "الملوم" إلا أن يضحك من هذا الحوار المُعيب لصيده وسمكة البطاطا في آن. حاول مراراً توضيح الأمر:

- سمكة البطاطا لا تكلفني شيئاً من النقود. سمكة قانعة بخُضرة صخور البحر.

انسحب بهدوء من أمام أمه. عليه الإسراع إلى جارهم بائع الخضروات، عساه يشتري هذه الوجبة الشهية.

اكتئاب وحزن مع صمت الخطوات. اكتئاب لا يقدر أكابر المخرجين في تمثيله. تضيء السيارات أنوارها في عزّ النهار، شرطي المرور يفتح أنواره الخضراء. جنازة مهيبة، يصحبها المودعين، أهل حارة "شريفة"، الشباب الصاعد مع هبوط ثورة 23 يوليو. "ملوم" وأصحابه يودعون هذا الجثمان. جثة محشورة في التابوت الضيق، مثلما كان في الدنيا، حشرته امرأته بين أمرين لا ثالث لهما: ورشة الأحذية، والعودة آخر النهار إلى البيت. لم يُرفع عنه حظر العودة إلى بيته في وسط النهار! ليس له الحق في نهار بيته إلا يوم الأحد! العطلة الأسبوعية، من فراشه إلى الحمام، ثم العودة للفراش، ثم العودة إلى الحمام، ثم إلى الفراش!

"ملوم" وأمه "شريفة" يعرفان بدقة تفاصيل هذا اليوم. "ملوم" يراقب من الحمام وأمه تراقب من منور البيت. "ملوم" يعلم بمراقبة أمه، وأمه لا تعرف بمراقبته لها.

سكون المقابر أبدي، سكون المودعين جبري. التف المودعين حول الجثمان لحظة هبوطه بالقبر، ارتفعت الأكف إلى السماء مع الدعاء، لا أحد يتكاسل في بحّ صوته في هذا الموقف. الجميع يعرف - لا محالة - بدخوله في هذه الحفرة.

تنحى "مللوم" وأصدقاؤه من البج ورفع الألف. نظراتهم تتحدث بلغة أمه "شرففة". "عاصم" ينظر إلى "مللوم"، و"ممس" ينظر إلى "عبيد"، وابتسامة "النحاس" تكاد تفضحه.

انسحب الأصدقاء مودعين المودعين لجثمان جارهم. اقترب الأصحاب من بوابة المدافن. امرأة المتوفى تتوشح بالسواد، لم يتعجب "مللوم" من غياب النساء من حولها - كما هو المعتاد - بالمواساة، هُن يُخرجن حزنهن في هذا اليوم وبهذه الساعة، هذه تولول على حظها الأسود مع زوجها وتعاستها! وهذه تولول على كبس حماتها على نَفْسِها ونفس (اللي خلفوها)! وأخرى تولول على أخ وأم وحبیب، تركها وتركته وحيدًا. كلهن غائبات عن هذه المرأة. الآن يُكشف عنها حجاب زوجها المتوفى، لا حماية لها من السنة الجيران. ستروى مغامراتها مع زائر شقتها كل يوم إلا يوم الأحد.

منجد الشارع، يضرب القطن في صباح كل يوم، يصعد مع هبوط زوجها، يضربها هي الأخرى. جحظت عيناه من كثرة الضرب، يتساوى الاثنان في الفرفة، هي، والقطن! ابتسم "مللوم"، الآن ستُشبع أمه "شرففة" شهوتها من حكاوي المنجد وصعود كل يوم.

كل شيء يهتز، أشجار النخيل العالية ترتجف وتهتز. تنحني مع أقدار مصر،
تُعانق المخدوعين بعظمة قادتها ورُودها، المرتجفون مع مصائب تلتهم آمال
شعب مصر وأمنياتها! كانت طعنات "أحمد سعيد" بالمذراع: أسقطنا ثلاثين
طائرة، ثم الستين، جيش مصر العظيم. كلمات صلاح جاهين، وصوت
العندليب الأسمر تلعب بعقول وقلوب شباب مصر. تهبط المصيبة، سقوط
المارد الأسمر، الزعيم القائد المُلهم!

- آه يا شعب مصر الحزين!

همس بها "لطفی" على كورنيش البحر. لم يبال بسقوط الأمطار، لم تغمر
ملابسه بعد، كان مُصرّاً على السير بخطوات واثقة إلى الأمام، خطوات الأمل
بعد نكسة 67، البوابة الحتمية لمقادير مصر للخروج من كبوة الهزيمة!
أشعلت عواطف الحنو ومد أيادي المعاونة لشعب مصر. هرم مصر الكبير:
"أم كلثوم" قائدة المسيرة في تبرعات المجهود الحربي! مجتمع الخليج العربي
بأكمله يتعاط بسخاء معها.

اشتد هطول الأمطار. عبر "لطفی" رصيف البحر. نظر إلى الزعيم "سعد
زغلول" مجسده النحاسي، لم يغير وجهته، مازال مُصرّاً على شموخ الزعماء.
نظرة الاحتقار تملأ عينيه أمام المارد الأسمر، وفراره من الهزيمة والنكسة،
بالتنحي! انتبه "لطفی"، سيارة تُتابعه! مفاجأة من العيار الثقيل؛ صاحبه
ونزيل عنبره، جامد الملامح، بنظارته السوداء! لم يتراجع "لطفی"، حشر

جسده في المقعد الخلفي. لم يكتفِ بذلك، وَضع ساقاً على الساق الأخرى، جلسة الباشاوات وأصحاب السُلطة.

نظر إليه صاحبه، اختلطت ضحكاته مع ضحكات صاحبه، أمره "لطفی" بالذهاب إلى "قلعة قايتباي". طأطأ صاحب السواد بالموافقة، لم ينبس بكلمة واحدة. توقف هطول الأمطار مع توقف ضحكات "لطفی" وصاحبه ووقوف السيارة أمام "قلعة قايتباي". هبط "لطفی" من السيارة. لم يتابعه صاحبه، مكث في السيارة.

صعد "لطفی" فوق صخرة عالية تؤانس أسوار القلعة العالية. تذكر أيام اللوثة على درجات مسجد "المرسي أبو العباس"، وخطبته الخالدة بين الشحاذين، وقفزه بين أمواج البحر، ولقاءه مع صاحب النظارة السوداء بمستشفى الأمراض العصبية زميل عنبره.

الآن عليه الخطابة مرة أخرى، دون القذف بنفسه في مياه البحر، ولا عودة لمستشفى المجانين. التفت إلى صاحبه ونظارته السوداء، اطمأن، مازال مُتابعاً لخطواته فوق الصخرة. أخرج "لطفی" كسرة الخبز من بنطاله، قضم منها قطعة كبيرة، مضغها في عجلة، أشار بيده إلى القلعة، بدأ خطابه السرمدی:

- هنا تاريخ مصر المحروسة، انظروا إلى أسوار القلعة، عالية مرتفعة شاهقة الارتفاع! لماذا؟ لماذا عالية هكذا؟! لماذا هي عالية هكذا؟!

كانت صرخاته عالية وقوية. انتبه إلى تجمع الحلق أمامه من أجنب وعرب. حاول أن يُمزق قميصه، كما فعل على درجات مسجد "المرسي أبو العباس". فشل؛ امرأته "شريفة" حريصة على ملابسه من متانة، لا ينفع معها شد وجذب، لا تقطيع ولا تمزيق. كان في حالة رضا بإنصات من حوله ومُتابعة صاحبه له من السيارة. التفت إلى امرأة تنظر إليه بإعجاب. لم يُعجب بجسدها النحيل وخصلات شعرها الصفراء وعيونها الخضراء. أُعجب بزميلتها، الجسد الأبيض الغض، واحمراره التفاحي، لعبت أصابعه إليها!

- محمد علي باشا، قضى على المماليك في مثل هذه القلعة. وهذه القلعة مثلها تمامًا، قبيحة عفنة. لا تغتروا بأسوارها العالية، لم تدافع عن أهلها إلا قليلاً، أما الكثير من عمرها، ذهب إلى أهلها. انظروا إلى زنازين التعذيب والعذاب بداخلها، هل شاهدتم حجرة الخابور؟ يخترق المظلوم من أسفله ويصعد من أعلاه!

قاطع أحد المستمعين المُستمعين بحديثه:

- لم نشاهد ما تتحدث عنه، تجولنا بها، لم نرَ خابورًا ولا زنازين، ولا حتى مساجين!

علت ضحكات "لطفی" في عنان السماء. التفت إلى المُقاطع المخدوع بعظمة القلعة وعلو أسوارها:

- هذا غير صحيح. "محمد علي" استغل قلعته في المذبحة. الآن، وحتى هذه الساعة، مائدة المذابح مُقامة من ذبح وقتل، وأزيد: من تعذيب واعتقال. وأزيد: من حبس. ذبح للكرامة، وقتل من يُعارض، وتعذيب من تراوده حتى الفكرة. الفكرة يا سادة. حَجِّمُوا عقولنا، وقطعوا ألسنتنا. أنا "لطفي" صاحب كسرة الخبز، زميل كوب الشاي، حبيب فراشي الخشن، رضيت برزقي القليل. وامرأتي "شريفة"، وأبنائي: "ثريا" و"علي" و"الملوم"، قنعت بانقلاب الضباط المُسمَّين بالأحرار! بنوا السد، رَوَّوا أراضي الفقر، بعد أن كادت تجف! زاد الفقر، وزادت فروعه، وكبرت أنيابه. كان ملكًا واحدًا. أصبح الأحرار ملوكًا، ينتشرون في الأرض ويعثون فسادًا. "محمد علي" قتل الممالك، المارد ذبح الشعب كله! أسقط مصر كلها! استنوق المارد! أصبح ناقة! أصحابه، سكنوا في أحضان فائنات السينما والغناء، هدموا الأهرامات الثلاثة! الاتحاد والنظام والعمل. ذبحوا شعبًا بأكمله، وأنا من هذا الشعب المذبوح.. أنظروا إلى تلك السيارة وذاك الرجل..

أشار على صاحبه، بنظارته السوداء وجمود ملامحه:

- هذا الرجل، صاحب العين الواحدة؛ إنه صاحبي وزميل عنبري، نجا بنفسه، تنازل عن مبادئه، ارتقى في حضن السلطة! لا يدري أنه يُذبح! أصبح قطعة شطرنج! انتقل من مربع المظلوم إلى مربع الظالم. كان يُجلد، الآن صار جلاّدًا؛ سيارة ورتاسة! هذا صاحبي ونزيل عنبري.

لم يصبر صاحبه في السيارة أكثر من ذلك، رحل في سيارته بهدوء، ومشاهدته لصاحبه يُحمل في السيارة "الفورد" السوداء! لم يهتز "لظفي" لليد القوية تسحبه من قفاه داخل السيارة. كان يثق بأن صاحبه ونزيل عنبره، صاحب النظارة السوداء، جامد الملامح، ذو العين الواحدة، سيخرجه صباحًا.

قَطَعَ الزجاج تنطلق كطلقات المدفع، الأسلحة البيضاء (قرن الغزال) تسطع في سماء المعركة. "أم حربي" بائعة الحشيش تخلع عباءتها، كما خلعت أنوثتها من زمانٍ فائت. المعركة على أشدها، سرية "أم حربي": أولاهها وبناتها، يقذفون القوارير دون تمييز بين الفارغة والممتلئة!

لم تفرغ "شريفة" من هذا المشهد. تنظر من خلف (شيش) النافذة الخشبي. لم تتحرك من مكانها، رغم الدقات على باب الشقة، فهي تعرف مراسم تلك المعارك؛ عدم الفتح لأيّ مَنْ كان. هذه تعليمات "أم حربي" صاحبة المزاج العالي كل صباح بمنزل "شريفة".

تلاشت الدقات على الباب، لم تهتم بمن الطارق، هرولت "شريفة" إلى المطبخ. رائحة (شياط) الأرز تملأ الحجرات، لا مانع من إنضاج أرز جديد. قامت بمتابعة مشهد المعركة من خلف النافذة؛ عربة الإسعاف تحمل جثامين المصابين من تحت الأرصفة وفوقها! أصبح الشارع هادئاً من الأصوات ومن المارة. أغلقت النافذة.

لم تهناً بالاستراحة؛ الطرق على الباب يعود. الآن عليها الفتح. "ملوم" يقفز إلى الداخل، لم يفلح في إخفاء ما بيده؛ كشف عن مدية (قرن الغزال) صديقة "أم حربي" في تقطيع المزاج الحشيش!

همس "ملوم" بخوف من أمه "شريفة":

- مدية "أم حربي" وقعت منها وهي تصعد عربة الشرطة، أخذتها دون أن يراني أحد.

فهمت "شريفة" موقف "أم حري". الآن هي نزيلة الحبس والنيابة والمباحث. لم تترك "شريفة" يد ابنها؛ أخذت تتشمم يده؛ عسى أن يكون بها بقايا قطع الحشيش، خاب ظنها، المدية بها بقع من الدم الجاف! أسرعمت متتابعة وعاء الأرز قبل حرقه مرة أخرى. استغل "ملوم" ذهابها؛ اختفى بالغرفة الأخرى قبل أن تنهال عليه أمه مُستفسرة عن أخبار "أم حري" ومديتها. اطمأنت "شريفة" من إعداد وجبة الغداء والعشاء، عليها العودة بجانب النافذة في انتظار "لطي" وابنها "علي".

مر الوقت ولم يأت إلا "علي". اجتمع الثلاثة: "شريفة" وولداها: "ملوم" و"علي"، حول المائدة دون "لطي". حاولت بقدر استطاعتها الظهور أمام ولديها بأنها غير قلقة على أبيهم. تناول الثلاثة الطعام في صمت. لم تنس "شريفة" استكمال مراسم تناول الطعام، كما علمها زوجها. أكواب الشاي، فاكهة الفقير!

هجم الليل مُحملاً بهواجس غياب زوجها، لم تفصح لأولادها عن مدى التوتر بغياب زوجها. لم يتأخر بالخارج حتى هذا الوقت! إلا إذا كان هناك عمل يؤديه. لعبت بها الهواجس:

- هل جاءت له لوثة السقوط بمياه البحر؟ هل عاوده الحنين لمستشفى الأمراض العصبية؟

لم تقدر على كبح جماح هواجسها، بل زادت في طريق آخر:

- امرأة أخرى؟! أم الحنين إلى بيت العاهرات؟ نعم، بيوت العاهرات قريبة منه. السكة الجديدة، وما تحوي من الحمراء والصفراء والسمراء. الصغيرات والكبيرات في آن!

كم حكّت لها "أم حربي" عنهن، فهُنَّ زبائنُها للمزاج العالي من الحشيش. التفتت إلى ولديها؛ النوم هجم عليهما، كما هجمت الهواجس عليها. الساعة تقترب من العاشرة مساءً، جلست بجانب النافذة؛ عسى مشاهدتها لعودة "لطفی".

مر الوقت، لم يحضر، وما زالت هي جاحظة عينيها تترقب عودته. لم تدفعها العواطف لهذا الانتظار، ولم يتحرك قلبها حبًّا في عودته، كانت تحركها دوافع المسؤولية؛ إن غاب عنها زوجها مرة ثانية. نعم، ولديها اشتد عودهما، وأصبحا في أول مراحل تحمّل المسؤولية ومواجهة الحياة، حتى إن غاب كل منهما، هي وزوجها.

انتبهت لطرق على الباب، هرولت بالفتح. الطارق: "حربي" كبير أولاد بائعة الحشيش. كانت تعرفه من خلال حديثه مع أمه عبر النافذة مع جلستها اليومية في الصباح. وقع عليها الخبر وقع الصاعقة!

- "لطفی" نزيل سجن مديرية الأمن، بتهمة محاولة إثارة الفتنة بين السلطة والشعب، والتحريض على تشويه صورة الضباط الأحرار والثورة!

لم يعط "حربي" فرصة لـ"شريعة" لتعرف الكثير من التفاصيل عن حالة "لطفي". غير أن "أم حربي" قابضة معه بمديرية الأمن! أغلقت "شريعة" الباب، هرولت إلى دورة المياه، لم تقدر على صد سيل المياه من بين فخذيها!

الانتظار، ما أشد قسوته، وما أطول ساعاته، بل أيامه ولياليه.
تجاوز غياب "لطفی" أكثر من شهر. لم ترحم "شریفة" صاحب زوجها جامد الملامح، صاحب النظارة السوداء، من الدعاء عليه ليلاً ونهاراً. هو مُنقذ زوجها بالماضي، أين هو الآن؟! ظلت تبحث عن مكان صاحبه ورقم هاتفه داخل بناطيله، حتى وجدت بغيتها: رقم هاتفه.

لم تتوقع إهمال صاحب النظارة السوداء باتصالها به! تُخبره بحالة زوجها والقبض عليه. لم تكن تعلم بعلمه بالقبض على "لطفی" وتركه بين أيدي رجال المباحث، إلا حين الاتصال به مرة أخرى بعد مرور الأيام، لم يرد على الهاتف صاحب زوجها، بل رجل آخر، يُخبرها بمعرفة صاحب زوجها، بل ومشاهدته له وهو يصعد في عربة المباحث والعرض على الأمن.

كان عليها الاستمرار والإصرار على مقابلة جامد الملامح صاحب النظارة السوداء. الآن، وفي ساعات الصباح الأولى، تقف تنتظره أمام مبنى الأمن، كل مَنْ يمر يُسرّع وتهتز قدماه، حتى يعبر هذا المبنى (الأسود على رأسه ورأس مَنْ بداخله). عبارة زوجها "لطفی"، كان يُردها دائماً عند حديثه عن السياسة وعصاة السلطة، عمالقة التنكيل، والتعذيب والتشريد، والإقصاء والموت.

ارتعشت أطرافها، دارت بها الأرض. قادم نحوها رجل من رجال الحراسة، لم تتراجع، بل سارت هي أيضاً نحوه. همست له:
- أريد عبد الجبار بك، أنا قريبتك وأنتظر مقابلته.

سحبها الرجل من يدها دون استئذان! لم يتفوه بكلمة واحدة! سحبها رجل آخر، عبر بها الممر الضيق المظلم، لم تستطع تفحص ما حولها. جلست على الدكة الخشبية السوداء. كانت تظن أنها اقتربت من بغيتها ورجلها المنتظر، وعليها الانتظار.

طال انتظارها، لم ترَ أية بادرة توجي باقتراب المقابلة! بل لم ترَ صاحب زوجها! لعبت التساؤلات في رأسها! لم ترَ يدخل المبنى منذ الصباح: هل لم يحضر اليوم؟ هل في إجازة؟ وهل ستطول؟ أم هو لم يبرح المبنى الأسود على رأسهم ورأس (الي خلفوهم)؟! آه يا "لظفي"! مازلت تنعم بتعذيبي مع (الي يسوى والي مايساويش). آه يا "لظفي"! (الله يخرب بيتك وييت الي خلفوك).

شلال الماء ينتوي المرور بين فخذيها. لا تقدر على صده أكثر من ذلك، لم تبال؛ فالدكة خشبية، ستتسلل المياه إلى الأرض، لن يراها أحد، ولن يشعر جالس آخر بها. عضت على شفتيها: - لكن ما العمل في الراحة؟!

كتمت أنفاسها. ما أروع رمال الشاطئ؛ تُخفي كل شيء في ثوان. مر أكثر من ساعتين، ولم يظهر صاحب النظارة السوداء. هل تنسحب في هدوء وتفر من هذه المقابلة؟ أم تظل هكذا في الانتظار؟ ارتبكت! رجل المباحث يتجه نحوها! ظلت ساكنة، سكون الموقى. هل جاء لطردها من هذا المكان الأسود مثل صاحب زوجها؟

لم يقترب منها، أشار إليها باتباعه. خطوات ثقيلة، هدوء اتباع الجنائز! توقف الرجل. الآن هي في مواجهة الباب المغلق! لم يدق الرجل على الباب أكثر من دقة واحدة. انسحب بعد أن أغلق الباب عليها، أخيراً في مواجهة المجهول، لم تستطع الجلوس على المقعد. سيفضح بللها!

كانت المفاجأة؛ رجل آخر غير صاحب النظارة السوداء يفتح باب المكتب! اهتزت أردافها، جمال لم تعهده من قبل! وسامة شاربه الأسود مثل حد السيف! يهزم أيتها امرأة، مهما فاق جمالها ودلالها. لم تستطع الوقوف أكثر من ذلك أمام هذا الجمال! كانت ابتسامته تعرفها "شريفة"، تفك طلاسماها، زميلة ابتسامه "الحاج نجاتي" صاحب المصبغة! تمتلئ شهوة ورغبة في عمل المستحيل! همست:

- هل من الممكن أن يتم المستحيل؟!

دارت الأرض، تمتعت بدورانها، لم تشعر باللذة أجمل من ذلك! طلبت المزيد من الدوران، الدنيا كلها تدور بها، وهي راغبة في هذا الدوران!

الصمت يجلجل في ردهات صالة سينما رأس التين، الجالسون ينتظرون نهاية البطل، الحزن يملأ العيون، الجميع في صمت، إلا واحد؛ كانت يده تعبت بصدر حبيبته الخرساء! هي تصمت مع صمت بعثرة يد "لملوم"!

تفر دائماً من بين المقاعد لتستقر بجانب حبيبها الأبيض الناصع البياض "لملوم"، لا يجروء أحد على الاقتراب منها أو قطع عبث "لملوم" معها، رواد السينما يعرفون عواقب هذا القطع؛ من صراخ ومأمة. كما يعرفون ماذا ألم بها من عذاب حبها القديم، الذي أدى إلى نهايتها بهذا الخرس وفقدان صوتها. تسمع جيداً، تزين كأجمل عروس، ترتدي أفخر وأحلا الثياب، يختبئ فيه جسد مرمرى ينافس أجمل الجميلات، هي "فينوس" الخرساء. تطمئن مع "لملوم" وتجلس معه، ولا مانع من عبث يده بصدرها. أنهى "لملوم" العبث، ولم يصبر على نهاية الفيلم، تركها، خرج من السينما، لم يلتفت إليها.

مشهد اختفاء أمه "شريفة" قبل عودة أبوه "لطفى" المختفي بعدة أيام. عاد والده، لتختفي أمه!

التفت إلى مقهى "أنح"؛ "لطفى" غير موجود بالمقهى، اطمئن. عبر الترام، لم يجلس جلسته المفضلة على رصيف الكورنيش، افترش رمال الشاطئ. أمواج البحر البيضاء مع ظلمة الليل الحالكة لم تنجح في أن يعبر "لملوم" من مصيبة غياب أمه وصمت والده! حاول بكل ما يستطيع اختراق رأس "لطفى"، لكن لا محالة، فهي مغلقة، موصدة بأفقال الدنيا كلها، لا سبيل

للوصول إليها أو كشف ما تحوي. نعم رائحة الفقر، وذل الأيام، وصفعات الشمس المحرقة، وأتربة السعي هنا وهناك تكسوها منذ سنين طويلة، لكن لا يعرف ولا يقرأ ما بداخل هذه الرأس المزينة بالتجاعيد وفي وجه أصبح في طريقه إلى الزوال.

كم حاول "ملوم" استدراج والده في التفوه ولو بكلمات قصيرة عن غياب أمه "شريعة"! كان يفشل، ينسحب ويتوارى بالهزيمة. يتخبط بمجدران الغرف، حتى يصل إلى مخدعه الصغير، يهبط إليه.

انتبه ليد تربت على كتفه؛ فينوس الخرساء، أضاءت الأرض والسماء. هدأ بين لحظات الحب. غابت الأمواج وغاب بياضها الفائر أمام فينوس وبياضها المرمرى! لم يتردد في سؤالها ولم يصبر، أطلق سؤاله إلى حبيبته:

- أين اختفت أمي "شريعة"؟

لم تلتفت إليه، أسرعت بالابتعاد عنه، لم يتابع "ملوم" رحليها المفاجئ! توارت خلف كبائن الشاطئ. عادت إليه أحزانه المتواترة بفراق أمه، ثم الآن فراق حبيبته فينوس الخرساء. لم يبرح رمال الشاطئ، أراح جسده المتعب على الرمال. السماء سوداء، لا نجوم ولا قمر ولا فينوس تضيء المكان. الرمال سوداء. أغمض عينيه، عسى أن تذهب هذا الظلمة وهذا السواد عنه.

لم يشعر كم مر عليه من الوقت، كان مُصرّاً على غلق عينيه. هبت عليه رائحة يكرهها، ولا يريد أن يضع نافتها بين أصابعه؛ لفافة التبغ! حبيبته فينوس تقف أمامه، ذاب مع بسمتها الساحرة. لم يلتفت لرائحة الدخان،

يُريد أن يُمتع عينيه بعد هذا السواد بفينوس الساحرة. أشارت إليه، نظر خلفه؛ "السيد النجرو"، كبير عصابات بحري، صاحب النظرات الحادة، شوارع وحارات تملأ وجهه، جسده النحيل يخدع كل مَنْ يريد أن يُنازله، يلعب بالسيف الحاد اللامع بين أصابعه كما يلعب التلميذ بالقلم! اعتدل "ملوم"، مفاجأة جعلته لا يقدر أن يفك طلاسمها! ومع مَنْ؟ حبيبته الخرساء! هل فرت للشكوى من حبه إليها؟! ارتخت أعصابه؛ "النجرو" جاء ليقدم له العون في البحث عن سر اختفاء أمه "شريعة".

كانت فينوس تراقب نظرات "ملوم" و"النجرو"، أطلقت بسمتها الملائكية بعد أن ختم "ملوم" حديثه بوجود "شريعة" عند خالتها بطنطا، كما يعرف أهل الحارة. لم يعترض "النجرو" على تلك الملحوظة. تابع مع حبيبته الخرساء ذهاب "شقي الحقة متوارياً بين الكبائن.

أكمل جلسته على الرمال مع فينوس حبه. عادت أمواج البحر البيضاء، أضاءت النجوم السماء، واكتملت بنور القمر.

عينان زائغتان، دوامات السهر تملأ حدقتها، لم تقدر على وقف الحجاب من الارتعاش، لا تستطع السيطرة على توتر أعصابها!

مقهى القاهرة يمتلأ بأهل مصر. لم تشعر أنها في بيروت، تناولت الكثير من القهوة. لا فائدة، عليها الصبر بإنهاء الأيام الباقية لها في بيروت. لم تدرب أن حب رجل الأمن سيذهب بها إلى هذا الحد من الخراب في كل شيء! فراق أسرتها وأولادها، وخراب عفتها وأنوثتها لثباع وتشتري! مهمة ساقطها بلا وعي بالعمل في ماخور من مواخير الجنس في بيروت، تجلس مع نساء الوطن العربي: اللحم السوداني والمغربي والجزائري والتونسي والصومالي؛ نساء الليل واللذة المحرمة، يرفعن أرجلهن لكل من يدق الباب!

لم تفكر في احتساء كوب من القهوة أو الشاي. التفتت إلى القادم، وصل من طال انتظاره، جلس بجانبها، لم يتفوه بكلمة واحدة، وضع على المائدة مطروفاً مغلقاً بإحكام، تعلم ما في داخله. نظرت إلى الرجل! أجاب بابتسامته الصفراء:

- وجهك غير واضح بالصور، الواضح كله لجسدك بين ذراعي الرجل، خمسة عشرة صورة.

أرادت مقاطعته، أشار إليها أن تصمت!

- أنتِ قضيت بين أحضانه عشرة أيام، الصور المتكررة تزيد من وضوح وجهه في فراشه.

لم تتفوه "شريفة" بكلمة واحدة، كانت تريد الخلاص من وحل المتعة المحرمة مع رجل الأمن بالإسكندرية، وهذا الرجل المهم المرتمي بين أحضانها في لبنان. لم تشعر برحيل حامل المظروف، عبثت يدها بالمظروف، لم تنجح في فتحه، غادرت المقهى.

ميعاد الرحيل قد أزف، وعليها اللحاق بالباخرة. لم تفكر في طلب سيارة حتى ميناء بيروت، عليها السير بمفردها ومع همومها الفائتة والتي ستأتي، وأولها سؤال: هل عاد زوجها "لطفي" كما وعدها رجل الأمن؟ ثم سؤال "لطفي": أين كانت؟ وبماذا ستخبر أولادها "علي" و"لملوم"؟ وما حال أهل الحارة؟ هل شاع خبر اختفائها؟ وكيف ستواجه رجل الأمن من قطيعة لذتها المحرمة معه؟ هل تستمر في تلك اللذة؟ لن تكون في خطر من هنا أو هناك، فقد رحلت إلى سن اليأس منذ سنوات، وهذه السنوات قد أعطتها الحرية الكاملة في أن تُشبع رغباتها الجنسية والتي بدأت مع رجل الأمن، ولتنتهي مع الرجل المهم في بيروت. لم تتحكم "شريفة" في البصق: - كلاب، جميعهم جبناء.

التفتت حولها، لم يلاحظ المارة السب والبصق. ظهرت ملامح ميناء بيروت. أنهت مراسم الدخول إلى الباخرة، لا عقبات. شعرت بأنوثتها، أمن الميناء وموظفي الجمارك لم يسألوا عن هذا المظروف المغلق وما بداخله، كانت سعيدة عندما عبث أحد موظفي الجمارك بالحقيبة، وكيف انتفض عند

إخباره بملابسها الداخلية بها! ارتعشت يده، كالسارق عندما يُكتشف وينفضح أمره!

لم تشعر "شريفة" بقيام الباخرة، فهي لم تبرح غرفة الدرجة الأولى، البيضاء الضيقة ذات النافذة الصغيرة. كان معها ما يكفيها من الطعام والخبز الجاف وقارورة المياه. لم يغمض لها عين في ليلتها الأولى من الرحلة، تتزاحم الأفكار والأسئلة، وكيف تُدبر في مواجهة وصولها إلى ميناء الإسكندرية؟! هل تذهب مباشرة إلى رجل الأمن؟ أم إلى بيتها ومواجهة "لظفي" وأولادها "علي" و"لموم"؟!

لم تدرِ بهبوط الليل وجسدها ملقى على الأرض بجانب فراش النوم، كما أنها لم تكن تدري بتخلفها عن حضور وجبات مقصف الباخرة، يُسجل ويُبلغ يومياً إلى قبطان الباخرة.

انتبهت لطرق الباب، مع جسد مُنهك وأعصاب غائبة. أصرت على السكون مع حدة طرق الباب، مرت الدقائق مع سكونها وافتراشها الأرض! سكنت الدقات، وابتعدت خطوات الطارق. كان عليها الإسراع في الخطوة القادمة مع قدوم الصباح، أخرج لمواجهة أمثالها من النزلاء؟ أم تظل قابضة ما دام عندها الكثير من الطعام، وما تحتاجه من الحسوات القليلة من الماء؟! لم تحتمل حرارة النهار، خلعت عن جسدها الأبيض الغض الثوب، ألقت بنفسها على الفراش، تتمنى معاودة النوم المستحيل مع ساعات النهار. دقات

الطارق مرة أخرى! لم تهتم بستر جسدها، كان عليها استقبال مَنْ نغص عليها في المساء والصباح بالطرق والإزعاج. أخذت في إنعاش فكرها؛ لماذا يريد القبطان الالتقاء بها؟! أخرجت أثواب سهراتها الحمراء بشارع الحمراء ببيروت، التفتت إلى المرأة الصغيرة المعلقة، نعم لم تظهر صورتها كاملة، لكن يكفي هذا الثوب، يُظهر مفاتها وجسدها الملتهب، أمام الشخصيات الهامة، كما علمها رجل الأمن!

ارتبكت خطوات "شريفة" للعين المراقبة لخطواتها عبر المر. كان عليها عدم الاهتمام وهي تصعد لمقابلة القبطان. كما لم تشعر بأي اهتمام في اللقاء؛ جُمْل وكلمات قصيرة، كانت كافيه للغور في أعماقها. لم ترتعش أمام هذه المواجهة القصيرة الدقائق. عادت بعدها إلى غرفتها، لا استرخاء ولا راحة بعد اللقاء. التفتت إلى المظروف المغلق:

- لماذا هذا الاهتمام به من هذا القبطان؟! وكيف وصل إلى معرفة محتواه؟! الآن عليها الخيار الصعب والسهل في آنٍ: هل تتخلى عن عبودية وحب رجل الأمن في سبيل حريتها وعودة شرفها المغتصب والحياة في أرض الله الواسعة، كما وعدّها القبطان؟ أم ترضى أن تكون حبيسة الحب المهان بتقلبها بين طيات الفرش والحُجرات المُزيلة بتوقيعات ضابط الأمن؟ مر الوقت سريعاً، لم تشعر بزوال النهار والدخول في ظلمة الليل. أضاءت مصباح الغرفة، رجحت كفة الحرية، والخلاص من هذا الكلب الذي لا

يعرف للشرف معنى ولا للحب إخلاصًا. نعم للحرية، كما وعدها الرجل، أماكن كثيرة، وعليها الاختيار: إيطاليا، اليونان، تركيا. ما عليها إلا أن تُسلم المظروف بما يحوي من عبث اللذة والحب الحرام. جميع حلقات الحب والسفر لبيروت، والرجل المهم، تعرفها كما تعرف ذاتها. لكن ما أهمية هذا المظروف لذلك الرجل قبطان الباخرة؟ وكيف علم محتواه من نجاسة وزنا؟ هل كانت مراقبة كل هذه الفترة وهي لا تدري، حتى وصل بها المستقر بهذه الباخرة وهذا الرجل؟!

لم تجد إجابات مع دوران فكرها المهتز بين كفتي الحرية والاستعباد. الآن، عليها الاستعداد للصعود إلى بوابة الحرية ومقابلة القبطان وتسليمه المظروف، لا مفر، هي في قبضته الحاكمة للباخرة ومَن عليها. كان هذا قرارها الأخير والتي سعدت به؛ تسليم المظروف بما يحوي من مشاهد المتعة الحرام، وعودة حُريتها التي سُلبت مع شرفها، الحرية وإن كانت خارج مصر والإسكندرية.

أسرعت في ارتداء ثوب الحشمة والوقار. لم تلتفت إلى فساتين الغراميات. همست مع نشوة الانتصار:

- وداعًا أيها الكلب النجس الأخرق. أخيرًا خرجت من سجن لذتك وشهوتك وسطوتك وجبروتك وظلمك لعباد الله. أيها الأخرق النجس. بصقت على الأرض.

- حُرَيْتِي. حُرَيْتِي مطلب شاق، لا وصول إليه إلا بعد المواجهة، الموت، الاعتقال.

أمواج البحر سوداء، بظلمة الليل الحالك! حتى الوجوه حولها كالحة، جافة، لا فرق بينها وبين الأسماك المرصوفة على شاطئ البحر، تلفحها حرارة الشمس، تُجفف وتُملح، وتؤكل، وتلوك بها الأفواه.

جرى لُعاب "شريعة"، لم تستطع صد جريان لعابها. سمكة البوري المملحة. قارب الصيد مازال يتأرجح بها، بحر "أبو قير" والشاطئ لم يظهر بعد. هذا هو أقرب مكان تهبط به، بعد قناعتها برد قبطان الباخرة، بالهروب من ميناء الإسكندرية ومن ضابط الأمن. فشلت في كشف المستور ومعرفة أهمية صور المظروف الساخنة، غير أن مَنْ كان في فراشها رجل يخص القبطان. التفتت إلى السماء، طيور النورس تُحلق، ثم تستقر على سطح الأمواج. مازال رجال قارب الصيد يتحدثون بالإشارات مع كبيرهم. يلتفت إلى كل مكان. يبتسم.

- أخيراً، ظهر الشاطئ.

لم تشعر بخطورة المهمة وانتهائها إلا في لحظات ظهور شاطئ النجاة، "أبو قير". الابتسامات تملأ وجوه رجال القارب، وسلامة العبور من عين المراقبة الساحلية.

اقترب رئيس القارب: تهنئة بسلامه الوصول.

عليها الآن الاستعداد للهبوط في مرسى بحر السلامة. شاطئ أبو قير.

أغلق ستائر المكتب، أغلق الباب بإحكام، أخرج لفافة التبغ المعبأة بالحشيش الفاخر، استرخى على المقعد، تابع حلقات الدخان، لم ينعم بأنفاس سيجارته المدعمة؛ صورة امرأة صاحبه "لطفى" تظهر بين الحلقات! لم يستطع وقف لعناته على زميل عمله، "العقيد" الذي أورد "شريعة" المهالك وطريق الرزيلة والخيانة. نعم، هي جميلة وساحرة، لكن لم تكن لعوبًا. صاحبه "لطفى" كانت كلماته تفضحه بمدى حبه لها، لا يكل عن الحديث عنها، والمعاناة التي عاشتها معه، منذ أول خطوات الزواج، تليها اللوثة على شاطئ بحر "المرسى أبو العباس"، وقفزه بين الأمواج، والالتقاء به بمستشفى الأمراض العقلية؛ زمالة وصداقة تكشف المستور بفقد عينه وعذابه بين معتقلات مصر وسجونها، وآخره الالتقاء بـ"لطفى" بعنابر الأعصاب بالمستشفى. نعم، لم يكن "لطفى" يعرف من السياسة إلا القليل، فطرة عقيدته: يعشق الحرية منذ ولادته، تنمو مع مرور الأيام والسنين. وأخيرًا الأحداث الأخيرة، دائمًا هياج بداخله، مع فقر وعذاب ومشاركة أسرته لهذا العذاب، والتي كان ختامها اعتقاله، لتأتي "شريعة" لإنقاذه، فتسقط هي الأخرى في غياهب الرزيلة والخيانة والزنا واللعب مع الكبار. "لطفى" الطيب الفقير الثائر، لا يعلم بشيء عما فعلته زوجته "شريعة"، يطلب المعاونة من صاحبه وزميل عنبره. الجاني هو زميله "العقيد" الذي أوردها إلى مهالك الخيانة. "لطفى" يبحث عنها وعن اختفائها أكثر من أسبوعين.

أشعل لفافة أخرى، عسى أن تخرجه من دوائر "شريفة" وزوجها "لطفي". يمتلك الإجابة، يخفيها عنه، أجابه حاضره، ينقصها أين هي الآن؟! يعرف الفاعل، مثل "العقيد"، الذي فقأ عينه، ثم تكون الرشوة لعذابه بالمعتقلات والسجون وعنابر الأمراض العقلية وفقده لإحدى عينيه، العمل بالوظيفة الهامة بين صفوف رجال الأمن. كم يشبه عقيد "شريفة" عقيدة الذي فقأ عينه. ها هو فقأ شرف امرأة صاحبه "لطفي"!

أزاح فكرة إشعال لفافة أخرى. غرفة مكتبه مازالت معبأة بدخان الحشيش. أخرج أوراق التقارير، عليه استكمال تقريره الأسبوعي عن أعضاء مجالس إدارات الشركات، لم يتمكن من التعرض لهم بالإدانة أو المساءلة! أكثرهم من المتقاعدين، من أهم دعائم الدولة، القوات المسلحة. وَضَعَهُم زعيم النكسة؛ حتى يتمكن من فرد أجنحة السيطرة على طبقات الشعب، والتحكم في كل شيء. الشعب الباحث عن العدالة الاجتماعية. تبخرت ورحلت في مهب الرياح، آمال العمال والفلاحين، أصحاب الأيدي الكادحة الخشنة، طبقة "البروليتاريا" رجعت للخلف، أمر عسكري: للخلف دُر، تسكن في أحضان النكسة. أراد أن يكتب في ثنايا التقرير: الاستغناء عن هؤلاء القادة من ردهات القطاع العام ودواوين الحكومة.

التفت إلى ساعة الحائط، الفجر يقترب، عليه الإسراع بإكمال تقريره. انتبه لأصوات بالخارج، لم يحدث هذا منذ أعوام! أخرج مسدسه الخاص، تقدم نحو النافذة، تراجع أمام رنات الهاتف!

سُرَّ بالمفاجأة السعيدة، كان يتمناها، تكمن في صدره:
- قُتل الزميل "العقيد" في مهمة الليلة.
ثلاث طلقات بالصدر، تُنهي حياة الزاني لزوجة صاحبه "لطفی".
لم يتفوه إلا بكلمات قصيرة:
- الله يرحمه.
أغلق الهاتف، جلس يُكمل تقرير ليلته السعيدة بمشاركة لفافة التبغ
المدعمة بالحشيش الفاخر.

شمس الصباح تداعب السحاب، تتواري خلفه، ثم تظهر، ثم تتواري. طأطأ "لملوم" رأسه إلى الأرض. لم يقدر على متابعة الاختفاء ثم الظهور. يكفيه اختفاء أبيه "لظفي"، ليظهر، فتختفي أمه "شريفة". شمسه المختفية، وسحابه المعلق بين السماء والأرض، "لظفي". وصل أخيرًا إلى محطة مصر، عليه اتباع إرشادات "السيد النجرو"، شقي بحري. رفض مصاحبة حبيبته فينوس الخرساء في مهمة الوصول إلى "أبو قير". عليه المواجهة وحده. والالتقاء بأمه "شريفة". لم يكن يتوقع أن يصل "السيد النجرو" بهذه السرعة إلى مكان أمه. حاول أن يعرف ما هي الخطوة القادمة، فشل. ترك الأمر يسير تبعًا لما قُدرَ له. أو ما تقرر "شريفة" من العودة، هل ستعود معه أم ستختفي مرة أخرى؟! اقشعر جسده، هجم عليه إحساس عدم وجودها أصلًا بـ "أبو قير". اطمأن لتراجعته أمام "لظفي" في آخر لحظات البدء في مهمته، كاد أن يخبره بعثوره على أمه "شريفة"، كان شعوره بالخوف على "شريفة" من بطش زوجها "لظفي". فقد عمل بتوصية "السيد النجرو" بـ "أبو قير" بـ "أبو قير". فقد عمل بتوصية "السيد النجرو" بـ "أبو قير". فقد عمل بتوصية "السيد النجرو" بـ "أبو قير".

يخبر أحدًا بهذه المهمة، سواء كان أباه أو شقيقه "علي". اقرب القطار من محطة "أبو قير"، عليه التأهب والاستعداد لمقابلة أمه، حبيبة أبوه، شمس الساطعة.

أخرج قصاصة العنوان، إرشادات السير واضحة؛ ها هو المسجد الكبير المهجور تسكنه الخفافيش والعناكب والكلاب الضالة الملاصق، للمقابر والمواجه لشاطئ البحر. كان عليه الابتعاد عنه بقدر الإمكان، توصية

"السيد النجرو"، فكم من الأشقياء يقطنون في باحة المسجد. وعليه الاقتراب من مقابر "أبو قير". أكثرها مُهدمة، لا أسوار ولا حراسة! حتى عظام الموتى مبعثرة فوق الرمال. ظهرت ملامح المساكن القصيرة، تحوطها مياه المجاري، حاول بقدر ما يستطيع تفادي المياه بالقفز فوق الأحجار المبعثرة، التفت إلى بغيته؛ كوخ من جريد النخيل وبعض الأخشاب المتشابكة، مقاعد خاوية، لا يوجد زبائن، رجل وحيد يجلس يحتسي كوب الشاي مع سيجارته، كما وصفه "السيد النجرو" تمامًا. لم تهتز أعصاب "الملوم"، عليه الثبات في هذا الموقف ومع هذا الرجل. كما عليه إخفاء أي ملامح الطلبة أو التلمذة. عليه أن يقنع هذا الرجل بكونه مجرد عامل من عمال الورش. لم ينتظر أكثر من ذلك، فأمه ليس لها أثر بين المقاعد أو بأحد الأركان. كانت المقابلة فاترة، وإجابة غامضة:

- المرأة التي تبحث عنها اسمها "دوسة". كانت تقطن بمنزلي المتواضع الصغير، لم تكن تخرج إلا في الليل؛ لشراء ما يلزم، وتعود مسرعة. كنت ألاحظها وأتعجب من امرأة قابعة طوال النهار والليل بغرفتها الصغيرة؛ قاطعه "الملوم" بصورة أمه مرة أخرى. كان يتمنى ألا تكون هي أمه "شريفة"، تأتي الإجابة من الرجل:

- هي "دوسة" التي أعرفها.

صبر "الملوم" بالاستماع عن أحوالها. كم حزن لسماع نفاذ نقودها والعمل مع هذا الرجل. انتفض الرجل وعلا صوته! كانت كلماته كافية لإنهاء هذه الجلسة وهذا التحري عن "دوسة" أو "شريعة".

- سيارة سوداء، ينزل منها رجلان هذا الصباح، أحدهما يرتدي أفخم الثياب، مع نظارته السوداء. ورجل تظهر علامات شقاء الأيام، بنطاله واسع مُرقع، ملطخ بأصباغ كثيرة. لم تقدر "دوسة" أن تفر من قبضته، سحبها بداخل السيارة. علا صوت الرجل وهو يرتعش:

- هذه المرأة ليست من أهل السوء، إنها امرأة طيبة ذكية، ليست من أهل السوء. امرأة يظهر عليها الحسب والنسب والأصل.

ارتعش "الملوم" بعد معرفته الرجل.

هارب من حكم بالمؤبد من عشر سنوات، وها هو يقطن هذا المكان، يسترزق من رواد مقهاه الهاربين أمثاله بضع من القروش والتي بالكاد تسد حاجته في الحياة.

لم يقوَ "الملوم" من الاستمرار في هذه الجلسة. اقشعر جسده، نفذ صبره، ينفجر في هذا الرجل ويُحطم مقاعده وأكوابه الفارغة.

أشار بيده للرجل، أسرع بالرحيل. يضرب بقدميه وذراعيه بؤس الرياح وعذاب الأيام.

الإسكندرية تبكي بكاء العاجز عن إخراج نبرات حزنه وعذابه. كورنيش البحر، لم يكتفِ بالرياح وظلمة الليل، اكتمل مشهد البكاء. "شريفة" هي الأخرى تشارك الإسكندرية في بكائها، لا تُخرج صوت نحيبها، تكتمه، يصرخ البكاء بداخلها، يكسر عظامها، الكورنيش يحتفي بعذابها. أمواج البحر السوداء، تدق طبول التائهة في صحراء الألم، وفقدان كل شيء. "لطي" زوجها، حبيبها الذي كان، اكتشف كل آهاتها، علامات الآهات تركت بصمتها على جسدها الأبيض الغض، فراش الحب، كشف هو الآخر فقدانها لمرور لذتها الضيق، أصبح واسعاً، يتسع للجميع! لم يقترب منها بعد عودتها من هذه الأيام الملعونة. ابنتها "ثريا"، رضخت لتعليمات زوجها بعدم الاقتراب من بيت أمها "شريفة". ألم كل صباح، "علي" و"لملوم"، النظرات المنكسرة الفارغة من الحب. لم تستطع أن تقدم حضنها الدافئ لـ"لملوم"، شقيقه الأكبر "علي" لا يجلس معها في مكان واحد. هبت عليها لوثة زوجها "لطي"، هل تقفز بين أمواج البحر هي الأخرى؟ لا سبيل للانتحار، هي تجبن في هذه المواقف، حتى إن كان للخلاص من هذا العذاب وجحيم حياتها مع زوج وأولاد نُكّست رؤوسهم بفعلتها المشؤومة!

لا تكل من لعنة صاحب النظارة السوداء، صديق زوجها. نعم، أعادها إليهم، لكن بعد أن فضحها أمام زوجها! لم يسترها من أيام الضياع. حتى "لطي"، هو الآخر فضحها أمام أولادها: "علي" و"لملوم" و"ثريا". لا تقدر على الاستمرار في تلك الحياة التي أصبحت بلا معنى. الموت أهون لها من المأساة

التي تحيياها وتتنفس بها، كيف الوصول إلى الموت؟ الجبن يحسم الموقف، يُغلق كل أبواب الخلاص.

التفتت إلى سينما الأنفوشي؛ رواد الحفلة المسائية في طريقهم إلى الخارج. تأخر الوقت، عليها العودة إلى البيت المخرب بفعلتها السوداء، نهضت من بين رمال شاطئ الأنفوشي. أسرع بالعبور واختراق زقاق "بندقة"، كانت ترتعش من نظرات حارس الليل. كفى معاناة من الأمن وما جر عليها من مصائب: فقد أعز ما تملك، زوجها وأولادها. لم يعد للشرف مكان. ذهب في مهب رياح اللذة ومُتعتها الزائفة.

اقتربت من مقهى "أم حربي"، تتمنى ألا تراها، مازالت تحن وتعطف عليها، ضاربة بعرض الحائط سُمعتها الملتخة بالعار. كم عرضت عليها الذهاب إلى خالتها "نرجس" أو حتى الجارة "أم حلويات"؛ تحثهن الصفح، والعفو، ومعاودة الود.

فشلت "أم حربي". رياح النسيمة، تعم وتنتشر بين الجميع، من الأنفوشي حتى الحجاري. زقاق "بندقة" الوحيد الذي لا يستطيع أحد أن يتحدث عن "شريفة"؛ أوامر "أم حربي"، سُلطانة المزاج.

التفتت إلى المقهى في آخر خطوات وصولها للبيت؛ "أم حربي" مُنهمكة مع زبائن الحشيش. السيارات تصطف، في انتظار استلام المزاج العالي الجودة. همست "شريفة":

- آه يا بنت الكلب، حشيش الحنة والخبز المحروق للغلبة أصحاب النهار.

دلفت داخل البيت في هدوء- دون أن يشعر بها أحد من حباها المفقود،
زوجها وولديها "علي" و"الملوم".

اجتمعت نظرات الوداع، تنظر "شريفة" نظرتها الأخيرة لحقيبة المسافر، لم تنس شيئاً، كمية اللحم المشوّح المتواضعة، مع الملح والفلفل. "لطفی" ينظر إلى ولده "علي" يتأهب للرحيل، ستة أيام؛ الإجازة الشهرية بالجندية. نبرات الحزن تظهر واضحة بصوت العسكري الراحل "علي". معسكره بعيد، نعم شاطئ وبحر، ونسيم الهواء الذي يرد روح مَنْ يعشق مياه البحر، لكنه ليس بحر الأنفوشي، بل بحر الإسماعيلية، على ساحل القناة. انتهت مدته الإلزامية، لا خروج ولا خلع للبدلة الصفراء التي تذلل وتذلّ بسنوات النكسة وحرب الاستنزاف.

كانت عين "الملوم" تراقب شقيقه، ومشهد أمه الحزينة، تبعد عنهم بمسافات عيون كل من أبوه "لطفی" وشقيقه "علي"، وهو أيضاً، الجميع يتحاشى النظر إليها، حتى في هذه الحال وهذا الفراق! "شريفة" نظراتها دائماً أسفل قدميها، لم تمنح الأيام فعلتها، حُفرت في صخور وجدران أسرتها الحزينة. قطع "الملوم" صمت الصرخات: الانطلاق للرحيل، واللاحق بقطار المساء. حمل "الملوم" الحقيبة، الوداع المتكرر منذ أعوام مضت، لكنه هو الفراق - وإن تكرر - يصحبه مجهول العودة أو لا عودة، من جبهة القتال.

دس "لطفی" بعض النقود، لم يمتنع "علي" من أخذها والقبول. عليهم الآن الإسراع في اللحاق بترام رقم 4 محرم بك؛ وسيلة النقل المتواضعة بتواضع قيمتها وتذكرتها الصفراء إلى محطة مصر. توارى "لطفی" خلف النافذة،

يتابع الرحيل. "شريفة" تتوارى بين جدران حجرتها، زنزانة الليل والنهار، سبيلها الأوحـد بالاختفاء من أعين الجيران ورواد الحارة. عين واحدة تعذبها؛ "لطفـي" زوجها، حبيبها الذي كان، من حين لآخر يراقب حركاتها، هل يعاوده الحنين إلى حبها الدافئ؟ أم يفكر في الخلاص منها؟ كما فعل "الشيخ الدرويش" بزوجته الغانية بالأنفوشي. والخلاص بدس السم لها وقتلها.

غير قانعة بهذه الخاتمة، فـ"الدرويش" كان في عصر الملك فاروق، عصر حماية الشرف والكرامة للرجل، وأولها مع امرأته. الآن، عصر آخر، يُداس الرجل ويهان بالأقسام والمحاكم! وآخره لعبة حرية المرأة! تضرب وتطيح، ولا مانع من تقطيع الرأس والأكتاف والأرجل، والقذف بها في أقرب أكوام من الزبالة!

أزاحت فكرة التنكيل بـ"لطفـي" وتقطيعه، عليها الصبر مع الأيام؛ لترى ماذا سيكون من أمرها؟

التفتت لصوت "الملوم"، حضر الآن ورحل شقيقه "علي"، وغابت عنها ابنتها "ثريا".

لم تشعر بيدها وهي تمزق رداء نومها، انفلتت الخيوط، ظهر صدرها المرمرى، المنافس لجميلات هوليدو، أطفأت الأنوار، رقدت في تابوت الحزن والألم.

لم تدري أين تذهب خطواتها؟! ضاقت بها دنياها الصغيرة، ذات النافذة الواحدة، تتمنى زوال النهار لترتمي في أحضان الليل، تهرب من العيون الراصدة، حتى إلى نظرتها العابرة للمارة أو الجيران. الآن هي في طريقها إلى خالتها "نرجس"، تمتطي ترام الرمل، تجلس جلوس المنكسرة الذاهبة إلى القضاء برغبتها، خالة تتبرأ من عارها، والتي تلوك به الألسنة من القريب والبعيد! لا مفر من لقاء الخالة التي راعتها من بداية خطوات زواجها. انقطعت المشاعر وغاب الحب، وتغيرت الأقنعة، هي خائنة وخالة تبتعد عن العار الذي لحق بالعائلة ذات الحسب والنسب.

انتبهت "شريفة"، الترام على بُعد خطوات من محطة "سيدي بشر"، ملامح شارع "خالد بن الوليد" بدأت في الظهور، هبطت وهي تلتفت في كل اتجاه، لا تريد أن يراها أحد تعرفه. أحكمت الايشارب؛ عسى أن يستر القليل من ملامحها وشعرها الأسود الناعم. كانت تسرع في اختراق شارع "خالد بن الوليد"، لتختفي في بيت الخالة. الآن يُحدد مصيرها مع خالتها "نرجس"، لم تضغط على زر الجرس ستدق بيدها المرتعشة!

مرت الدقائق، لا أحد يرد، ارتعش جسدها! ضغطت على زر الجرس، رنين متواصل، لا فائدة؛ لا يوجد أحد بالداخل! لم تستطع إعادة المحاولة، فهي تتمنى ألا يشاهدها أحد من جيران خالتها. أسرع بالرحيل، أين تذهب؟ تركت خطواتها لتذهب بها في أي اتجاه.

على ماذا تخاف؟ وعلى ماذا تبقى؟! الضياع طريقها.

نظرت إلى كبائن البناء، خاوية على عروشها، تحوطها الرمال من كل جانب، تسكنها القطط والكلاب الضالة، رياح شاطئ "سيدي بشر" تهب عليها، تنفر منها. لا راحة إلا بشواطئ حبيبته الأنفوشي ورائحة اليود المُحملة بالذكريات؛ "لطفی" حبيبها الذي كان. لم تستطع الجلوس بين الكبائن، كفى ما جرّت عليها أماكن الشبهة من خراب. عبرت إلى رمال الشاطئ، لم تستطع المسير أكثر من ذلك، البكاء لا تقدر عن صده، جلست مع الدموع والذكريات، على مثل هذه الرمال، وعلى مثل هذه الأمواج، حبيبها الذي كان يقفز بين الأمواج، تحتلها الغيرة، يتبادل "لطفی" القفز بين الأمواج وبينها، تشعر بماء حبه، ترتوي منه ارتواء الظمأى لماء الحب، علا صوتها ولان للحبيب:

شفت الهنا ويا زماي.. شفت الهنا¹
فاكر أول ما رأتني لما هويتك وهوتني
وقلت إنك حبتني، حبتني.
وقلت لك قول من تاني
قول من تاني.

شفت الهنا.. شفت الهنا ويا زماي.. شفت الهنا.
آه من الهوا ساحر وجميل، فيه المنى والشوق والميل.
ما حلّى القلوب لما بتميل. لما بتميل.

¹ (شفت الهنا) "عبد العزيز سلام" مطربة القطرين: "فتحية أحمد"

وتحن لك عهدي الحالي. عهدي الحالي.

مرت علينا سنين وأيام.

عاشينا في خير وأمان وسلام

تزيين من كاس الأحلام

وأذقيك أنا شهد حلالي

شفت الهنا. شفت الهنا يا زماني.. شفت الهنا

حُضن كفيها وجهها الباكي. لم تشعر بذهابها بين الأمواج، رفعت ذيل

فستانها، غاصت خطواتها بين الرمال والأمواج البيضاء، هل يُجيب الحبيب

نداء الحب؟ ويأتي إليها حبيبها المفقود بين رياح الخيانة وصحراء العذاب؟

لم ترحم الحب من النداء إليه. لا حيلة ولا سبيل لنسيان الماضي بما كان.

تحملت المأساة بأكملها؛ الزواج بـ"لطفی" غير المناسب لحسبها ونسبها

وعائلتها. نعم كان المنقذ لها من أم لاهية، تمرح مع زوج جديد، وشقيق نفذ

إلى بناء أسرة، تاركًا إياها بين عذاب زوج أم ومرارة الأيام! تنتظر الفرج،

فرج "لطفی" الزائف، بين شقاء الحياة والسقوط في الرزيلة. وما زال الشوق

إلى حبيبها الذي كان، لم يبرح ويرحل كما رحل هو. الآن عليها الرحيل من

شاطئ "سيدي بشر"، والعودة إلى شاطئ ذكرياتها الأنفوشي.

خطوات متثاقلة، عيون ما زلت تمتلئ بنوم المضطر، الصراخ في الشارع يصم الآذان، تراجعت مع صراخ آخر يأتي من داخل المنزل! وقفت "شريفة" مع حيرتها! لا تقدر على فتح الباب ومعرفة هذا الصراخ ولمن؟! جميع الجيران يقاطعونها، يبتعدون عنها، هي لهم عار ومرض، يخشون العدوى منها منذ فراقها لزوجها وأولاهها، وعودتها الفاضحة لشرفها.

اتجهت إلى النافذة، يَكْفِيها النظر من خلال الفتحات الخشبية، كثير من الناس تقف أمام محل "الإسكافي" المغلق! نساء تبكي! الرجال يضربون كُفًّا بكف! انتبهت إلى الورقة المعلقة على باب المحل. دقائق الباب تقطع تأملها، أسرع إلى القادم: "أم حربي"، لم تُسلم على "شريفة"، هبطت متربعة على الأرض، طلبت كوبًا من الماء. أسرع "شريفة" بالماء، جلست بجانبها في صمت. عليها الصبر مع هذه المرأة صاحبة المزاج العالي، والصبر على الذهاب لدورة لمياه! كُشف سر الورقة المعلقة: إعلان وفاة "الإسكافي" مساء أمس! (دون جوان) الشارع، تلتف حوله البنات وأولهن.. "بيحة" بنت جارتها! الآن، عرفت سر صراخ السلم، الجميع يعرف يوم خِطبة "الإسكافي" على "بيحة". كان الآسي يظهر على وجهه المعلمة "أم حربي". عائلة حَبَّوب البنات بالنعي المعلق: الأب طبال، والعمة راقصة، والأخت حلاقة نساء. وكيف تكون أم "الإسكافي" بهذه الشهرة الكبيرة مُغسلة موتى؟! ثم المفاجأة التي تهتز لها الأرداف؛ تخرج الجنازة من كنيسة العذراء بمحرم بك! شهقت "شريفة":

- لا يجوز، لا يجوز. كيف تتزوج من غير ملتها؟!
كان جواب "أم حري" شافياً بالإجابة الكبيرة التي هزت لها "شريفة" رأسها
إجلالاً بعقلية المزاج العالي.
- كان سيخرج من ملته، وهنا علم أهله بهذه المصيبة، فما كان عليهم إلا
بقتله.

أسرعت "شريفة" و"أم حري" إلى النافذة، كان المشهد عجيبيًا! تحول الصراخ
إلى زغاريد وتهليل وتهنئة، "الإسكافي" المحروس حبيب "بيحة"، قادم يسير
بلحمه وشحمه وحذائه اللميع الزاهي اللمعان! لم يعترضه أحد عندما همَّ
بفتح المحل. أشارت إليه امرأة، جمدت ملامحه، قرأ نعيه وجنازته، سقط
مغشياً عليه وسط الزغاريد الصراخ!

الأقدام تتلألاً، لامعة، جديدة، لم تطأ الأرض إلا في هذه اللحظات، كانت ملابس رجال العزاء، تلفت الأنظار؛ البناتيل الواسعة، الأحمر الفاتح، الأصفر الفاقع، السكري الزاهي، البرتقالي الطازج، الأبيض الناصع، سراق يتحدى قصور الباشوات والبهوات! مُتكامل بالبُساط الأخضر والمقاعد الحمراء! صوت المقرئ يجذب القلوب والأبصار، الجميع في صمت واستماع وخشوع، إلا "الملوم" وأصحابه، قلوبهم تهتز، ترتعش من الخوف وانكشاف أمرهم الخسيس! نعم أكثر الحاضرين، صناع الأحذية والشبابش وأبو كعب عالي "معشوق النساء. صنّاع، أنظارهم كل صباح قبلتها ووجهتها النعال، لا يلتفتون أثناء الحديث يميناً أو شمالاً، إلا إلى نعل الحذاء والصندل، فكر وتأمل في آخر الموديلات المكتسحة الأسواق. يجلسون الآن لمواساة زميلهم في الصنعة، المفقود نِتاج النعي الزائف! لم يتحمله حبيب بنت الجيران "بيحة" ذات الشعر الأصفر والجسد الفرنسي النحيف.

كان الحظ مع "الملوم" وأصحابه؛ لم يهتم أهل الشارع والجيران بمنّ الفاعل لهذا النعي. الأهم هو رحيل "بيحة" بعد المصيبة بفقدان خطيبها، لا أثر لها، اختفت باختفاء حبيبها! ختم الشيخ التلاوة والدعاء.

بحث "الملوم" عن صاحبه. كان يريد المواجهة بما فعله. نعم هو يعرف مدى تأثيره بفقد "الملوم" لحبيبته "بيحة". لكن، هل يصل الأمر لهذا النعي الزائف، وهذا الموت المفاجئ لخطيبها؟! اختفى الصاحب، لا يوجد له أثر بالحارة ولا

في العزاء! تردد "الملوم"، هل يُعلن عن صاحب النعي الزائف؟ استجابةً لضميره وتألمه لهذا القتل وإن كان بغير عمد؟ المشكلة مشكلتان: فقد حبيبته، واختفاءها مع اختفاء صاحبه!

لا، لن يفعلها، سيكتتم هذا السر. يكفيه عذاب ضميره، وفراق حبيبته. تسلل من بين أصحابه، يخشى التحدث في أمر النعي الزائف وصاحب النعي والسؤال أين هو الآن؟

كان عليه الاسترخاء على رمال شاطئ الأنفوشي. لم يهتم بالعودة متأخرًا إلى البيت، رحل الاهتمام من والده "لطفی" وأمه "شريفة" وغياب شقيقه "علي" بالخدمة العسكرية، اقترب من زقاق "بندقة"، مازالت "أم حربي" تقطع الحشيش الفاخر لأصحاب السيارات الفارهة، لم يسلم من نظراتها ومتابعة خطواته، أسرع بالمرور، ترتعش أطرافه، نظراتها تُوحى بمعرفتها شيء ما، هل كشفت سر النعي؟! لماذا تلك النظرات ومن هذه المرأة ذاتها؟!

لم يجد إجابة لهواجسه المتواترة. عرج إلى حارة "ابنجه"، مُغسلة الموقى ثابت من العمل الحرام، المخدرات، ندرت حياتها لغسيل الموقى، تَرْضَى بالقليل. التفت إلى أكوام الليف الناصع البياض بجانب عشتها، تساءل:

- لماذا ليف أبيض ناصع يُعَسَّل به الموقى في يومٍ أسود حزين؟! أليس من الأفضل أن يكون أسود اللون أو داكنًا، بعيدًا عن ألوان الفرحة والسرور والبهجة؟!

انتبه لضوء القمر؛ "ليلي" الخرساء، فينوس حبه، تطل من النافذة. التقط
مشبك الغسيل من الأرض، أشار إليها، دلف إلى درجات السلم المظلم.
أنارت "فينوس" الخرساء أضواء هيبها المُشتعل بين أحضان "ملوم".

السماء تُنذر بالأمطار. لم يهتم، حتى بملابسه الخفيفة، هكذا كان حال "لطي"، لم يبال بالصقيع وبرودة الهواء. نعم، السنين زحفت على جسده، تلتهم شبابه وعنفوان قوته، واقترب نهايته. لا يبال ولا يهتم، آماله ما زالت تتفتح، لا تنتهي ولا ترحل من أمام عينيه.

هاهو الآن يذهب بخطوات المُصرّ على تكملة رحلات أهدافه ومبادئه. لم يهتز لخيانة امرأته "شريفة"، لا يبالى بها، أصبحت نكرة، بالونة، كان يلعب بها، ثم انفجرت وطارَت في الهواء. نعم، صوت مصيبتها مازال يرن بين ردهات حبه الذي ضاع، رحل عنه الشعور بالذنب.

- نعم، وقعت في وحل الخيانة، لكن برغبتها، كان بإمكانها الصبر على غيابه حتى يعود، لم تصبر وتحمل بعض المشاق والرعاية لأولادها، طرقت أبواب جهنم الحمراء، الشهوة والحب الحرام!

التفت إلى المارة يسرعون في الخطوات؛ الأمطار تسقط بجبات الثلج، لم يبال بملابسه الملتصقة بجسده بعد أن غمرتها المياه. اقترب من فندق "سيسل". ها هو الزعيم، يقف منتصباً شامخاً. لا يبالى مثله بما أصابه من المياه. الزعيم "سعد زغلول" لم يختفِ بين زوايا القبور، هو الحاضر الغائب.

صعد "لطي" درجات منصة الزعيم، لم يلتفت إلى المرأة حاملة غصني الزيتون، فيكفيه ما أصابه من امرأته "شريفة".

الآن، الجلسة السرية بينه وبين الزعيم، لن يفتح فمه، لن يتشدد بالكلمات الرنانة بالتلفاز والراديو ليل نهار؛ محاولات فاشلة لمحو عار نكسة 67 عن الزعيم وزبانية الأسوار العالية والسلوك الشائك، والاعتيالات، الزعيم يغتال أقرب زملائه: المشير عامر، يُحَبِّكُ السيناريو، ويُبَيِّثُ الإعلان! لوثة حب الزعيم فشلت بالإقناع لمن غنى له: ناصر يا حرية، ناصر يا اشتراكية. الشعب كشف الغطاء عن انتحار المُشير في سجنه الحربي، لم تدخل عليه حيلة الانتحار، مات المشير مقتولاً بيد أحد عساكره! أكثر الناس من الكبار والشباب لم تفلح معهم حيلة الزعيم.

هدأ "لطفی" مع توقف الأمطار، نظر إلى الزعيم "سعد زغلول"، لم تزل قطرات المطر تتساقط من بين يديه، التقطها "لطفی"، مسح جبهته بها، فرك بها شعر رأسه، التفت إليه الزعيم سعد، كانت ابتسامته سحرية لـ "لطفی"! جلس بجوار المرأة حاملة غصني الزيتون، همس:

- الآن. الآن أعرف ما هو الواجب عمله، "شريفة" امرأتی الخائنة هي بدايتي الأولى..

أسدل ستائر مكتبه، لملم كل ما يخصه من أدراج المكتب، لم يتردد في حرق بعض الأوراق والمستندات، كان مستعدًا لهذا الموقف وهذه اللحظات الفارقة. الصخب والبكاء والصمت في عراك بهذا المبنى الخرب! صوت واحد كان يصاحبه؛ صوت المذيع، الشيخ "عبدالباسط عبدالصمد" في جميع المحطات، يرتل القرآن الكريم.

نظر إلى سلاحه الشخصي، مسدسه الأميري المزود بكاتم الصوت. التقط سيجارته المعبأة بالحشيش الفاخر، لم يبال بغلق مزلاج باب مكتبه. الأمر الآن أصبح في يد رياح التغيير، لا أحد من زملائه بمبنى الأمن يهتم إلا بنفسه! كما هو حاله الآن، هل سيفارق هذا المكتب، ويغادر هذا المكان، ويرحل كما رحل الزعيم؟!

حتى الآن، لم يصدر بيان من الرئاسة بموت الزعيم ناصر. أطفأ سيجارته مع دقائق الباب، لم يعترض بسحب مسدسه الأميري. الآن، هو أيضًا يجب عليه الانسحاب ومغادرة مبنى الأمن، تمنى أن تكون هذه نهاية لخطوات حياته. لم يكثر بسيارته أمام المبنى، عليه الاعتماد على قدميه. التفت إلى المارة، الدنيا تسير، الحياة لن تتوقف ولن تنتهي. كان يفكر في الساعات القادمة. نعم، اقتربت ساعات الحزن وإعلان وفاة الزعيم في الإعلام، يجب الإسراع لسماع النبأ. عرج إلى شارع فرنسا، لم يفكر في الجلوس بمقهى الإسعاف، لم يستجب لرائحة مطعم "سلامة كوارع"، وأبجرة قدوره النحاسية بما تحوي من حساء الكوارع وفتة الأرز، لم يرضخ لرغبات معدته الخاوية.

عليه الإسراع إلى ما هو أهم، محل "الخواجة فرحان"، توقف، مازال الخواجة تلتف حوله النساء، عليه الانتظار حتى تنتهي نبوءاته لهؤلاء النسوة. كان في رضا من العودة إلى حياة الإنسان البسيط، عليه أن ينسى بريق مكائنه الأمنية، حاول بقدر ما يستطيع ألا يراه "فرحان"، يقطع حديثه لزبائنه من النساء ويتفرغ لصاحب المقام العالي، انتبه إلى المارة يُسارعون في التقاط خبر موت الزعيم ناصر. الزعيم كان له الفضل الكبير في حماية الخواجة فرحان من الطرد من مصر، كما طرد أبناء عشيرته من اليهود؛ كبار الدولة يحمون صاحب النبوءات، يسلمون أيديهم له، يلعب بأقدارهم: ستُنقل إلى أعلى المناصب، عدوك اللدود سيخرج من الوزارة، حتى هو، تذكر كيف أسعده بخبر ترقيته منذ أيام، وها هو الآن يأتي إليه طواعية؛ ليستمع إلى كذبة أخرى! خرج من تأملاته بصراخ امرأة في وسط الطريق، ترتمي تحت إطارات سيارة عابرة، وها هي أخرى تحاول القفز من النافذة. وفاة الزعيم ناصر، تلعب بوجدان الشعب كله! أسرع بالرحيل، يكفيه ما أصابه وما سيأتي في علم الغيب. تذكر "لطفی" صاحبه زعيم طبقة (البروليتاريا)، تمنى لقاءه. دلف إلى سوق "الترك"، أسطوات النجارة وتلميع الموييليا يفترشون الطرقات، لا يعيرون انتباهًا لسماع خبر موت الزعيم ناصر، تُحاصرهم ساعات اليوم؛ لإنهاء ما بأيديهم من أجل أن تمتد في آخر النهار للنقود القليلة، عسى أن تكفي ليوم آخر من حياتهم المتواضعة في كل شيء. اقترب من هدفه وصاحبه، "لطفی"، يجلس على جانب الطريق، يُنهي

عمل كوب الشاي، الشاي يفور، أسرع بإطفاء قطعة القطن المُشبعة بالكحول. كان عليه الصبر حتى يُكمل "لطفى" صب مزاجه الخاص. لم تصل يده بأول جرعة إلى فمه، التقطها منه وهو يضحك، لم يلتفت "لطفى" لصاحبه، ملأ كوز الشاي مرة أخرى، أشعل قطعة القطن المحاصرة بالبراغي الثلاثة، وضع كوز الماء بخليط الشاي. كان عليه الانتظار لفراغ صاحبه من احتساء الشاي المختطف. لم يصبر "لطفى"، اختطف هو الآخر كوب الشاي، ابتسم صاحب النظارة السوداء، جامد الملامح. كان في اشتياق لهذه البسمة؛ عسى أن ترد إليه ما فقدته خلال الساعات الماضية. رفع "لطفى" كوب الشاي:

- الآن حان تناولي لمزاجي الخاص.

لم يتبرم صاحب النظارة السوداء جامد الملامح، عليه الرضا بالخلع، خلع مسدسه الخاص، خلع من منصبه الهام. وهاهو صاحبه وزميل عنبره، زعيم طبقة (البروليتاريا) يخلع الكوب من بين يديه!

كان ينتظر تعليق زميل عنبره على رحيل الزعيم ناصر. "لطفى" لم يهتز، لم يترنح، كما ترنح وجدان شعب مصر! هو الصامد الساخر من تاريخ الأحرار، وشقاؤه المتواصل والمستمر ليل نهار لا يُمكنه من أن يرى أكثر من حياته الباهتة النافرة، المتمردة من كل شيء.

أنهى احتساء الشاي، أشار "لطفى" إلى أصحابه المتراميين على جوانب الطريق؛ استجاب زملاؤه إليه في ثوانٍ، التفوا حوله، لم يهتموا بمن يجلس

بجانبه، اهتمامهم وأبصارهم لعاشق ومعشوق (البروليتاريا). صعد "لطفى" على المقعد الخشبي، الذي لم ينته من تلميعه وطلائه، خلع قميصه العبك، نكش شعره، مسح وجهه بقطرات الشاي المختلط بتفل الشاي، كتم أصحابه أنفاسهم، صمت وترقب للزعيم، الأسطى "لطفى".

التفت الزعيم إلى صاحبه جامد الملامح بطيء الكلمات. كان يعرف صاحبه ماذا ستكون الخطوة التالية لـ "لطفى" عندما يصعد، الخطابة والانفجار في كل شيء، حتى هو، زميل عنبره. امتلكته الدهشة! ما زال أصحابه ينتظرون خطابه السرمدى، الذي أذف بإشارة "لطفى" زعيم طبقة (البروليتاريا):

يا حبيبتي يا روجي يا حُرِّية²
عطشان لك أكثر من المية
ده أنا ألف الدنيا برجلية
وهدومي أغسلها ياديا
وأفطر وأتعدى بطعمية
ولاحدش أبداً يتحكم فيا
المال والجاه ضحيت بيهم
وأنا مش ندمان على لياليهم
عايزيني أكون ملك أيديهم

² يا حبيبتي يا حُرِّية "مصطفى السيد" المطرب: "إبراهيم حمودة"

وأنا عايز أكون ملك إيديا
يا حبيبتي يا روجي يا حُرّية

تعجب صاحبه بقناعة زملاء الزعيم لكلمات الحُرّية، بدؤوا بالانسحاب
مُرددين:

- يا حبيبتي يا روجي يا حُرّية.. عطشان لك أكثر من المية.

الحنين والحب والأمومة، تدفعها دون أن تشعر بعواقب هذه الخطوات، لا يهم أي شيء في سبيل هذا اللقاء، لن تتراجع عن الارتواء بحبيبته، فلذة كبدها، ثمرة حبها الذي كان. كم عانت في سبيل سعادتها واستقرارها، سهرت الليالي في عذاب من أجلها؛ تُفكر وتخطط في الوسائل التي تبعد بنات الجيران عن زوج "ثرثيا". كم تشتاق لُقبة أو ابتسامة من أحفادها! كانت حريصة على هذه الزيارة صباح اليوم. لا تريد الصدام بزواج ابنتها، يكفي صدام ابنتها القادم، والآتي يبتعد عنها بخطوات قليلة لتصل إلى البيت. اطمأنت "شريفة"، مكان سيارة زوج "ثرثيا" خالٍ؛ إذا الزوج مازال بالعمل.

صعدت درجات السلم، لن تدق جرس الباب، ستدق بيدها، لا تريد إزعاج أبناء "ثرثيا"، تتمنى نومهم. لم تقدر على الصمود، ارتمت في حضن ابنتها "ثرثيا"، لم تخلص من العتاب والالتهام وارتعاش ابنتها وعُلو صوتها، ما أقساه من عتاب، وما أشده من عذاب! لا أحد يغفر لها أو يرحمها، هناك بين "لطي" وأولادها "علي" و"الملوم"، وهنا مع أول ثمرة حب كان! قلب "ثرثيا" لا يرى ولا يسمع ولا يسمح قدر أنملة للصفح أو ينسى للحظات. لا حيلة لديها للدفاع عن نفسها أمام أصابع الاتهام، كان عليها الانسحاب من مواجهة من ضحت من أجلهم بكل شيء؛ أيام عمرها وشبابها وشرفها.

- من أجل من فعلت كل هذا؟!

مرور السنوات لم تبتهت أو تزيل فعلتها المشؤومة. همست:

- عجيبة يا دنيا! تمجي عمري بأيامه وشهوره وسنينه وعذابه في لحظات!
انتبهت "شريفة"، أحفادها يهرولون إليها، لم تصبر "ثريا" لبعض لحظات
الحب بين "شريفة" وأحفادها، اختفوا بين العُرف، كان عليها الاختفاء
مثلهم، أمام رنين جرس الباب، اكتملت قسوة المشهد واللقاء.
زوج "ثريا" القادم، لم تسلم "شريفة" من سماع السباب لابنتها منه.
أسرعت بالمغادرة والرحيل الذي لا رجعة فيه. كانت تود الإفصاح لابنتها
بأسباب الزيارة.
"ثريا" أول المودعين من أسرتها قبل الفراق!

أزاح همه الكبير، ولو لقليل من الأيام. أغلق مفاتيح حبه ولذته، الاثنتان يُشغلان قلبه ووجدانه. أمه "شريفة"، وليلى الخرساء. اليوم لا راحة ولا حب، اليوم يوم الرحيل، رحيل الزعيم ناصر، وداعه إلى مثواه الأخير.

لم يستطع مغادرة الإسكندرية إلى القاهرة للمشاركة، كان في قناعة بتلك النهاية لناصر. حرب الاستنزاف أمام نكسة 67، أعادت المهمة المصرية لطريق الثأر وطيّ أيام النكسة. نظر "ملوم" إلى أصحابه، الجميع يشارك في احتفالية الوداع، "ممس" - المعيد بالزراعة - يتحدث في الميكروفون عن ناصر. كل الأصحاب يتهافتون في مشاركة هذا الوداع! شعر "ملوم" بالارتياح بعد أن أنهى لوحته، كتب بقناعة الحس الشبابي والوطني:

(رحل رسول السلام في أحلى أيام الإسلام)، الإسراء والمعراج.

كان يشعر بعظمة الزعيم في تصفية أجواء المنطقة العربية كلها، أهل فلسطين وحكومة الأردن وحُكام الخليج، الكويت. مشاق تحملها الزعيم حتى آخر أنفاسه. بالأمس كان في وداع آخر الملوك بعد وداع وفود وحكام دول الخليج.

أنهى "ملوم" مهمته بنجاح، اللوحة تُزين جدار الشارع، التفت إلى إشارة المعيد "ممس"، استجاب مع أصحابه، لم يعترض "ملوم"، "عبيد" يتلوا عليهم مقال "حسنين هيكل" "بصراحة"، أجاد هيكل بوداع الزعيم ناصر. لم يتبرم أحد أو يعترض، الجميع يؤيد كلمات هيكل عن لحظات موت الزعيم، ترحل

روحه مع زوال الشمس، يرحل نور الصباح ليأتي ليل طويل، الزعيم كان يُعاني أمراض قلبه وأمراض الوطن، رحل بقلبه المريض، وما زالت أمراض الوطن تنن!

انتبه الأصدقاء لضحكات صاحبهم "عز"، افتتح بضحكاته أبواب المؤيد والمعارض. ابتسم "الملوم"، خطوات "عز" تشبه عندما يصعد على درجات السلم، جاء ما توقع: "عز" يعلن الخبر الكبير:
- الزعيم مات بالسم ليس بمرضه!

أشار إلى "عبيد":

- عليك بحرق هذا المقال وهذا الكذب. لن تفيد أقلام الدنيا، لستر موت الزعيم؛ ناصر مات مسمومًا بأوامره هو، لا بغيره، ولكن بيد غيره! الماكر العميل! لن أفصح لكم أكثر من ذلك، كان بالأمس في وداع آخر ضيوف مصر من الحكام العرب، الزعيم عَلم بتعاونه مع أميركا، يتجسس على الرؤساء والملوك العرب، وكانت أسهل الفرص وأحسنها عند وداعه ورحيله. تُعد القهوة، تُقدم للزعميين باستراحة المطار، يهمس في أذنه أحد رجاله، يفهم المؤامرة، الزعيم يلتفت لأحد رجاله، تدور الأكواب، يحتس الزعيم فنجان السم والملك الضيف يحتس الآخر ويرحل إلى بلده. هذا هو الموقف بكل صدق، مقال كاذب خادع، كما حاول رجال ناصر خداعنا بانتحار المشير عامر.

لم يتفوه أحد من الأصحاب، أصابهم الخرس أمام كلمات "عز"، فقد سبقتها كلماته نبأ وفاة الزعيم قبل أن يعلن الإعلام بساعات عن الموت. قطع "عبيد" صمت الأصحاب، مزق "بصراحة"، صعد على درجات السلم، لم يعترضه الأصحاب من المدح والثناء على ناصر، قائد العروبة وزعيم الوطنية، وإن كانت هذه نهاية مسيرة حياته؛ شرف وكرامة وعزة للقومية العربية.

انسحب الأصحاب، التفت "الملوم" إلى صديق فكره، "ممس" مُعيد الزراعة. همس:

- ناصر ما زال هو المغني الأُحد لهؤلاء! شعب مصر لن يرفع جبهته ولو لأيام قليلة!

تائه، خطوات لا تعرف إلى أين؟! لن يذهب إلى شاطئ الأنفوشي، كفى ما تحمل من شكواه وتواترها. لحظات عمره في تواصل مع كل حبة من رماله، كل موجه من مائه لا تمل من متاعبه وأحواله.

مشاهد عذاب أمه "شريفة" تضوي بين جدران البيت. حبيبها الذي كان، يُعلن الحرب عليها! لا تقدر على المقاومة. "لطفی" الحبيب، ينوي الاستغناء، يرصد كل جوارحه بالقذف بـ"شريفة" إلى متاهات الغيب والاختفاء! لا سبيل لعودة الحب، ولا مفر من التقدم إلى الأمام، الماضي أُغلق، لا رجعة فيه، هذه هي شروط التعامل مع قمة الخيانة بعد أن يُداس الحب بأصابع غريبة ومشاعر مُفتعلة، تذهب أدراج الرياح مع لحظات لذة لا تدوم، شجرة صماء لا تثمر، جافة من كل شيء، تُعد للاحتراق.

اقترب "الملوم" من حديقة الشلالات؛ فرصة للاسترخاء والبحث عن رحيل لـ"شريفة". الرحيل إلى أين؟! "الخالة نرجس" والجارة "أم حلويات"، حتى "أم حربي" بائعته الحشيش، الجميع تخلّى عنها. نفدت حيله في جمع الشمل بين أمه و"لطفی". "شريفة" وقعت في شباك الرزيلة من أجل مَنْ؟! مَنْ هذا؟! لم يُقدّر قلة خبرتها في مسالك الحياة!

تُحل مشكلة اختفاء "لطفی" بمشكلة وحل الخطيئة التي تُنهي كل شيء. انتبه "الملوم"، خاله "صابر"، يُجالس امرأته بكازينو الشجرة. لم يتردد في الاتجاه نحوهما. مقابلة فاترة من خال وزوجه! يعاودان لحظات الحب! انسحب بدون كلمة وداع، الحال لا يسأل عن أحوال أمه، حتى لم يسأل عن

شقيقه "علي"! أحوال الخال والد، رحلت مع رحيل كل شيء في حياته! كان يريد الاسترخاء والراحة، راحته أصبحت بعيدة المنال.

التفت إلى القلعة المتواضعة الصغيرة، المشهورة بـ"قلعة جحا"، لم يأخذه الحنين إليها كما كان في الماضي، ماتت الذكريات ورحلت المشاعر!

اقترب من ميدان محطة الرمل، لن يعبر إلى كورنيش البحر، عليه السير بالجانب الآخر تحت مظلات المحلات؛ يحمي من حرارة الشمس، ويتنعم بهواء البحر.

توقفت خطواته! والده "لطفی" يجلس تحت عتبات الزعيم "سعد زغلول"، نائم في ظل أقدام الزعيم! لا يدري ماذا يفعل! هل يذهب إليه؟ أم يمر مرور الكرام ويختف؟

كان القرار بالإسراع والعودة إلى أمه "شريعة".

نظرت حولها، العُرف تكسوها الأتربة، هنا كانت تُجالس أولاهها: "ثرىا" و"علي" و"لملوم". هناك فراشها مُرتب، يئن من حرمان اهتزازهِ وفركشة أغطيته، لا بلبل ولا لزوجة، تائه عن الآهات والتأوه مع مَنْ لفظ كل الحب، وهجر كل السنين بكل ما فيها!

التفتت إلى النافذة المغلقة، لم تقترب منها، عليها الآن الاقتراب من باب الرحيل الأبدي، لا عودة إليه ولا سبيل في محاولة طرقة مرة أخرى. راجعت الحقيية، أخذت كل ذكرياتها، لم تترك شيء يُذكَر "لطفى" الحبيب بها. كانت تتمنى لقاء ولديها: "علي" و"لملوم". لا سبيل لـ"علي"؛ ميعاد أجازة الجندية لم تحن بعد. "لملوم"، لا تعرف أين مكانه! يكفيها أن تشاهده، بدون كلمة وداع.

أغلقت الباب خلفها في هدوء دون أن يشعر بها أحد من الجيران. لن تذهب لوداع ابنتها "ثرىا" وأولاهها الصغار، يكفي عذاب آخر لقاء، كفى ما تحملت من سب وقذف ومهانة من زوج ابنتها "ثرىا".

لم تنظر خلفها في نهاية ميدان المساجد. لم تتوسل إلى أولياء الله الصالحين. لم ترَ أية كرامات منذ أول خطوات سكنها بالجوار معهم! الآن هي في طريقها لتكون مثلهم: ذكرى وتاريخًا.

كانت تريد اختصار الطريق من خلال شارع فرنسا، لم تلتفت إلى محلات وورش الموبيليا أصحاب "لطفى"، عرَّجت إلى الشوارع الخلفية، أخيرًا ظهر شاطئ البحر بأسواره العالية، لا تشاهد ماءه، يكفيها هواؤه وروائحُه.

اقتربت من ميدان محطة الرمل وحدائق الزعيم "سعد زغلول". كانت تعرف
 بغيتها وهدفها؛ مقابلة "لطفی". لم تقدر على الثبات أكثر من ذلك، أطرافها
 تهتز، أقدامها لا تقدر على حملها أو التقدم إلى الأمام، "لطفی" الزوج
 والحبيب يجلس أسفل أقدام سعد الزعيم تحت حرارة الشمس وسخونتها،
 لم تلتفت إلى زوجها، نظراتها إلى الزعيم النحاسي الشامخ المَعْدَب بين
 أحضان السماء، لا حيلة له إلا النظر ومشاهدة ما يجري بينها وبين مَنْ
 هجرها. جلست بجانب حقيبة الرحيل، لم تقترب من "لطفی"، الآن جاء
 وقت كلمات الدفاع والرحيل في آن، خلعت الايشارب من شعرها، هبط
 شعرها الأسود كأمواج البحر بخطوطها البيضاء، حسرت ذيل فستانها، ظهر
 بياض شواطئها المَعْدَبَة، لم تكتفِ بذلك، بدأت بهمس قلبها المعذب
 لحبيبها الذي خان:

العشرة هانت. هانت عليك³

والدنيا هانت عليا

قلبي اتحرق بين إيديك

وأنا الحبيبة. أنا الحبيبة

أنا الحبيبة الوفية

دي حياتي كانت عنيك، وأنت قريب من عينا

وكنت أنا الوردة الندية، يحمي فؤادك هواها

³ (العشرة هانت عليك) "أبو السعود الإبياري" "فتحية أحمد"

ترميني ليه؟ ترميني ليه؟
وكننت أنا النسمة الهادية
يسعد حياتك هواها
تنساني ليه؟ تنساني ليه؟
وتفوتني في الدنيا غريبة
لا حبيب يواسي ولا حبيبة
غير قولت آه. آه
حيرانة أبكي على حالي
وأدوق من المرليالي
أشكي لمن غدرك؟
وأنت الي كنت أشكيله
وأحكي لمن هجرك؟
وأنت الي كنت أحكيله
صبحت بعدك وحيدة
والصبر ألقاه فين؟ ألقاه فيه؟
أنا التعيسة الغريبة
أجيب لي بخت منين؟
أجيب لي بخت منين؟
أجيب لي بخت منين؟

التفتت إلى حبيبها الذي خان، "لطفني" لم يتحرك من مكانه، لم تهتز أطرافه،
صامت مثل حبيبته وظله وصاحبه سعد الزعيم! لم تشعر بالتفاف زوار
الزعيم "سعد زغلول" حولها. أشارت إليه، لم يلبِ حتى بإشارة من يده!
اتكأت على كتفه؛ عسى أن يغفر لها.
سقط على عتبات الزعيم!
صرخات الفراق تقتلها.
حملت حقيبتها متجهة إلى شاطئ الذكريات.

"ثلاثية الأنفوشي"

أبكتني نهراً
الجزء الثالث

التفت إلى زملائه بمنطقة التجنيد، الرهبة والفرع تكسوان الوجوه، إلا هو "ملوم" البائس الهارب من عذاب أمه "شريفة"، وشقاء والده "لطفى".
يوم آخر يمر في معسكر التجنيد، ينتظر توزيع سلاحه، لم يقدر على الصبر أكثر من ذلك، كان عليه الرحيل هو الآخر، حياة لا تطاق، لا أحد يُسامح أحداً، ولا أحد يعذر أحداً!

"لطفى" هو سبب مشاكل أمه "شريفة" كلها، نعم.. الدنيا ذهب بهاؤها وجمالها.
العصا الغليظة هي سيدة الموقف، ذهب ناصر وأقى الآخر مُحملاً بأطياف مختلفة من رفيق سلاحه، خلع رداء العسكر، التحف برداء الإيمان والتقوى والصلاح! تلون الخطاب من بدايته! لكن هل سيكون النجاح حليفه بتلك المشاهد الإيمانية؟

الغليون مُعلق في فمه، وسيدة مصر الأولى، تبعد بُعد السماء عن صفات نساء الشرق! الزعيم ناصر نجح في الغناء على شعب مصر.. هل سيغني الزعيم المؤمن أم يُرتل ويصل؟ الأيام هي خير وسيلة للترقب والانتظار بمدى موهبة الزعيم المؤمن في النجاح مثل صاحبه ناصر على شعب مصر!

وها هو حظه الأسود يُرافقه مثل ظله وخياله الذي لا يُفارقه! كيف حدث ذلك؟! صديق عمره "ممس" المعيد بكلية الزراعة، خاله العقيد بالقوات البحرية يُصاحبه إلى معسكر التجنيد. تحدث المصيبة الكبرى! سيارته تدهس طفلة في الطريق! يتشاءم العقيد، ينسحب من مهمة التوصية عليه للتوزيع بالقوات البحرية، يأمره بالذهاب إلى المعسكر، الآن لا توصية ولا

عقيد في انتظار معرفة سلاحه. كم تمنى القبول بالقوات البحرية بقاعدة رأس التين، مسقط رأسه ومولده وذكرياته بكل ما تحمل من رياحها المختلفة، نعم كان يود الرحيل إلى أقاصي ربوع مصر، لم يقدر على مواصلة الرحيل، تجبن عواطفه، يخر راکعاً في حب قمره المُكتمل أبوه "لطفی" وشمسه الساطعة أمه "شريفة".

اليوم الثاني بالمعسكر يكاد ينته ولا سبيل لبادرة خير تأت مع نهايته، ألسنة العسكر أشد من السياط بألفاظها في شق الكرامة ولعنة الأمهات والآباء! لم يستطع "ملوم" الصبر ولا تحمل السباب، وحرارة الشمس الحارقة تحترق رأسه هو وزملاؤه.. بينه وبين الحياة هذه البوابة الحديدية وحراسها أصحاب القبعات الحمراء. بضع خطوات تفصله عن الحياة المدنية وما بها من روائع الكرامة والشرف، بل الرد والدفاع. بوابة خادعة بشعاراتها ورايتها الزائفة!

انتبه لأوامر العسكر بالوقوف لسماع توزيع السلاح، لم يتبرم من سلاحه، رحلت القوات البحرية، سيلتحف بالبدلة الصفراء، الصحراء أصبحت موطنه لقضاء مدة خدمته، البدلة الزرقاء رحلت بشواطئها ومياها بدون رجعة، مثل رحيل العقيد بتوصيته والتي ذهبت في مهب الرياح.

التفت إلى زملاء سلاحه، سلاح لم يسمع عنه من قبل! لم يتعرف أحد منهم على نوع هذا السلاح! انتبه إلى إذن العسكر بالمغادرة والعودة ليوم الرحيل،

لم يشارك زملاءه الفرحة، خمسة أيام! مفاجأة كان يظن أن ليلتان تكفٍ لمغادرة الإسكندرية وشواطئها ورمالها البيضاء، خمسة أيام؟ خمسة أيام! يا لها من أيام بما تحمل من المجهول، حاول خِداع خواطره، ستأتي أول مواجهة يخشاها، شقيقه "علي" وصده عن هذه الخطوة، وأهمها فرصة عدم الدخول بالعسكرية، هو وشقيقه لا ثالث لهما، هذا ما أيده رقيب المعسكر، قوانين الجندية تسمح بالإعفاء والتأجيل حتى يخرج الشقيق، ليدخل الآخر. لم يرغب في اعتلاء ترام الحضرة للعودة، كان في حالة توحد مع فكره بعيداً عن النظرات والتصنّت لحديثه وتأمل حالته التي لا يعلمها إلا رب السماء وهو.

وقف أمام وكالة الحضرة، بورصة الخضروات والفاكهة، ما زال البيع والشراء على قدم وساق. لم يتردد، اندس بين الحمالين، هذا هو الحل للحصول على بعض النقود نظير حمله الأقفاص والأجولة.

انتبه لاقتراب غروب شمس النهار مع غروب الأحمال، حاول طمس علامات الحمل من على كتفيه، لم يفلح، كما كان حاله أمام صراف الأجور من نظراته إليه والفحص من أخص قدميه إلى شعر رأسه، كانت ابتسامة الرجل توج بمدى شفقتة على حالته. قبض على النقود، كانت أكثر بكثير من الحمالين زملاؤه، بادلته بكلمات مع ابتسامة تعبر عن مرارة الموقف،

تحاش مواجهة نظرات الصراف، كانت فرحته ليست بالنقود، لكن لأنه ما
زالت الفرص مواتية له للعمل في الأيام المقبلة.
أسرع بالرحيل، لا يريد أن يفتح باب التعارف، حتى ولو بمعرفة اسمه.

فتح عينيه، ضوء النهار يصده عن فحص ما حوله، نوافذ كثيرة، عنبر شبيه بمكان.. لا يقدر على تذكره..! تحسس النافذة، لا توجد قضبان الحديد السوداء، فشل في معرفة أين تلك النوافذ؟! بل أين تلك القضبان؟ برز برأسه في الهواء الطلق، سعد بمشاهدة المارة دون القضبان الحديدية السوداء، ما زال الفشل حليفه في معرفة أين تلك النوافذ، التفت إلى السرائر البيضاء وهؤلاء النزلاء، حاول أن يتذكر كيف أتى إلى هذا المكان؟ لم يفلح في لممة أفكاره، عجز عن المواجهة وإجابة السؤال، حتى من أقرب ساكن للفراش بجانبه، كان عليه الانتظار والصبر.

الصبر نزيل حياته التي لا يعرف عنها غير هذه الرائحة، رائحة الصبر التي تهب عليه وتحتويه في هذه اللحظات المُحملة بالجهول. كانت دهشته من تلك الأصابع المدموغة بألوان الدهان، أي دهان! لم يفلح في معرفة ما الذي أصاب كفيه! رائحة الكحول تزكم أنفه، خطوات الفشل في إجابات تبتعد عنه، تغيب، لا يستطيع الاقتراب منها أو العثور عليها.

انتبه إلى خطوات الحساء البيضاء، تقترب منه، دلال وجمال، والعيون الزرقاء، ابتسامة ساحرة، تهز شغفه بكل قوة وقسوة إلى حب لا يعرف أين ذهب؟! وجه يشبه إلى حد كبير هذه الفاتنة، بلباسها الأبيض ورشاقتها الساحرة، لم ينتبه إلى النداء:

- "لطفي"، يا عم "لطفي"

نفذ صبر الفاتنة البيضاء، ناولته المحفظة الجلدية، صورته بارزة، بطاقة تحمل اسم "لطفی"، قلب أوراقها، هاهو اسم الزوجة: "شريعة"، تلا أسماء الأبناء: ثريا، علي، ملموم. ذاكرته تعود إليه في سبات الموتى وسكون الصمت. لم تتبرم الحسنة ذات العيون الزرقاء، ما زالت تصبر عليه، الآن فهم من هو. "لطفی"، وتلك امرأته، وهؤلاء أبنائه. لم يصمد أمام ارتعاش يده، تاريخ ميلاده تاريخ بعيد؛ يتعد عن حاله وحالته الآن، أسماء من يدعون أنهم أبنائه وامرأته، لم يصبر أكثر من ذلك، ابتعد عن الحسنة، دلف إلى دورة المياه.

حقيقة أمره تظهر الآن، المرأة تفضحه، قسماً وجهه تصفعه في مقتل.. فروة رأسه خليط من الليل الأسود والنهار الغارب، تجاعيد جبهته بما تحمل من الغلب والشقاء، تحسس أنفه البارز كمنقار الغراب، يتوه مع ابتسامته البائسة. عاود النظر عسى أن تصالحه وتحسن من هيأته، لم يفلح في الضحك، عليه إزالة الأتربة من عليها، ما زالت تُصر على كشف سوء حياته المعذبة وقسماً وجهه وتجاعيد الزمن، لم تمن عليه إلا بهذا الرجل القادم من خلفه، التفت إليه، كم يشبهه، خذلته الذاكرة كما خذلته أمام أسماء تلك البطاقة، أحس بالهدوء يعود إليه، الرجل يصبر عليه في تساؤلاته وحيرته، ينصت إليه باهتمام، لم يفلح صاحبه في إخفاء اندهاشه أمام ذاكرته المفقودة لذلك الحد! أخرج أول كلماته:

- يداك تحمل علامات الصانع الماهر، تعمل في دهان الموبيليا، رائحة الكحول تفوح من بين أصابعك، أظافرك تكسوها الصبغة الحمراء والسوداء والصفراء.

لم يتبرم من انسحاب الرجل، انتبه.. وجبات الصباح توزع على أمثاله بالأسرة، نزلاء العنبر لا يعرف أحدهم الآخر في تلك اللحظة، كان عليه هو الآخر المشاركة في الانتباه لتلك الوجبة بما تحمل من البيض المسلوق وقطعة الجبن مع شرائح الخيار والخبز الأبيض الطازج. لم يدرك لماذا أزعج البيض المسلوق بجانبه، لم يرده مع طاولة الإفطار، لم يصمد أكثر من ذلك، هل تأت الإجابة من الرجل القادم إليه، كم يشبهه؟ ما زال خائبًا خاسرًا مفتقرًا للإجابات، كان مُصر على أن هذا الرجل يشبه الآخر، مَنْ هو يا ترى؟ كلمات مختصرة تخرج:

- أنت حضرت فاقد الوعي من عدة أيام، نفس صناعي ومحلول في يدك، وأنت ما زلت لا تدرك بمن حولك، لم تنهض من فراشك إلا صباح اليوم، عليك بمراجعة حافظة أوراقك؛ عسى أن تجد مَنْ يهتم بك.

قصاصات من الورق كثيرة باهتة صفراء، أشار إليه صاحبه، أرقام تليفونات، أخذه من يده، لم يعترض من إتباعه عبر ردهات وحجرات وعنابر المرضى، فشلت محاولات عامل السويتش من تكرار طلب (نمر) قصاصة الورق، لا أحد يرد، ولا تأت إجابة، لم يشعر بالفشل في محاولة الاتصال، كما لم يتأثر بفقد صاحبه، اختفى في ثوان!

عاد إليه سؤاله، كم يشبه هذا الرجل؟ لا يجد إجابة!
 جلس على فراشه، ما زال البيض المسلوق بجانبه، انتبه إلى ملاك الرحمة،
 بثوبها الأبيض وجسدها الأبيض وعيونها الزرقاء، لم يتأثر من النهاية،
 عليه الآن مغادرة المستشفى، سعد بمدى تأثر ملاك الرحمة بتقديم المعاونة،
 تحسس جيبه، أخرج من بنطاله النقود الورقية، لم يكتف بالنقود، أخرج
 من بنطاله كسرة الخبز، كانت ابتسامتها خاتمة للوداع، كم تمنى أن
 يكون الوداع ساخن دافئ حار في حضن تلك الفاتنة الصغيرة! التقط
 البيض المسلوق وضعه في بنطاله مع كسرة الخبز، لم يلتفت إلى جاره
 بالفراش، تجاهله حتى بكلمة شكر أو وداع!

مر عبر بوابة المستشفى الحديدية، لا جنزير حديدي ولا حارس! حرية
 كاملة للخارج والداخل. لم يفلح في لممة ذاكرته عن البوابة المغلقة
 بالجنزير والقفل والحارس أين كانت؟ حتى هذا صاحب المتابع لخطوات
 خروجه من خلف النافذة، لم يهتم بنسيم شاطئ الكورنيش وحديقة
 الزعيم سعد زغلول، لن يسترح حتى يعرف مَنْ هو؟ وما تلك الأسماء
 "شريفة" "الملوم" "علي" "ثرثريا"؟ حتى الاسم الذي لُصق به: "لطفى"؟ لم ينتظر
 أكثر من ذلك، أخرج حافظة النقود، راجع قصاصات الورق، قبض على أول
 خطوات البحث، عنوان ما زال مُحْتَفَظ بثبات أحبارهِ، شارع خالد بن الوليد،
 منزل الحلواني، شقة رقم واحد، الخالة نرجس.

قفز بترام الرمل، شعر بالارتياح، ذاكرته تعود إليه لكن ببطء، وأولها ترام الرمل وسيدي بشر وخالد بن الوليد، أما الخالة نرجس ما زالت بعيدة بعدد محطات الوصول إليها، والصبر حق اللقاء، والجوع المهاجم لمعدته الخاوية، البيض المسلوق وكسرة الخبز في بنطاله، لماذا في بنطاله؟! وما تلك الكسرة من الخبز؟ ولماذا يحتفظ بالبيض المسلوق؟

أزاح أسئلته، طوي صفحتها، كان ينظر إلى محطات الترام، تتواتر أمامه الإبراهيمية، كليوباترا، سيدي جابر، جليم، سان ستيفانو، سابا باشا، أخيراً سيدي بشر. هبط من الترام، التفت إلى الشارع المنحدر الواسع الطويل، لن يسأل عن منزل الحلواني وبيت الخالة نرجس، ترك الذاكرة تعود وتذهب به إلى غايته. عليه أن يتألم ويعاني هذه العودة الغائبة لذاكرته المفقودة.

ارتعش أمام هذا المنزل وهذه النوافذ المغلقة، الآن حانت الفرصة لبوابة حياته الهاربة أن تفتح وتعود إليه، دقائق معدودة ويعرف من الخالة؟ ومن هو؟ ومن "شقيقة"؟ لم يصبر أكثر من ذلك، ضغط على زر الجرس، رنة واحدة، فشلت أصابعه في معاودة الضغط، مرت اللحظات كأنها ساعات، بل أيام وليالي، لم يشعر بالارتياح مع صوت فتح المزلج، بل زادت دقات قلبه وانفلات أعصابه! ما هذا الوجه؟ ومن تلك الفاتنة؟ مثل جميلات هوليد حبيبات فراشه ولياليه الخالية، الدنيا كلها تشارك فرحته باللقاء، هذا الوجه وهذه الفاتنة، لم تصمد أمامه، سقطت على الأرض مَغشياً عليها!

الظلام ينسج خيوطه على الحجرات، نافذة الشارع الوحيدة مغلقة تكسوها الأتربة، رائحة هجر المكان تزكم الأنف، سكون المقابر يُكمل المشهد، لم يخلع حذاؤه العسكرية من قدميه، كان "علي" يتمنى أن بعد غيابه الذي طال بجبهة القنال يرى ولو القليل من الفرحة، لمة أسرته الحزينة مرة أخرى. لا أحد، الجميع غائب، أمه "شريفة" ووالده "لطفي" وشقيقه "الملوم". لم يفكر بالذهاب إلى شقيقته "ثرثيا" بمنزلها الجديد بشاطئ ميامي، كيسة نقوده لا تكفي المواصلات وبعض الحلوى لأولادها، عليه الانتظار.

أمال جسده المنهك وعقله المشتت على أريكته، بين العودة إلى معسكره أو البحث عن غياب الأحبة أسدلت جفونه دهاليز الحيرة ومسرحه الصغير الفاقد لأبطال مسرحيته الحزينة، رحل مع النوم، صديقه الوفي. النوم، يحتضنه في كل الأمكنة، لا يفرق بين معسكر وبيت.

لم ينعم بالنوم، مزلاج الباب يتحرك، شاركت نبضات قلبه حركته، كان يتمنى أن يكون القادم أحد أحبابه: أمه "شريفة" أو "لطفي" أبوه. لم يخطر على باله أنه شقيقه "الملوم".

عَلِمَ بالمصيبة الكبرى، رفض كل مبررات "الملوم" لإقناعه بهذه الخطوة السوداء من التقدم للجنسية وتأدية الخدمة الإلزامية، الآن لا مفر من الصبر وتحمل الأيام القادمة، ليس له وحده، لكن هو وشقيقه "الملوم"، لم يتحمل "علي" نبأ اختفاء أمه وأبوه في وقت واحد، كان على قناعة بإجابة "الملوم" بوجوده بمعسكر التجنيد، ولا حيلة له بالبحث عن والديه.

أزاح فكرة العودة إلى معسكره في نفس الليلة، خلع البيادة من قدميه، عليه البحث عن ملابس النوم، ومراقبته لشقيقه وهو يحضر وجبة العشاء.. كم اشتاق إليها في معسكره، الفلافل والبقول المدمس والخبز الطازج وقطع الجزر واللفت والبصل المملح، كان يتمنى تكملة مشهد الإمتاع بأكواب الشاي، فأكهة الفقير كما ينعتها أبوه "لطي"، اكتملت الفرحة، "ملوم" قادم بأكواب الشاي، ارتشف الشقيقان الشاي في صمت البكاء وفقدان الأحبة. لم يخبر "ملوم" شقيقه برحلة صباح الغد، الذهاب معًا للخالة نرجس؛ عسى معرفة شيئًا عن إحدى والديه. نظر إلى رحيل شقيقه في سبات النوم، تمدد هو الآخر على الأريكة الأخرى في عُرفتهم.. فكم عانى الصبر على شقيقه في شخير كل يوم. تبدلت الأحوال، يتمنى أن يسمع الشخير كل يوم وليلة، لا يريد رحيله ولو ليلة واحدة.

تتكئ على عصاها، رحل كل شيء، صحتها وعنفوان بهجتها بالحياة والأمل، حتى بصيص النور ذهب، لا تر إلا الظلام يحوط بخطواتها المهتزة والمتردة في أن، حاسة السمع ما زالت معها لم ترحل كما رحل الآخرين.

أمسك "لطي" بيد الخالة "نرجس" قبل أن تصطم بالحائط، جلست بجانبه، كان حديثها مفتاح عودة الذاكرة إليه، عرف من هو، ومن تلك المرأة الفاتنة بهزات أردافها تتحدى راقصات الطبل البلدي، إيقاع أردافها يغني ويشيع نظرات الرجال! "شريفة" حبيبة قلبه، أول من أشبعه بالحُب الحلال، أول من أهده أولاده "ثريا" و"علي" و"لموم". لم يشعر بالحرَج وهو يُتابع حركاتها بين الغرف. الخالة لا تر شراهة نظراته المُتعطشة لأبواب الحب الكثيرة في امرأته "شريفة"!

مرت عليه ساعات الليل كأنها حلم لا يريد أن يغادره. أنهى احتساء كوب الشاي، ذاكرته في قمة الانتعاش، الآن تذكر صاحبه في المستشفى، كم عاونه في معرفة من هو، هو كثير الشبه بصاحبه زميل عنبره بمستشفى الأمراض العقلية، صاحب النظارة السوداء، جامد الملامح، صاحب المقام العالي في إدارات الأمن، وكم تشبه بوابة خروجه من دار عودة الذاكرة بوابة عودته للحياة! الفارق هو الحارس والجنزير الحديدي. حاول بقدر ما يستطيع أن يفض الطرف عن صفحات غياب امرأته وفعلتها المشؤومة، عليه أن يخدعها بنسيان ما مضى من كل شيء، ابتسم إلى "شريفة"، بادلتها بنغرها السحري الملتهب في جميع الأوقات، ألفت إلى الخالة "نرجس"

وحديثها عن أولاده "ثريا" و"علي" و"ملوم". لم يفلح في إجابته. "علي" بالقوات المسلحة. سيبحث عن "ملوم" عند غروب شمس النهار، فما زال لم يتعافى من حرارة شمس حديقة الزعيم سعد زغلول، هدأت الخالة برد "شريفة":

- نعم عليه أن يتحاشى التعرض لحرارة الشمس، كفى ما نال منها.

استجاب للخالة، عليها الذهاب لغرفتها، أمسك "لطفی" بيدها اليمنى، شاركته "شريفة" في يدها اليسرى، كانا يؤمنان على دعوتها لهم بلم شمل العائلة.

سرح "لطفی" مع ذكرياته، تذكر ليلة زفافه، تخرج عليه "شريفة" من غرفة النوم بالقميص الحريري، تتحدى فائنات هوليود حبيبات فراشه العفن الرطب في بيت أمه، همس:

- يا لها من ليلة! يا ترى، هل من عودة لتلك الليلة وعذوبة الحب؟

نظر إلى ساعته، ما زال من الوقت الكثير للخروج والبحث عن ولده "ملوم"، انتبه إلى نظرات امرأته، يعرفها ويعرف كيف تغوص في أعماق ودهاليز عقله، اقتربت منه، بادها الاقتراب، أجنحة الرغبة ترفرف، تُغرد، ترقص، يغني قلبه، يخرج من صميم أحشاؤه، صوت نجاة، نوجا حبيبته، يا هاجر بـجبك يا هاجر بـجبك، ما أحلى حنان حضنها الدافئ، ما أحلى رشفات ثغرها الحاني، ما أحلى وما أحلى، كلها حلوة ممتعة ساحرة، عاهرة بكل ما تحمل من حب، لم تشعر "شريفة" بحلاوة حب "لطفی"، سرحت في حب آخر، الحاج نجاتي صاحب المصبغة ومحاولته في الغور والقفز في صدرها المرمري النافر،

ورجل الأمن الذي دارت مع دوران حبه، أنهت استمتاعها معه بالحب، بالليالي بيت العاهرات في بيروت مع الرجل المهم.

نهضت "شريفة" مع دقات جرس الباب، اعتدل "لطفی" في جلسته المفعمة بالحب ورائحته الفائحة بين طيات ملابسه، لم يستطع "ملوم" الصبر على اللقاء، ارتمى في حضن أمه "شريفة"، أسرع على في صدر "لطفی"، ارتعش قلب "لطفی"، ولده "علي" يتشمم ملابسه، أسرع "لطفی" بإخراج البيض المسلوق من بنطاله مع كسرة الخبز. ابتسمت "شريفة"، لن ينفصح أمرهما بين ولديها، رائحة البيض أنقذتهم من الحرج.

لم يعط ظهره له ولو لمرة واحدة، لا يشبع من النظر إليه، يحن إليه صيفًا وشتاءً، رماله البيضاء تضوي مع نور القمر، أمواجه تسبح في كل وقت، شاطئ الأنفوشي، جوهرة بحري التي لا تحتف من على رؤوس أهله وأحبابه، الآن يودعه أحد مريديه وعُشاقه.

"ملوم"، لا يستطع الحراك أو النهوض من بين رماله، كان يتمنى الأنس بإحدى حبيباته، "ليلي" الخرساء أو "بيحة" حبيبته الغائبة غياب الموت، لا أثر لها، اختفت برحيل حبيبها الاسكافي بالمقابر، أصبح ذكرى، جثة محشورة بين المقابر، لم يعثر عليها، يأس أهل الحارة وأهلها من العثور عليها، قلب "ملوم" ما زال ينبض إليها، يهمس إلى ماء الشاطئ يتمنى الإجابة! أين "بيحة" بشعرها الأصفر وجسدها التحيل وعيونها الخضراء؟

حاول أن يزيع حبه المرمري الأبيض وطراوة صدرها الأبيض، فينوس زقاق بندقة الخرساء، ذهبته هي الأخرى، ذهاب لا رجعة فيه، لؤلؤة مدفونة بين المقابر، تركته بين آلام الرحيل وعذاب موتها على يد شقيقها، تأت بنهاية متعة الحب بينها وبين "ملوم"، الجالس الحائر بين وداع الشاطئ ووداع "بيحة" وفينوس!

كان يتمنى ألا يبرح الشاطئ، لكن حانت ساعة الوداع، فغداً الرحيل إلى القاهرة مع زملاؤه العسكر لمركز التدريب بالجبل الأحمر، عرف سلاحه من شقيقه "علي"، سلاح الإشارة، سلاح الكعب العالي كما يُسمى هناك.

الآن بعد لم شمل أسرته مرة أخرى، يتمنى أن يُوزع تجنيده في حبيبته الإسكندرية، وعده "لطي" بالمحاولة مع رؤسائه بقاعدة رأس التين، دائماً يتوددون له من أجل تلميع أثاث مكاتبهم، لم يترنح من ابتعاد خاله "صابر" في السعي هو الآخر، انكشف سر خاله:

- لماذا تريد الإسكندرية والقوات البحرية؟

تأتِ الإجابة:

- لتكملة تعليمي

يتبادل الخال النظرات مع امرأته، يترجمها "ملوم"، الخال لا يريد أن يتساوى أبناء شقيقته مع أبنائه!

انتبه "ملوم" لصوت الشتائم والصياح بين الكبائن، "السيد النجرو"، فتوة بحري يترنح من احتساء الخمر، عجز بسيفه ومهارته في الدفاع عن نفسه أمام عصابة كرموز، حانت الفرصة لتنتقم منه شر انتقام، يُقطع على الشاطئ وبين الرمال! "بدر" الفتوة وعصابته، يغمسون سنان السيوف في أنحاء جسده النحيف، لم يقدر أحد على الاقتراب منه، ينتظرون بين لحظة وأخرى سقوطه على أرض المعركة، لا أحد من أهل حارته أو أصحابه يتواجد في ساحة القتل، الجميع اختفى! لا يستطيع "ملوم" التقدم بضع خطوات. ينتظر، عسى أن يرحل أشقياء كرموز من أمام الجثة التي في طريقها إلى الزوال!

"النجرو" شقي بحري، الآن تطوى صفحات حياته الممتلئة بكل مواقف الخير والشر في آن، ارتعش "ملوم" أمام نظرات فتوة كرموز "بدر"، كانت ابتسامته تزأر كزئير الأسد، تجاهل "ملوم" نظرات تلك الابتسامة الشيطانية، انسحب مع عصابته، تواروا خلف الكبائن، لم يدر "ملوم" ما العمل؟! لا حيلة له إلا أن يتقدم إلى "السيد النجرو" المكوم في دماؤه، خلع سترته، غطى بها هذا الجسد الراحل إلى العالم الذي رحلت إليه أغلى حبيباته، فينوس الخرساء، حبه الذي كان.

كم يشقى القلب، وكم تنوح العيون، وكم تشتاق الروح، وكم ساعة
للانتظار تحت حرارة الشمس وعذاب الأعين الراصدة لها!
"شريفة" تتحمل كل تلك الرياح؛ في سبيل مشاهدة ولو نظرة واحدة
لأحفادها أبناء ابنتها "ثرثيا"، في طريق العودة من مدارسهم.
ممنوع الاقتراب وتلاقٍ البسمات، لم ترضى بموقف "لطفى" لتعفو عنها، حتى
زوجها لم يعفو هو الآخر، ابنتها "ثرثيا" لم تتعلم منها كيف السبيل إلى
إقناع الرجل وفتح شهيته إلى حبها الطازج الذي لا ينضب وجريان لعب
حبه الدافئ بالعفو والمغفرة، تابعت "شريفة" حارس المدرسة يعطٍ أولاد
ابنتها الحلوى والعلكة التي تعشقها حفيدتها "سلوى"، تتقاسم مع شقيقها
الحلوى والعلكة، سعدت "شريفة"، الحفيدة تحن على شقيقها الصغير، كم
تشبهها الحفيدة مع شقيقها صابر، تحرم متعتها من مذاق الحلوى، يلتهما
الشقيق، هي تنظر إليه تمتلئ بسعادة أكثر منه، الآن يعاد المشهد بين
أحفادها، همست:

- يا هل ترى سيكتمل المشهد بتخلي شقيق سلوى كما فعل صابر معها؟!
كان عليها الصبر في توارى الأحفاد بين التلاميذ، أسرع بتلاوة آيات
الشكر لحارس المدرسة، لا يعرف سرها الشائن والمعيب من جراء عدم
الالتقاء بأحفادها مباشرة، أقنعتة بإجابتها: زوج ابنتها في ظن دائم أنها
وراء مشاكله التي لا تنتهي بينه وبين امرأته!

الآن عليها البحث عن جارتها "أم حلويات"، رحلت هي الأخرى إلى منطقة سيدي بشر قبلي السكة الحديد، ابتعدت هي وأولادها عن الرياح العطرة بشاطئ الأنفوشي، أجبرت من أولادها بالطفو على سطح الأرض! كفى الحياة وراء شمس النهار وقمر الليل، البدروم، هو وزنانات المعتقلات سواء، كما كان يسميها زوجها "لطفى"!

لم تعتمد على قصاصة العنوان، يكفيها عناء البحث، محلات العم مورييس، بائع السجاد والمفروشات، صاحب دفتر البيع الآجل، "شريعة" و"أم حلويات" إحدى زبائنه بالأنفوشي، هو الدليل لشقة "أم حلويات" الجديدة، انتبهت إلى اقترابها من المحلات، العم مورييس ما زال يدخن النارجيلة، لا يتركها من فمه إلا بقدم من يهتم به، لفظها من فمه أمام خطوات "شريعة"، أشار بيده، "أم حلويات" تماسك بعدم القفز من النافذة لترحب بجارتها "شريعة" العاهرة!

الوداع، باي باي الإسكندرية حبيبتى.
 تغنى قلبه بكلمات الوداع، لا متلصص ولا متصنت على هذا الحب المعذب
 مثله، يسمع أنين رناته: بلاش تفارق، بلاش تفارق، خليك هنا خليك.
 حاول "الملوم" أن يتماسك بين زملاؤه في سيارة الترحيلات من معسكر
 الحضرة، دقائق وتصل العربات إلى محطة سيدي جابر، التفت إلى آخر
 مشاهدة للحبيب وأواجه العالية، تقفز فوق أسواره العالية، تتحداها، لا
 تريد رحيله، أشار إليها بأصابعه المهتزة مع اهتزاز سيارة الرحيل. التفت إلى
 بوابات المحطة، ظلام يرفرف عليها، تكشف عبوس ملاحها على هؤلاء
 المسافرين: فلذة أكبادك يا ماريا في طريقهم إلى ليالي وسنين في كنف
 المجهول. التفت إلى زملاء دفعته بالجندية، بحت أصواتهم بأغاني الوداع:
 - هون علينا هون، كرامة للنبي.. كرامة للنبي، هون علينا هون، كرامة
 للنبي.

لم يشارك في الصبح بالأغاني، كان عليه الحفاظ على كرامته في أيام خدمته
 العسكرية، لم يبخل عليه شقيقه في بيان ما له وما عليه بالجندية:
 - إياك إن يسبك أحد، احرص على الطاعة، لا تمل من الأوامر، كلما أعطت،
 كلما ذهبت ورحلت عنك الأوامر.

اندس بين زملاؤه على رصيف الانتظار، لم يأت بعد قطار الترحيلات،
 راجع حقيبته بما تحمل من الأطعمة وأشياءه الشخصية من ماكينة الحلاقة
 وفرشة أسنانه، راجع محفظة أوراقه، لم يجد تحقيق الشخصية! لا يعلم أين

فقدته؟! لم يتوتر لفقده، كان يكفيه بطاقة الجندي، هو الآن يغنيه ويحميه من أي شر يأتي من خارج معسكره ومدة خدمته. الحياة المدنية ألغيت بكل ما تحمل من جوارح وهبات، لم يتأثر بفقدان أحبابه في هذا الموقف، "شريعة" و"لطف" أبواه لم يتأثرا برحيله، هو الآخر مثل شقيقه "علي".

انتبه لصوت القطار القادم، لم يكن قطار الرحيل، التفت إلى جموع الهابطين منه، لم يمل من فحص الوجوه، كان يتمنى أن يرى شقيقه بين العائدين، خابت آماله، تابع القطار المغادر لسيدي جابر إلى محطة مصر، نكس رأسه، لا حيلة ولا أمل في أن يودعه أحد.

التفت إلى القطار القادم، ها هو مُفَرَّق الأحاب وهادم اللذات قطار الترحيلات، صعد وسط زحام زملاؤه، لم يتبرم من هذه العجالة في الصعود، كان يتمناها أيام غياب أحبابه أمه "شريعة" و"لطف" والده، لكن الآن يحاول أن تتأخر الدنيا كلها في سبيل لحظات في أحضان حبيبته الإسكندرية، يتمنى أن تمتد الربع الساعة لقيام القطار إلى بضع ساعات، لا حيلة له إلا أن ينعم بنسيم الهواء القادم من ناحية شاطئ سيدي جابر، إنه يعرفه، ليس بغريب عنه، هو ساكن في صدره. الآن حان سواد الليل وقيام المناظر، لا سبيل له إلا الصبر على الفراق، جحظت عيناه أمام نظرات زملاؤه، تتعلق رقابهم بالنظرة الأخيرة إلى الحبيبة الإسكندرية.

حان وقت الرحيل، كان ينتظر رحيل ولده "ملوم"، الآن الشقيقان في الجندية. لعبت الظروف واختلطت الأحوال، وها هو يقف مع امرأته "شريفة" للرحيل من سكن الحجاري وزقاق بندقة، الشاطئ ذهب في رحيله الأول، والآن رحيله الثاني إلى راغب المقر، لا يدري أهو المقر الأخير أم ما زالت هناك مقرات سيرحل إليها؟ كانت امرأته تشاركه السعادة خلاف رحيلهم الأول من الأنفوشي، هناك لا حشيش، لا تهتك ويبيع في الأعراض والشرف، لا عاشقين للحب الحرام، لا نظر من خلف أخشاب نافذة العين الواحدة، ستفتح أبواب الشرفة على مصراعيتها، سيطلق العنان للستائر تتمايل مع هواء النوافذ الكثيرة.

يحمد الظروف، الشارع خال من "أم حربي" بائعة المزاج، لا أحد بشارع الرحيل، حتى سعداوي السمكري رحل هو الآخر، الجميع رحل للمتعة ومشاهدة حفل أبو عاصم بطهور ابنه الوحيد، فناني الإسكندرية التقوا بحفل الطهور على رأسهم بدارة الإسكندرية بدرية السيد، هي نجمة اليوم. التفت إلى سيارة النقل تحمل الأثاث والأمتعة، صعد مع امرأته بسيارة الأجرة، لم يقبل عتبات منزل الرحيل، لن ينظر إلى شرفة عاشقة المنجد، ينظر إلى امرأته، أطرافها ترتعش! لم يفهم ماذا حل بها؟! أهي السعادة من المغادرة أم العودة والحنين إلى أخبار الجيران وهففة دخان مزاج "أم حربي"؟ التفت، "أم حربي" قادمة لوداع "شريفة"، لها كل الحق في الارتعاش والخوف من هذا اللقاء. لم تصبر "أم حربي" لنزول "شريفة"، دست جسدها

بجانبيها، التفت "لطفی" للسائق، ابتسامته تملأ وجهه، ناولته "أم حري" مزاج كل يوم، سعدت "شريعة"، لفافة النقود تسقط في يدها، لم تتفوه بكلمات الشكر، ما عليها إلا الأحضان الساخنة والقبلات الحارة، كانت خطوات الوداع كافية لإنهاء ما بقي من الوقت، لم يلتفت "لطفی" إلى الخلف، إشارات امرأته بالوداع تعلن انتهاء مشاهد مسرح الحجاري.

الجبل الأحمر، الرمال بلون الدم جبال تسكنها البدلة الصفراء، هي الشريك الدائم لهذا المشهد، الهواء ساخن والشمس حارقة، ينتظر غروب الشمس بفارغ الصبر وانتهاء تدريبات الخطوة السريعة وللخلف در ولليمين لف ولليسار لف. لم يجد "الملوم" إجابة على جدوى تلك التدريبات؟ يعلم اليمين والشمال، حتى وقفة صفا وانتباه كان تعلمها في حصة الفتوة أيام ناصر والضرب بالبندقية القديمة كما يسميها سلاح خفير الدرك. لم يرضى عن السلاح، رشاش بورسعيد إنتاج مصر ومصانعها الحربية، دقة بسيطة عليه دون قصد يفرغ ما في خزينته من طلقات! كان يحب طابور المذاكرة، دوائر كهرباء أجهزة اللاسلكي ترحل به من الأتربة وأوامر رقيب الصفا والانتباه إلى أصحابه بالأنفوشي وحديثهم عن مواد الدراسة، عرف الكثير من "ممس" زميله المعيد و"عاصم" ودوائر الكهرباء التي ميزته عن زملاؤه العسكر.

غروب الشمس المُنقذ اليومي من عذاب العسكرية، انسحب يحجر جسده المنهك من أرض التدريب، تابع سير زملاؤه إلى دورات المياه، لم يعبر مثلهم، اتجه إلى مُتعبته الليلية، أعلى الجبل، التفت إلى السماء، كم تشبه سماء حبيبته الإسكندرية، النجوم تزينها، لكن أين القمر؟! لا قمر ولا شاطئ ولا... توقف عن السؤال.. تُقبل عليه فينوس حبه، "ليلي" الخرساء بابتسامتها الساحرة، لم يستطع الوقوف أو التحرك إليها، جسدها المرمري زاد جماله بردائها الشفاف، سحرته بضحكتها وثرغها الملتهب، كم يشتاقي إلى مأوه العذب. دار الجبل، تفرقت النجوم، تتلاشى، يرحل من دنياء إلى

الصوت الحاني، يعود من جديد، عجز عن الاقتراب منها، مُحال أن يلمسها،
 محال أن يصعد معها إلى السماء، هي وحدها التي تأتٍ والتي تغيب، أسكرته
 بجماها المكتمل وصوتها العذب، سيمفونية مياه تترقق على سطح الجبل.. ما
 عليه غير الإنصات والخشوع مع الركوع لفينوس حبه "ليلي" الخرساء:
 - عزائي لك أكثر من مجرد عزاء، لا فرع شجرة، مجرد فرع شجرة، في لحظة
 جعلت مني ما أنا عليه، حبك مقدس برزخي محال أن أناله ولا حتى أنت
 تنوله، آه من فراقك وآلامه، لا شيء أكثر شهوة من الألم، هذا عذابي، وأنت
 أنت، فلا شيء أكثر إثارة من الإهانة، لا شيء أكثر إثارة من الإهانة..
 سجد "الملوم" يبكٍ ويرتل: لا شيء أكثر شهوة من الألم، ولا شيء أكثر إثارة
 من الإهانة.

بدأ مراجعة ما كتبه في محضر حادثة قتل فتوة كرموز "بدر" للسيد النجرو فتوة بحري بشاطئ الأنفوشي.

دنيا عجيبة! لم يكن يصدق أن يتلاقى مع صاحبه "لطفی" وولده "ملوم"، في تلك الظروف من القتل، وجذب "ملوم" من معسكره، والتحقيق في كيفية وصول سترته على جسد المقتول الفتوة بما تحمل من تحقيق شخصية من اشتبه به، "ملوم"، كانت كل الشبهات تحوم حوله.

كان المنقذ من الاتهام هو تقرير الطبيب الشرعي: لا توجد بصمات لـ "ملوم" على أداة القتل، السيف الذي وجد بجانب الجثة.

شعر بالسعادة لفكر "ملوم"، ذكره لمشاهد التمرد والثورة التي يعشقها "لطفی"، كم يشبه "ملوم" أباه، إجابات بثقة واعية بما يحيط بها من التفوه بالاعتراف بالقتل، حاول عدة مرات المقارنة بين "لطفی" وولده "ملوم"، لم يجد الكثير من المقارنة، "لطفی" ينطلق في ثورته من أول خطوه في كلماته وأفعاله لوثة الانتحاريين أمواج بحر المرسى أبو العباس وخطابه السرمدي تحت أسوار قلعة قايتباي، وشقاؤه بين سنوات عمره، يمتلك ولده تلك الخطوات والأفعال لكن توجد نقطة فرق عن والده، خبرة كبيرة في المحاوره والردود المتزنة الواعية بما تحيطه من أحداث، توقف عن كتابة تقريره، متعه مشاهد "لطفی" زميله بين عنابر مستشفى الأعصاب، وولده الجندي "ملوم"، الأبيض الغض، حامل الكثير من جمال أمه "شريفة" وبصمات الحسب والنسب التي تحوطه بهالة من الاحترام، التفت إلى أوراق

التحقيق، قلب صفحاتها، اطمئن بسد أي ثغرات تشير في شبهة "الملوم"
بقضية قتل "السيد التجرو" فتوة بحري، القاتل هو فتوة كرموز "بدر"، وقع
"عبد الجبار" الصفحات بابتسامته التي لا تخرج إلا إلى مَنْ يُحِب.

راغب، راغب، كم تشبه شارع محمد علي بالقاهرة، أصوات الفن تنبعث من كل بيت، في كل صباح، هناك بلابل مصر: عبد الغني السيد، وله يا وله. كارم محمود، إبراهيم حمودة، عبد المطلب، ساكن في حي السيدة وحبيبي ساكن في الحسين، وهنا بلابل الشاطيء، عزت عوض الله، نواره حارتنا، بدرية السيد، من فوق شواشي الدرة وبحيري يا واد بحيري، إبراهيم عبد الشفيق وعلي عليوة، وتفاحة وريري راقصات ملاهي محطة الرمل، كوكبة من الفن تُشبع من يعشق الليل ولياليه.

"شريفة" ومسكنها الجديد بجانب مقرات تلك الكوكبة، رحلت من ميدان المساجد والمرسي أبو العباس وسيدي ياقوت العرش وسيدي الأباصيري، أكابر الصوفية وقداسة السماء، رحلت برغبتها التي لا يقدر "لطي" أو أحد على أن يصدها، لم تكن لديها نية في العودة والبحث عن مسكن آخر بجانب شاطئها الفيروزي الأنفوشي، راغب بحوارها القديمة الضيقة كانت من أهم أسباب سعادة "شريفة"، في سهوله ويسر تمد يدها عبر النافذة، تأخذ من جارة المسكن المقابل "عنايات" كوب الشاي، الراقصة التائبة بعد ترهل جسدها وكثرة أولادها، كان عليها الانسحاب من العيون العطشى للجسد الملفوف، لا تجد المدح والإعجاب حتى من بني جنسها، "شريفة" تبرع في استعادة "عنايات" لمجدها الفائت من المدح والثناء، تسرع الجارة بأكواب الشاي، لا تمل "شريفة" من الحديث عن أهل الفن معها، لم تستطع صد باب الإثارة واللعب مع ذكريات "عنايات"، لم تمنع من تناول بدلة

الرقص بعد تردها ومروره كلمح البصر، كانت نظرات "عنايات" آمرة بما يكفي للانصياع بالأمر، حجرة نوم "شريفة" بعيدة بُعد الزمان بينها وبين بدلة الخلاعة والمجون وكشف ما تحاول الآن ستره، الجسد المترهل وتلك النهود المترامية والمقتربة من وسطها، هناك فرق شاسع بين أعلاها وأسفلها، أسفلها ما زال متماسك لا ينقصه إلا حوافر الفرسة المستعدة للسباق، عليها الاختيار المر والصعب في آن، نعم الراقصة "عنايات" أصبحت في توحيد مع جسدها الذهاب إلى الزوال من جمال ودلال، لا مفر، عليها هي التحدي والمغامرة، لترى ما تفضحه أعين الراقصة من مشاهدة لجسدها هي الأخرى. دقائق الباب تقطع دقائق الانتظار بينها وبين الراقصة، رحلت هزات جسدها ودلاله بتلك البدلة الماجنة، جاءت "أم حلويات" منقذة "شريفة" الدائم في مواقفها السفلية والعلوية، كانت أحضانها مأكرة خبيثة، لم تتركها تجلس، أخذتها إلى غرفة النوم، لم تستطع "أم حلويات" صد شهيتها أمام البدلة اللعوب وما تحوي من ألوان الإثارة والشهوة، حاولت "شريفة" إخفاء بسمتها أمام جسد "أم حلويات"، عظام تكسوها القليل من اللحم الأحمر الرشيدي، بما يحمل من آثار الحملة الفرنسية، وجدتها "زبيدة" امرأة الغازي الفرنسي مينو، كم حكّت لها عن جدتها وغرامها مع ذلك الفرنسي المفتون بمجدها، لم تستطع "أم حلويات" الفكك من مشاهدة جسدها النحيف بالمرآة، غمرها احمرار جسدها المزيف لكل سنين عمرها، لم تصبر "عنايات" في الانتظار، قفزة واحدة من النافذة لتستقر في شقة

"شريفة"، رنات الطبلية بيد "عنايات"، لم تفلت "أم حلويات" من إيقاعها، وسطها يهتز، صدرها يتأرجح، لم تقدر عن صده يمينًا وشمالًا، "شريفة" تغمرها السعادة، حفلة منتصف النهار، الهز والتأرجح يخدعهن بزوال الدقائق والساعات مع حرارة الهز والدق ورقصات "أم حلويات" وإبداعها بحركات تبهر "شريفة" والراقصة المعزلة. توقف كل شيء من شقاوة الإبداع. جلست "أم حلويات" القرفصاء، جامدة مثل حجارة المدافن، "شريفة" اختفت وراء باب غرفتها، أسرع "عنايات" بالقفز إلى شرفة منزلها، لم تهتم بسقوط الطبلية محطمة تحت أقدام "لطفی"!

لم يتردد في الذهاب إليه، يعرف مدى صمته ووقفته، يستقبل رواده وعاشقيه، لا يسمع صوته إلا مَنْ يجالسه ويتحاور معه، ساحته معدة لاستقبال كل مَنْ يريده، خضراء ناعمة مثل نظراته لمريديه وعاشقيه، "لطفي" من أوائل الصاعدين للقاء، تذكر كان بالأمس القريب يشكو "شريفة" إليه، الآن يحمل شكواه إلى الزعيم سعد زغلول، تجاهل نظرات المرأة وغصني الزيتون، يعرف كم تكرهه وتسعى لصده عن تلك المقابلة، لم تكتف بعذاب الماضي تحت أقدامها وحرارة الشمس وغياب ذاكرته وشكوى حبيبته "شريفة"، كان يتمنى إزالتها من تحت أقدام الزعيم سعد، هي حاقدة على أمثاله، تتغنى بما ترى من شكوى أمثاله من الرجال، الآن عليه أن يوصل شكواه إلى مَنْ يحبه ويستمع ويلتفت إليه، مثلما كان يلتف حوله أصحابه بالماضي القريب، منهم مَنْ مات، ومنهم من سجن، ومنهم مَنْ زال يحلم بعودة أيامه ولياليه وجهاده أمام الملك وحاشيته من الانجليز.

لغة السكون تشكو حبيبته "شريفة" وأفعالها التي ما زالت في مراحل التطوير والانبطاح في ظلمة التنعم بكل ما يحلو لها دون ضابط ولا رقيب! ما زالت تصر على خضرة عمرها وألعيبيه، غير مكترثة بَمَنْ حولها، وأولهم هو وأبناؤه "الملوم" و"علي" و"ثريا"، نعم ما زالوا في قناعة بالجلوس تحت أقدامها والتنعم في حنانها وعطفها. أطل مع الزعيم حوار الصمت ولغة العيون، لم يشكو أكثر من ذلك، عليه الاكتفاء بما أورد من شكواه إلى

زعيمه وقائده وملهمه سعد زغلول، كانت الإجابة واضحة صريحة فاصلة في الأمر.

هبط "لظفي" درجات الزعيم، التفت إلى المرأة حاملة غصني الزيتون، لم تعجبه ابتسامتها الماكرة، لم يستطع فك شفرتها ومعرفة هل عرفت بما يجب فعله مع امرأته "شريفة"، أصبح همه همان: هم امرأته وهم توصية الزعيم بالمقابلة العاجلة مع ابنته "ثريا" والشكوى من أحوال أمها.

لم يفكر بالانتقال إلى كورنيش محطة الرمل، عليه الاتجاه إلى ترام الرمل، تحسس بنطاله، ما زالت كسرة الخبز قابضة في جيبيه، عليه الآن بمضغ القليل منها لحين الوصول إلى محطة ابنته، مساكن الرمل الراقية تحوط بها حدائق الورد وعلامات الطريق من النخيل، كان في راحة بقاء "ثريا" في هذا الوقت، لا أحد من أبنائها بالبيت، الجميع في مدارسهم، وزوجها في أوج شهرته وتألّفه بعمله ومنصبه الكبير، حاكم وأمّر لكل من يُحيط به من زملاء العمل.

لم يتردد في فتح باب الشقة غير المغلق، لم يشعر أحد بدخوله، حاول بقدر ما يستطيع ألا تسمع خطواته، اهتزت أطرافه بما يسمع من آهات النشوى واللذة، الدنيا كلها تدور من حوله، الظلام يحتله من كل جانب، ابنته "ثريا" يمتطيها خادم زوجها! الخادم الوفي ينظفها من أتربة الشهوة، كما نظف أمتعة البيت من الأتربة!

لم يستطع السيطرة على ارتعاش أقدامه، لا تقدر على حمله حتى ولو خطوات
الخروج والانسحاب إلى باب الشقة، حاول بقدر ما يستطيع من الهدوء،
الفرار والعودة من حيث أتى!

حاول أن يذهب إلى حبيبته الإسكندرية، حافظة نقوده فارغة كما هي عاداتها دائماً، عدة قروش تعبر به من معسكره بالجبل الأحمر إلى العباسية ثم إلى حي السيدة زينب، بالكاد تكفيه، لا حيلة له غير أن يرحل من معسكر مقطوع عنه المياه أكثر من أسبوع، لا توجد مياه غير حسوات قليلة يروي بها عطشه.

سكن صديق حارته "عز" بشارع السد بالسيدة زينب، هو منقذ "ملوم" من عفن جسده وملابس الجندي المتسخة. لم تنقطع صداقته بـ"عز" حتى بعد فراق كل منهما، "عز" بدراسته بجامعة الأزهر، وهو بتأدية الخدمة العسكرية. شاء القدر أن يلتقيا مرة ثانية بالقاهرة.

لم يدرك "ملوم" حالة غابت عن خاطره، عدم وجود "عز" بالمنزل، فاليوم الخميس يرحل "عز" وزملاؤه بالشقة كل إلى محافظته للتزود بالمال والطعام، ثم العودة إلى القاهرة يوم السبت. لا فرصة له بأحد الفنادق الشعبية بحي السيدة زينب، عليه مواصلة خطواته إلى منزل "عز"، لم يقف كثيراً أمام الباب، السعادة تنعش أمله في الاستحمام والتنظيف وغسل ملابس الجندي. أصوات تأت من الداخل! لم تكن أصوات مذياع، هي أصوات رجل يغني ويمرح بصوت أقدامه! لم يتأخر الفتح بعد بضع دقائق على الباب، لم يكن صديقه "عز"! بل أحد أقاربه مثله بالعسكرية، متطوع ويحمل شرائط الرتبة على كتفيه، اطمأن "ملوم"، قريب "عز" يعرفه معرفة جيدة، كما كان هناك تلاقي بينهما بالحارة في الإسكندرية.

استمع "ملوم" لنصائح، لم يتبرم، فقد سمعها من قبل من شقيقه "علي"، لكن عليه الإنصات مرة أخرى تأدباً مع هذا الرفيق، كرم الريف كم هو واضح في معاملته، الملابس المدنية تُقدم له بعد الاستحمام، والعشاء معاً، ثم الذهاب وقضاء سهرة المساء بالمقهى بجانب المشيرة العفيفة السفيرة، السيدة زينب. حاول الاعتذار عن تلك الجلسة وتناول المشروبات مع رفيق عسكريته، لم يفلح، مراسم الريف تطفئ بسخاء عليه، لم تنقطع إلا حين استئذانه لعمل بعض مصالحه الشخصية. التفت "ملوم" إليه وهو يعط أوامره لنادل المقهى بإجابة طلباته حتى عودته إليه، تابع "ملوم" ذهاب صاحبه، طلب كوب من الكاكاو السادة يُصاحب ارتشافه الاستماع لكوكب الشرق السيدة أم كلثوم، أغانيها المحببة إليه، كم اشتاق إلى تلك الجلسة، وإلى ذلك الاستمتاع، وإلى سعادته بخلو طاولته من رفيق.

جلس بين زملاؤه في الساحة الرئيسية بمركز التدريب بالجبل الأحمر، اليوم هو يوم الحظ كما يطلق عليه في تلك اللحظات، التوزيع لأفراد العسكر بعد انتهاء فترة تدريب السلاح.

ألغى "الملوم"، أحلامه وطموحاته في التوزيع بالإسكندرية حبيبته، أبوه "لطي" لم يفلح في وعد من قادته بقاعدة راس التين لتوزيعه حتى في أقرب مكان قُرب الإسكندرية، خاله "صابر" كان رده فوري عند ذهاب شقيقته "ثرثرا" إلى عمله ومحاوله توصيتها عليه لتوزيعه بالإسكندرية، رد جاف وقاس وإجابة يشع منها عدم التعاون ولو بالمحاولة، الآن لا مفر من انتظار مكان إكمال مده تجنيده.

التفت "الملوم" إلى سماع اسمه، لم يتأخر في رفع يده، يريد أن ينهي عذاب الانتظار، حاول أن يتماسك، الجيش الثالث بالسويس، منطقة الجفرة، أشار إليه المندوب بإتباعه، حمل متاعه العسكري من ملبس وأغطية ومستلزمات الطعام وأدواته الشخصية لقص الأظافر والحلق، كان مستعدًا للرحيل، هكذا نصحه رفيقه بالسيدة زينب وشقيقه "علي"، لم يطمئن للمندوب عندما علم بفراغ حافظة نقوده وتأدية تكاليف المواصلات حتى ولو إلى محطة قطارات السويس، عليه الصبر مع تلك الرتبة المستلمة له، وحرارة الشمس التي لم يتحملها المندوب والسير معه إلى أقرب محطة نقل عام، لم يتأخر بمد يده لمعرفة هل يحمل في أصابعه ذهب أو فضة؟ كانت تلك المحاولة الأخيرة من المندوب قبل الصعود بالسيارة إلى محطة

رمسيس. شعر "ملوم" بنظرات الركاب، بمدى تعاطفهم معه، وذلك الحمل الكبير على كتفه من مهمات الجندية.. لم يمر الوقت سريعاً، كان يشعر بعقارب الساعة تسير في رتابة وكسل وتردد في قطع الثواني والدقائق، لم يرحمه المندوب من السير بخطوات سريعة في اتجاه محطة قطارات السويس، عليه اللحاق به بدون التأوه أو الشكوى من مهماته أو الإبطاء.

انتبه "ملوم" لحديث من يرافقه إلى معسكره، لن يرافقه، عليه الوصول دون رفيق غير ذلك الخطاب بتسليم نفسه إلى وحدته بالجفرة، لم يفهم غير تلك الخطوات المبهمة غريبة المعالم! التفت إليه يريد أن يحدثه بكيفية الوصول، لم يهتم بسؤاله، تركه وانصرف خارجاً من المحطة يتابعه "ملوم" بنظرات الغل والانتقام ولو بعد حين.

لم تمر دقائق، امتلأ القطار بالعسكر أمثاله، كانت نظرات الوداع من نافذة القطار نهاية لمشاهد المدينة وأناسها في آخر لحظات مغادرة القطار للقاهرة.

لم يفلح في صد هياج تلك اللعنة التي هبطت عليه من حيث لا يدرك! أين يذهب؟ وإلى من يتجه؟! لا سبيل إلى الشكوى لأقرب الناس إليه، امرأته "شريفة"، وأفعالها المعيبة لسنها وأولادها! شقيقها صابر هو الآخر يسبح في بحر الملذات من أوكار السكر والمجون والخلاعة، بل والزنا! الزنا الذي حل بمن يُحبها ويعشقها! تلك التي ربها وأسعدها وضى من أجلها بأكثر مما يستطيع! كلفته الكثير من ذل الأيام وشقاء الحياة والبُعد عن كل ملذات السعادة والترفة والصعود إلى درجة من درجات البُعد عن مشاهد الفقر ولو للحظات، ما العمل مع ابنته "ثرثيا" وما شاهده من زنا؟ ومع من؟! الخادم! لا يدرك إلى أين يذهب؟!

أبواب الحل كلها مغلقة، أزاح فكرة قتلها أو إنزال أشد العقاب عليها من الضرب والسب، تصبح المصيبة مصيبتان، الزنا وإلصاق العار بأبنائها! لم يقصر في تربيته، حتى "شريفة" كانت تحرص على حماية ابنتها من برائن الوقوع في الرزيلة، لكن هي نفسها كانت بوابة دخول ابنتها "ثرثيا" في طريق الزنا! بفعلتها المشؤومة من رحلة لبنان وما جرت عليها من عار ألصق بها! هو ما زال يغض الطرف عن فعلتها، رجحت كفة حبه لها، لكن لم يستطع شطبها من تواريخ حياتها المليئة بالإنارة والشهوة.

انتبه إلى زوج "ثرثيا"، هو الآخر فتح الأبواب لـ "ثرثيا" على مصراعيها، وصلت به الديانة أن يترك امرأته مع رجل في مكان مُغلق به كل الأمان في عمل ما

تريد دون رقيب ولا محاسب! حتى وإن كان الخادم المطيع المطأطأ الرأس في المسح والكنس وتنظيف دورات المياه!

شعر بالارتياح، زوجها هو المسئول الأول والأخير في ضياع شرفه. لم يشعر بانقضاء كل ذلك الوقت والتفكير في مصائبه التي ما زالت خطواتها تلازمه وتسير معه حيثما كان! قدماه تشتك له من كثرة السير في طرقات وحواري الإسكندرية، كان يظن أن تلك الأماكن تُنسيه ما حل به من متاعب، السيالة، سوق الميدان، سوق راتب، العطارين، محطة مصر، زنقة الستات، شارع فرنسا، حارة اليهود، مكان عمله القديم، جميعها لم تُنحي ما يدور برأسه المتعبة، وهمومه المتراكمة.

التفت إلى ما يُذهب العقل والدين ويأت بالخراب: خمارة "شيخو" بالمنشية، كم هي جميلة أنيقة هادئة بأنوارها الخافتة وسكون روادها، هي ملتحى للمزاج والسُكر في آن، نعم أسعار كاساتها غالي الثمن، جلسة باهظة التكاليف، لا يستطيع الاقتراب أو الدخول، لم يعتاد التسول ولو حتى في داخل تلك الخمارة وهؤلاء الزبائن، أكثرهم من فنانى مصر، يزعمونها في أوقات المصيف، ساعات التهيو ورفع درجات المزاج قبل رفع الستار بما يقدمونه فوق خشبة مسارح الإسكندرية، لم يدر بموقفه من هذه الخمور وخمارتها أمام ماخور السمكري بمدخل العمارة المتهالكة في سوق الميدان في بحري، أكواز الصفيح الممتلئة بمشروب منقوع البراطيش كما يسميه رواده، أسعار في متناول الجميع، كوز كامل، نصف كوز، ربع كوز، خمارة

السمكري سُمعته جيدة عن الخمرة الزائفة! التي نهايتها العمى لمتناولها! هو يفتخر بين أهل الحارة ومريديه بجودة خموره! ندر نفسه في بيع خمرة لا تؤدي إلى العمى! يكفي فقد بصره بخمرة بلبل بائع المخللات من الليمون والخيار والبصل المعتق ومن ضمنها الخمرة المغشوشة! لا يقترب منه أهل راس التين وبحري والجمرك وحارة اليهود إلا في وقت وشهر القداسة رمضان، طواير المخللات على أشدها في ساعات النهار، يتمايل هو وابنته البيضاء، ملفوفة الجسد حاضرة الدلع والهز والغمز، ولا مانع من اللمس حتى في نهار ليالي الشهر الكريم، التفت إلى مخرج خمارة شيخو، يا له من حظ! صاحبه وصديقه وزميل عنبره بمستشفى الأمراض العصبية صاحب النظارة السوداء جامد الملامح بطيء الكلمات! همس "لطفني" في حزن وضبابية أيامه:

- حتى أنت يا صاحبي؟!

أسرع إليه، يتمنى اللحاق به قبل أن يصعد إلى سيارته، نظر إليه في حالة من الغضب والتأفف من منظره، دس في يده بضعة جنيهاً! أسرع بالرحيل، لم يترنح "لطفني" من جفاء اللقاء وسقوط النقود في يده، فهو يعرف تصرفات صاحب النظارة السوداء جامد الملامح بطيء الكلمات، غداً سينتظره دون موعد على باب بوابة السكر، خمارة شيخو، قبل أن تلعب الخمرة برأسه.

كان عليه الانتظار على حافة الطريق الإسفلت، لا بد من الانتظار والترقب، فالغالية في طريقها إليه، شريحة اللحم القادمة مع سيارة تموين المعسكر اليومية، التم شمله مع زملائه بالمعسكر، كلهم "أبو اسكندر"، كلمة مشهورة تطلق على كل جنود حبيته الإسكندرية، لا يغلب عليهم أمر، يصبرون على أوامر القادة، متحفزين دائماً لعمل ما يحلو لهم في منطقة الجفرة، ومنها تلك المحاولة، كلما صعد أحدهم لسيارة إحضار تموين المعسكر من اللحم والأرز والبقوليات والجبن والخبز، يتولى أحد أصحابه من مجموعة "أبو اسكندر" الانتظار على الطريق لالتقاط قطعة اللحم والعودة بها إلى ثكنته تحت الأرض.

انتبه "ملوم"، السيارة قادمة، قذفت على الإسفلت قطعة اللحم! لم يسرع "ملوم" إليها، انتظر حتى تبتعد السيارة، ثم هجم عليها قبل أن تلتقطها الكلاب الضالة أو أحد المارين بالطريق، السعادة تغمره، صاحبه بالسيارة ماهر في تقطيع اللحم بهذه الكمية الكبيرة، أكثر من اثنين من الكيلوات، كما أنها حمراء قليلة الدهن، الخبرة والمكان لهما عامل كبير في تقطيع صاحبه اللحم فوق السيارة، هو من جبل ناعسة بكرموز، ماهر في التقطيع بالمديّة قرن الغزال في العراك وأيضاً في قطع اللحم أو تقطيع الحشيش!

التفت، لا أحد يراه، عليه الإسراع وإشعال موقد الكيروسين، وتهيئة الطعام له ولأصحابه وإنضاج اللحم الأحمر، اكتسب الخبرة في لحوم

العسكرية، تحتاج لأكثر من ثلاث ساعات أو أكثر، حتى تقدر الأسنان على مضغها وبلعها! اطمأن، الخبز يكفي مع كمية اللحم له ولزملائه الأربعة، كما أن اليوم الخميس وغداً إجازة من التدريبات، لا عمل إلا لأصحاب الخدمة الليلية والنهارية من الحراسة.

ما زال من الوقت الكثير في إنضاج اللحم وعودة زملائه. أعاد ترتيب المائدة، حاول أن يسترح، أغلق باب الملجأ المدفون تحت الرمال، أغلق النافذة الصغيرة، لا يريد أن تصل رائحة اللحم إلى المارة، لم تزل هناك خطوة واحدة؛ الذهاب إلى عنبر الخدمة الطبية؛ لاستكمال ليلتهم الملهبة! حاول الالتفاف من وراء ثكنات قائد الكتيبة، فهي أقرب مكان للوصول إلى غايته، استلم من زميله "أبو اسكندر" عبوة الكحول الأبيض، لم ينسَ المرور على مقصف سريته، تناول قوارير الصودا المثلجة، الآن كل شيء مُعد ليلتهم المشتعلة باللحم والمزاج العالي من الكحول المخلوط بالصودا المثلجة، ليلة سُكر ولحم ولعب القمار، كشف عن اللحم، ما زال في سبيل النضج، الساعة تقترب من الخامسة مساءً، وقت انتهاء المهام وجمع صحبة ليلة الجمعة.

لم ينجذب إلى أمواجه، ينفر من حجارة شواطئه، لا توجد رائحة لهوائه المعطر باليود، خال من مظلات الشاطئ، لا توجد أجساده الناعمة الغضة المبتلة والملتصقة الفاضحة لمفاتن الجميع من الرجال والنساء! وما أكثرهن في شاطئ حبيته الإسكندرية!

هنا لا توجد أي صفة من صفات شاطئ الأنفوشي، لا يوجد حوله إلا زملاء معسكره، شاطئ جنيفة بالسويس، حيث المقر الجديد لمعسكره، الجميع يستحم، ليس للتمتع، لكن لإزالة الأتربة وغسل ما عفن من جوارب وملابس الليل والنهار.

وقف "الملوم" مُنتشياً أمام ما جمعه من قواقع البحر، مميزة كبيرة، قواقع تسخر وتهزأ بقواقع بحر الأنفوشي! عليه الآن إعداد هذه الوجبة الشهية لـ"أبو اسكندر"، هم وحدهم يعرفون قدر تلك الوجبة، لم يفكر في إحضار الكحول الأبيض والصودا المثلجة ليكتمل السكر والعريضة كما كان في الجفرة.

الآن مشاريع وتدريبات فرقة متواصلة، ما أن ينتهي تدريب إلا ويأتي تدريب آخر وفي مكان آخر ثم العودة، الجميع أصبح يقظ في كل شيء، القادة أصحاب الأكتاف المحملة بالنجوم والنسور أول من يقف في صفوف الصلاة وفي وقتها! بل وصل الحال إلى قدوم دعاة، لا تمر جمعة إلا ويحضر من يعظ ويذكر ويُجيب، مشاهد لم يتعود عليها "الملوم" وزملاؤه العسكر، القبعات والرُتب لا وجود لها، تساوت الرؤوس، أوامر تنفذ بحب وبجدية،

فرق كبير بين الماضي والحاضر في كل شيء، لم يتراخ عن تنفيذ الرحيل مع كتيبته إلى مكان آخر.

الآن عليه ترك القواقع وخلطة الزيت والليمون يُنحِها جانباً؛ عسى أن يأتي مَنْ له نصيب في تناولها، صعد عربة اللاسلكي، هو الحكم دار وقائد تلك المركبة بما تحمل من أجهزة، هي من أهم أسباب ترقيته إلى عريف، كتفه مُحملة بالأشرطة التي يتباهى بها عند نزوله إلى حبيبته الإسكندرية. الآن عليهم التقدم باتجاه مثلث السويس، الصحراء أفقدته كثيراً من الأحاسيس، لا حُبَّ ولا شيء من أشياءه الخاصة تصاحبه في ذلك الركب من كل معدات القتال، لا وجود للحبيبة الغائبة "بيحة" ذات الجسد النحيل والشعر الأصفر، لا همسات من الراحلة الخرساء تأتيه تؤانسه في تلك الليالي، يستمع إليها وتقترب منه، تشعل نار حبه وهيامه بها، فينوس الخرساء. تجرد من ممتلكاته الخاصة، لا وقت للحب إلا إلى اليقظة مع الأوامر والتدريبات، لم يلتفت إلى اقتراب شهر الصوم، هو على بُعد أيام قليلة.

التفت "ملوم" إلى زملاء طاقمه اللاسلكي نيام في أركان السيارة، أما هو فما زال في يقظة الطريق وهبوط الليل. انتبه إلى توقف رتل السيارات، أعلن الخبر المفجع، الرتل دخل في حقل الغام، كانت الأوامر صارمة:
- لا أحد ينزل من السيارات، لا أحد يطأ بقدمه سطح الأرض، على الجميع الانتظار للخطوة القادمة.

اهتز لمشهد قائد الكتيبة، يرتعش، لا عتاب في تلك اللحظة، لم يسمع كلمة عتاب لسائقي الركب: كلمة واحدة وأمر واحد: لا تلتف السيارات، عليها أن تعود بظهرها.

الجميع يحبس أنفاسه، تهتز الأفواه بتلاوة الدعوات، مع شحوب للوجوه! لم يشعر "الملوم" بخطورة الموقف، ذهب إلى مكان آخر، الاقتراب من الموت والموتى، رائحة الموت تحوم حول الجميع، هبت عليه رائحته التي يعشقها وينتظر همسها، "ليلي" الخرساء تدنو إليه، تبتسم له، ما زالت بردائها الأبيض الشفاف، يشع نور جسدها الأبيض المرمري، كم يشاق إليه، يتمنى أن يُداعبه كما في الماضي القريب على درجات السلم أو على رمال شاطئ الأنفوشي وبين الكبائن أو مقاعد السينما، لا حيلة له إلا أن يُمتع عينيه بمشهدها الطاغي في جمال كل شيء، رحل من الصحراء، تلاشى ركب السيارات! لا عسكر ولا أوامر، لا شيء! شيء واحد يصاحبه فينوس حبه وهيب جسدها ونظراتها المشتعلة بنار الحب.

انتبه إلى صوت التكبيرات بالله أكبر، الحمد لله. لم يسعد بخبر الخروج من حقل الألغام، اهتز لانفجار لغم حبه، يهتز قلبه يترنح من صدمة الفراق، فراق الحب الذي ما زال مفارق أحلامه الغائبة.

نظرت إلى الشاطئ، لم يلفظ ليله الأسود، هدوء يسكن أمواجه، لا أحد يفترشه، مشهد لم تألفه "شريفة" من قبل، كان في الماضي القريب يأدس برواده وهي وأولادها "ثرثيا" و"ملوم" و"علي"، رواده يشاركونها في غياب أحبابها بالقوات المسلحة، لا وجود لهم برماله البيضاء.

لم تعترض على الرحيل مرة أخرى إلى الشاطئ، الأنفوشي تمتلك قلب حبيبها "لطفی"، أصّر - هو الآن الأمر الناهي - على العودة إلى شاطئ الأنفوشي، لم تحزن بغيابها عن حي راغب بأغانيه وراقصاته.

"عنايات" هي أول درجات فرارها من راغب، كانت في نهاية خطواتها لاحتراف الرقص وهز الوسط والنزول إلى ساحة الأفراح والليالي الملاح. شعر "لطفی" بمؤامرة الراقصة "عنايات" في استغلال امرأته، والترجيع من ورائها، كان الحل هو الفرار والعودة إلى الأنفوشي، المنزل الجديد والشرفة الواسعة المطلّة على الشاطئ من أهم أسباب الرضا بالرحيل والعودة، نعم الحجرات صغيرة، كم تشبه كبائن الشاطئ، لم تشعر بضيق المكان، غياب أولادها بالجندية، أغلق أبواب التذمر من حجراتها الصغيرة. لم تتوافق إجازات أبنائها في الحضور في وقت واحد، يأتي "علي" ويرحل، عدة أيام ويحضر "ملوم" ثم يرحل.

انسحبت من الشرفة أمام برودة الهواء وهبوط الليل وسكون الشاطئ، دلفت إلى حجرة النوم، "لطفی" يغط في نومه العميق وشخير المتنامي مع

مرور عمره، لم ترغب في مشاهدة التلفاز، يكفي ما تجتره من صندوق ذكرياتها.

الحالة "نرجس" تأتي في زيارات قليلة خلال شهور الصيف أو الشتاء، نعم تأتي بمرافق يصحبها إلى البيت. كم عنفتها "شريفة" من قسوة قلبها أمام أبنائها "علي" و"لموم"، تدعو لأبناء شقيقها "صابر" فقط، أما أبناءها الواقفين على خط النار، لا دعاء ولا ذكر لهم بكلمة تجبر بها غياهم عنها، تُذكر الحالة بهم عسى أن تدعو لهم، لا فائدة! تنفر منها "شريفة"، لا ترحب بها الترحاب اللائق بسنها وفقدان بصرها، الآن لا تأتي الحالة، منذ أكثر من ستة أشهر لم تحضر إليها.

أخوها "صابر" رفعت الدنيا قدره، ينقل عمله بالمخابرات أولاده إلى عز ورفاهية، هم أيضًا لا يأتون لزيارة عمتهم أو السؤال عن أبنائها، "صابر" شقيقها يصعد على مفاتن شقيقة امرأته الراقصة ذات الصيت الواسع في ردهات المخابرات، تعطي به على رقصات واحدة ونص وهز الوسط وعرق اللذة والشهوة، الطعام الشهي لهؤلاء المتجبرين المتكبرين على كل ما هو شريف، يتأرجح "صابر" بين رياح الشهوة والمنصب العالي، حتى وإن كان على أكتاف الراقصة "لولا".

فرق شاسع بينها وبين الراقصة "عنايات"، راقصة الطبقة الكادحة من الصناعات وبائعي الشوارع والطرق، لم تلتفت "عنايات" لجسدها في أوج أنافتها وروعة رقصاتهما في الوصول إلى أولئك القوم، يا لها من طيبة

"عنايات"، ترضى بالهز والرقص فقط دون الغور في الثراء ومتاهاته المُهْلِكَة.
 "عنايات" كانت حذرة في الوقوع مثلها مع رجل الأمن وخطواته النجسة،
 والعار الذي لحق بها وما زال مُتعلق بأيامها ولياليها، لم تقدر من شطبه
 ومحوه من ذاكرتها المعذبة بين ألم الزنا والتعامل مع هؤلاء القوم الفارين
 من رحمة السماء.

التفتت إلى ساعة الحائط، حان الوقت لإعداد وجبة السحور لمن صبر على
 شقاوتها ولعبها، حبيبها "لطفى".

الغروب على بُعد دقائق وينطلق مدفع الإفطار، لم تأتِ عربية الطعام بعد كما تعودوا، تأتِ متأخرة بالساعات! حانت الآن خطوات البحث عن أي شيء، احتفاء بغروب الشمس ونهاية يوم من شهر الصيام.

التفت "الملوم" إلى زملائه يُتسابقون إلى أكوام بقايا طعام سرية الجيش الجزائري الملاصقة لمعسكرهم، جاؤوا للمعاونة في حرب التحرير، سيناء، رجال بمعنى الكلمة، لا يخشون الهجوم اليومي من الطائرات الإسرائيلية، هنا فارق كبير بينهم وبين رجال عسكر الخليج بالجانب الآخر من جبهة القتال الذين تهتز أطرافهم، يدعون على مليكهم! كلمات مضحكة تخرج من أفواههم، هذه حرب بحق وحقيقي، دائماً يختبئون داخل الملاجئ تحت الأرض.

قبض "الملوم" على علبة السردين الصفيح من داخل أكوام ما بقي من طعام رجال الجزائر. الآن عليه البحث عن شيثان، كسرة من الخبز، وكيف يفتح تلك العلبة؟ خاب أمله! لم يجد شيئاً من كسرات الخبز، لم يغلب في فتح العلبة، قطعة الحصى المدببة هي خير فاتح لها، لم يصبر على إزاحة بقية الغطاء، التهم قطع السردين، لا ملح ولا خبز ولا طعام جاء! تأخر في هذا اليوم الكئيب.

لم تأتِ عربات التعيين أو المياه، لم يُبادر أحد العسكر بالسب والعتاب، كانت سلواهم فيما مضى من الأيام الماضية، طعام يأتي في مواعده مع غروب الشمس، وزوال الطائرات المغيرة لا حيلة لها أمام منصات الصواريخ

المصرية وما تفعله من جودة الإصابة، يصرخ الجنود طائفة تسقط في الشمال، وأخرى تسقط وسط الكتائب، التكبيرات لم تنقطع طوال الأيام الماضية مع فرحة الجنود بالنصر والذي في طريقه للاكمال.

الآن خاب ظنهم! الحزن وآلام الهزيمة تحوم فوقهم، منصات الصواريخ تتلاشى من على الأرض، محاولات بناء أخرى باءت بالفشل، تُضرب من الطيران المغير، يفقد الكثير من بنائين أهل الصعيد وسط المنصات! أخبار تراجع القوات المصرية من سيناء تؤكد أطياف الجنود العائدين، مسحة الانكسار والهزيمة تسيطر على العائدين، الملابس ممزقة، لا توجد أسلحة معهم، أكثر المعدات فقدت منهم مع العودة الخاسرة.

التفت "الملوم"، شقيقه "علي" أمامه بشحمه ودمائه! الأتربة تملأ وجهه، ملابسه ممزقة مثل زملائه، حذاء واحد بقدمه اليمنى فقط!

لم تمر الساعات حتى انتشر خبر اللقاء هو وشقيقه "علي" بين السرايا، يلتقي الأخوان على جبهة القتال، هذا من عسكر السويس وهذا من الإسماعيلية، لم يهنأ "الملوم" بالنوم بتلك الليلة، شقيقه "علي" ينام بجانبه يستريح من عناء السير في صحراء سيناء، لا حيلة له، غدًا في الصباح يرحل شقيقه وزملاؤه إلى القاهرة للتزود بالسلاح والعتاد والملبس، ثم العودة مرة أخرى إلى جبهة القتال، حاول أن يُقنع قائد سريره أن يمكث أخاه معه عدة أيام، الرفض هو القرار الأول والأخير! "الملوم" على قناعة برد الرفض، سعد بما تم جمعه من نقود من زملائه لأجل شقيقه "علي"، حاول بقدر ما يستطيع جمع بعض

المأكولات من مطبخ السرية، من زميله "أبو اسكندر" المسؤول عن إعداد طعام ذلك اليوم الحزين.

انتبه إلى نداء الميكروفون:

- على الجنود العائدين من سيناء التوجه إلى مقر القيادة استعداداً للرحيل للقاهرة.

لم يكن يتوقع أن يتم الرحيل في تلك الساعة من الليل. لم يهنا "علي" بساعات قليلة من الراحة، طاعة الأوامر واجبة، لا حيلة له إلا أن يوقظ أخاه من نومه الهانئ استعداداً للفراق، الفراق الذي يصرخ في صحراء المعركة وما تأتي من أحداث، حاول بقدر ما يستطيع التماسك أمام انضمام شقيقه "علي" إلى زملاء عربة الرحيل إلى القاهرة.

لا راحة ولا نوم في الساعات الباقية من الليل، حاول أن يجد تفسير لما يجري في ساحة القتال، الأيام الماضية من بداية الضربة الجوية الأولى وانحناء خط بارليف السد الترابي المنيع، أمام عبقرية الفكر العسكري المصري، كانت الإهانة الكبرى لإستراتيجية فكر العدو، يذوب السد المنيع، يخر راکعاً أمام مياه بحر مصر العظيم، منصات الصواريخ تنطلق بشط القنال، تسقط طائرات الغاصب لأرض سيناء وسط تكبيرات (الله أكبر)، هو وأصحابه لا يشعرون بالحرب ومخاطرها! ثقة وتفوق وإرادة تُزلزل جحافل العدو الذي يترنح في دوائر الهزيمة.

"لملوم" يستحم، زملاؤه يلعبون الكرة، شيء عجيب! كان كل شيء يسير في خطوات اكتمال النصر، بضعة أيام ما أحلاها وما أعظم ساعاتها المفعمة بفرحة التقدم وقهر العدو.

انقلبت الأحوال وتغيرت التقديرات وبوادر التقهقر والانسحاب للخلف هي سيد الموقف! لم يستطع "لملوم" الوقوف أكثر من ذلك، هبط على الأرض ليكمل مشاهد حرب العاشر من رمضان، ارتعش جسده وامتلكه الغضب، مشهد لا ينساه يتمنى أن يثبت في ذاكرة الوطن، وادي النيل العظيم. تواتر جسر المدد الأمريكي لينقذ حليفته من محالب وأنياب الجيش المصري، هدمت منصات الصواريخ، الفشل في بناء منصات جديدة، تُهدم على رؤوس أهل الصعيد الخبراء في العمل الملتهب من بناء المنصات، اختفت صيحات النصر والتكبيرات! الجميع الآن يحمل مسؤولية الهزيمة إلى العالم الساكت عن كلمة الحق! تلك الشعوب التي تغنت كثيرا بمصر وأثارها وتراثها المجيد، من أجل عيون أميركا وحببتها، فاتيكان الغرب الجديدة إسرائيل بفلسطين! نصر مُحدد ومؤقت، لا تذهب القوات المصرية إلى أبعد من سيناء، سيناء فقط، لا خطوة واحدة تتعدها!

كم اندهش "لملوم" أمام أحاديث قاداته! مَنْ المسؤول عن الثغرة المفتعلة باختراق قوات العدو داخل أطراف سيناء مرة أخرى؟ اختلطت الأمكنة بين جند مصر وقوات العدو! لم يسعد "لملوم" بخبر الاختراق، كانت سعادته بفشل رئيس الأركان في إقناع السادات بإحراق الثغرة بما فيها من القوات

المصرية وقوات العدو! سعد برفض قائد العبور لتلك الفكرة، لم ينسَ جبروت ذلك القائد بتعليماته الصارمة للقوات المصرية قبل بداية المعركة بشهور قريبة:

- الجزء ستة أشهر سجن لمن لا يلتزم بربط رباط حذائه سبعات ثمانيات. تذكر صاحبه الرقيب وهم في طريقهم لقضاء الأجازة الشهرية بين الأهل والأصدقاء وبعض الراحة من مشاريع التدريب المتوالية تباغًا، كم ألحَّ وطلب الرحمة من جندي الشرطة العسكرية لمخالفته أوامر السبعات والثمانيات برباط الحذاء! لا رحمة ولا شفقة ولا أعدار، ستة أشهر سجن بالسجن الحربي، كانت الفرصة الأخيرة؛ عرض خاتمه الذهبي ذو البريق الأصفر، تلمع عين الجندي أمام بريق الذهب، يلتقط الخاتم في نهم الأصفر، يتركه يذهب حرًّا ليكمل مسيرة خطواته إلى ميدان رمسيس! تسقط الأوامر وتُطلق الحرية لكن بثمان، الرشوة ومُغريات من الذهب الأصفر! مشهد لم ينسَه "الملوم"، حالة بائسة للنهاية لمن لا يحمل المغريات للهروب من أوامر الانضباط الهزلية في ربط الحذاء، قائد العبور له كل الحب والتقدير للحفاظ على أرواح أبنائه الجنود من الإذعان لتلك الأفكار الهلترية والتي عفا عليها الزمن.

شعر "الملوم" بهبوط صقيع الليل وعلو فرحته بما تم مع رئيس الأركان صاحب تلك الأوامر من السبعات الثمانيات في ربطة الحذاء، التحف

بردائه الصوفي الأصفر، هبط تحت عجلات سيارة الإشارة ليكمل الساعات
الباقية من الليل بين أفراد طاقمه.

لم يتردد "عبد الجبار" في الذهاب إلى صاحبه، صفير الرياح يسد الأذان، أمواج البحر العالية تقذف برذاذها لكل سائر على شاطئ ورمال بحر الأنفوشي، إصراره على مقابلة صاحبه، تدفعه بكل قوة لتحمل هذه الرياح وتلك الرمال، لم يشعر بعظمة نظارته إلا في هذا الموقف، لم يُعجب بها، ياخفاء عينه المغلقة منتهية الصلاحية منذ زمن فائت، عليه المرور مرات ومرات حتى يظهر صاحبه "لطفي" من شرفة منزله، لا حيلة له في الصعود إليه، يتحاشى نظرات مَنْ كان السبب في فضيحتها بالزنا، نعم الأعوام مرت ومضت، لكن يعرف أن امرأة "لطفي" صاحبه لن تنسى تلك الأحداث، ما عليه إلا أن يصبر ويأتيه الحظ، ليطل "لطفي" من الشرفة، لم يفكر بالعروج إلى مقهى "إنج" أو "عرفة"، مناخ الأنفوشي لا يُشجع أحد بالجلوس ولو حتى الانتظار، ظلمة الساحل وهبوط الليل وصقيع الهواء لا يشجعون أحد على الجلوس. لم يدرِ باقترابه من بوابات معسكر القوات البحرية، عليه الرجوع إلى الخلف والاقتراب من بيت صاحبه. برودة الهواء تحترق جسده المُشبع بدخان السجائر وكاسات الخمر، ما زال مُصرّاً على المقابلة، "لطفي" الوحيد الذي يستمع له ويفهم ما يدور برأسه، يريد أن يُخرج تلك الهموم الجاثمة على صدره وفكره.

بدأت أقدامه تهتز لتلك الساعات التي مرت، أكثر من ثلاث ساعات ولم يصل إلى أي بادرة لظهور صاحبه من الشرفة! لم يسلم من إرهاصات الندم من عدم زواجه حتى الآن، لا أنيس ولا ولد، هو تائه غريب وسط زحام

الدنيا. "لطفني" كان أسعد منه حالاً، عرف أن يتخاطب مع الحياة ويأخذ منها ما يُحب من جنس وزوجة فاتنة الجمال وأولاد. تخاطبه مع الدنيا لم ينقطع، بل ما زال مستمراً لم ينته.

هبط بجسده المنهك على سور الشاطئ، نَحى لقاء "لطفني"، الآن عليه مواجهة حياته بما تحمل من هموم، لم ينتبه إلى تلك السيقان المائلة أمام عينيه، التفت إلى رائحة العطر الأنثوي، جحظت عيناه وانتفخ أنفه، عاملة السويتش بمستشفى الأمراض العقلية بجسدها وجمالها العائم في رياح الشهوة، لم تتفوّه بكلمة، أعطته الوقت لتكملة المشهد، في يدها غلام، كم يشبهها في جسدها الأبيض وشعرها الناعم وعيونها الخضراء، هبطت بجانبه، التصقت بجسده، لم يتأخر في ضم الغلام إلى صدره، حاول بقدر ما يستطيع ألا يتعدى تلك الحدود بالقفز عليها حتى ولو بقبلة، نعم الشاطئ خالٍ من المارة، صقيع الهواء وخلو المارة وغلق النوافذ والشرفات من أهم سمات أهل شاطئ الأنفوشي في فصل الشتاء، كل الخطوات مُشجعة على فعل ما يريد، بل أكثر من قُبلة وحضن، تراخى بالمضي في عمل ما يشتهي، وإرواء ظمأه من تلك الفاتنة.

التفت إلى الغلام، النعاس محتويه، ما عليه الآن هو أن يُشير إليها بالذهاب إلى سيارته، لم تتأخر في متابعة خطواته والصعود داخل السيارة، نظراتها الفاتنة تدفعه مع بسمتها الساحرة إلى أن يُدير محرك السيارة وينطلق إلى الطريق.

تنفس الصعداء، آخر لحظاته في الرحيل من دنيا العسكر، تراجع في لَمَ غنائمه من معارك العاشر من رمضان، لم يحتفظ إلا بالشيكل اليهودي، نَحَى أنبوب العسل الأبيض والصندوق الخشبي المُطعم بأصداف البحر، لا حيلة له إلا أن يترك تلك الأشياء خوفاً من الشرطة العسكرية في طريق مغادرة المعسكر، كانت سعادته بشهادة ميلاده الجديد، صك إنهاء الخدمة العسكرية.

لم يقدم بوداع قائد سريته وزملائه من ضباط الكتيبة، كان هذا هو الاتفاق مع الزملاء الخارجين أمثاله من المعسكر: لا وداع ولا شكر. يكفي ما أصابهم من هؤلاء القادة، لم ينسَ اعتراضه لهؤلاء القادة، بل وقفته بسلاحه لمن يريد أن يتقدم منهم لعُهدته، ماكينة كهرباء محطته اللاسلكية، لن تُستغل في اللهو وتشغيل جهاز التلفاز للسادة الضباط ومشاهدة مباريات كرة القدم، هي لم تُجعل لتلك الأشياء، بل للأهم والأعلى سمو للمعركة التي كانت على أشدها خلال الشهور الماضية، موقف لن ينساه، يتذكره حتى مماته بشهادة تأدية الخدمة العسكرية، عريف، كان الأولى بالخروج على درجة رقيب مثل دفعته، حادثة الحفاظ على ماكينة الكهرباء مع القادة تهبط به إلى درجة عريف.

انتبه إلى نداء سيارة النقل إلى محطة قطار السويس، كان يتمنى العودة إلى الإسكندرية في السيارات الخاصة، قطار السويس لا يتمناه، كفى ما حمل منه من ذكريات، لا يريد حتى مشاهدته، لا سبيل إلى العربات الخاصة،

النقود تكفي بالكاد المواصلات الداخلية، لا سبيل للعودة إلا عن طريق الاستثمار الحمراء العسكرية بسكك حديد مصر، صحبة زملائه في دفعة الخروج تُشعره في القطار بإحساس لم يشعر به من قبل، فراق ليس له من عودة، سيختفي الجميع في محطات النزول، طنطا، كفر الشيخ، المنصورة، دمنهور..

التفت إلى طاقم شرطة القطار، تفتيش العسكر للمسافرين، لم يقوَ على متابعة صاحبه، حقيبته ممتلئة بطلقات البنادق الآلية! لم تتراخ الشرطة في العفو والصفح.. خروجه وقضاء مدة خدمته لا تعفيه من تلك الجريمة!

اقترب القطار من محطة رمسيس، أزاح مشاهد الحزن من القبض وفراق الصُحبة، عليه الإسراع ومعرفة متى يقوم قطار حبيبته الإسكندرية، وتلبية إلحاح تناوله لأي طعام وإرواء عطشه لحين قيام قطاره، ساعتان ونصف. التفت إلى موقف أحمد حلمي، سيارات أجرة الأقاليم على جانبي الطريق، لا وسيلة في السفر بها، نقوده تكفي فقط لكوب من الشاي مع بعض قطع الخبز التي حملها معه من معسكره وقطعة الجبن الأبيض، لا مثلجات.

انتبه إلى ساعته تقترب من ميعاد قيام القطار، لم ينسَ النظر للمرة الأخيرة لتمثال رمسيس المهيمن على الميدان، ما زال يرش ماءه على الجميع، لم يسعد، القطار مزدحم على آخره، خبرته في اختيار مكان لم تسعفه في مطلبه، مطلب مستحيل لمقعد خال، افترش الأرض، كان يريد الانفجار في

هؤلاء الركاب، مَنْ يفترش الأرض؟! أهو مَنْ شارك في أمان أهل مصر؟ هو مَنْ ضحى بأيامه ولياليه وشقاء الصحراء وملازمة الموت؟ الآن يفترش الأرض وغداً تذهب شهادته بما تحمل من مشاركة في تحرير سيناء أدرج الرياح!

ذهب الإحساس بهؤلاء القوم، ألا ينظرون إلى علامات حرارة الشمس وسواد بشرته وصدره وساعديه، جسد يحمل كل علامات الشقاء، لِمَنْ؟! نعم لمِصر وأهل مصر.

اكتمل بؤسه وأحزانه، مُحصل القطار يتحرى تاريخ استمارة السفر الحمراء، يتأفف بمرور قلمه بصحتها وخلوها من التزوير، لم يتردد في إخراج شهادته العسكرية ومشاركته في حرب العاشر من رمضان، لم يلتفت إليها المحصل! كان شاغله هو إثبات تزوير تلك الاستمارة! لم يفلح في إثبات ما يريد. هو الوحيد "الملوم" يعرف لماذا هذا الغضب وتلك المحاولة؛ لن يتناول نقود وتلك هي حسرة المُحصل في ضياع نسبته المقررة في تذكرة الركوب، تمنى إلقاءه من نافذة القطار، كما ألقى زميله بنفسه من الشباك هرباً من بطش المُحصل وأمن القطار! لقي حتفه! لم يتأثر المُحصل بسماع توسلاته بعدم القدرة على الدفع، وكانت النهاية بالموت بدلاً من زيارة بلدته وأهله!

انتعش أنفه برائحة يعشقها ويدوب فيها، رائحة البحر، القطار يدخل أول محطات حبيبته الإسكندرية، محطة سيدي جابر، دقائق ويدخل إلى محطة لا يريد أن يراها مرة أخرى، محطة قطارات الإسكندرية، بوابة الكآبة

والرحيل إلى معسكره بالسويس، انتوى وأصر على ألا تدوس قدمه هذه المحطة، أسرع بالخروج.

رائحة السمن البلدي تهب عليه، محلات العصافيري الحلواني، لا مفر من الهروب، هريسة جدته الدائمة إليه، رحلت ولم يرحل العصافيري! اتجه إلى شارع النبي دانيال، هو أقرب طريق إلى حبيب عينيه شاطئ البحر، لم ينسَ التوقف أمام منصة الزعيم سعد زغلول، ما زال شامخ رافع رأسه في السماء. لم يعبر إلى كورنيش الشاطئ، عليه السير بالجانب الآخر، إلى مَنْ يهواها ويتمنى لقاءها، فينوس حبه، "ليلي" الخرساء، رحلت من الدنيا، لم ترحل من قلبه المُعذَّب بفراقها. لم يلتفت إلى النوافذ المُغلقة، صعد درجات السلم الرخامي القديم، نظرت إليه، أضاءت بسمتها الدنيا كلها، لم يقوَ على الفكك من حديثها السرمدي، كان يتمنى لقاء نظراتها الملتهبة، لا يريد المزيد المزيد من حديثها والمُنتهى بالفراق وإن كان سرمدياً، لم يستطع الثبات على درجات السلم، هبط تحت أقدامها، يُنصت، يتلذذ بنبرات صوتها العذب يصول ويجول في متاهات قلبه المُعذَّب، نظراتها توحى إليه بأشياء لم يعرف مغزاها ولا يفك طلسمها، لم يدم اللقاء، رحلت، كما رحلت أنفاسه ودقات قلبه، عذاب كل لقاء، لا سبيل إلا التعود على الفراق، ومواجهة تلك اللحظات، الآن عليه القيام بقبلات الرحيل لدرجات سلمها التائه بين حبه وبرزخها ودقات قلبه المترددة بين الخفقان أو التوقف. هبط درجات السلم. الآن جاء لقاء أحبابه "شريفة" و"لطفی"

لا يشبع من النظر إليها، هي تتربع في وجدانه، رغم ما أصابها من أحداث وما مرت به من سنين، ما زالت شاحخة عالية بعلو هيبتها وقوتها وصمتها، لا تمل ممّن يلتفون حولها، تفحص الوجوه والأجناس، تريد أن تصل إلى غايتها من اللقاء والعناق والحبّ الذي فقدته بماضي زمانها، لا تشعر بهذا الحبّ الصامت، المراقب لها من تاريخ عمره الذي في زوال، لا تلتفت إليه كما تلتفت إليه رائده ومعلمه ومرشده الشامخ على منصته بميدان محطة الرمل الزعيم سعد زغلول، فرق شاسع بين هذا وتلك، "لظفي" لا يمل ولا يكل من النظر إليها عسى أن تحن عليه بنظرة واحدة أو تلتفت إليه، رغم كل هذا الجفاء، ما زال "لظفي" يتمنى ويصبر وينتظر، من أجل هذا كانت جلسته بمقهى فاروق، أمام الشاطئ المُداعب لها، يلطمها بأواجه! البحر هو الآخر المُعذب، لا تهتز من أمواجه وأفاعيله الصببانية، يلفح أسفلها وفوقها، لا مفر، هو الآخر عليه الصبر كما يصبر هو، جلسته الجديدة بهذا المقهى، كان يعرف أن قرب الجوار يأتي بالوصال، أمتار قليلة بينه وبين تلك الحبيبة، قلعة قايتباي الشاحخة.

يفرّ من حبيبته "شريفة"، هي الأخرى أصابها الملل من جلسته المنزلية، وزوال الحبّ الذي كان، تفر كما يفر هو الآن! لا يعرف أين تقضي أوقاتها؟ يتركها ويرحل إلى تلك الجلسة وذلك الحوار.

أبناءؤه "علي" و"لملوم" في أول درجات البحث عن المتعة واللهو! كان في راحة بعد إنهاء خدمتهم العسكرية، الاثنان شاركوا في حرب العاشر من رمضان

وخرجوا أصحاب أقوياء لتحمل مشاق الحياة وتوابعها، لا خوف عليهم،
الخطوة العسكرية أعطتهم الكثير من القدرة على مُنازلة الأحداث والأفعال
والأمكنة.

لم يشعر بانتهاء كوب الشاي، نفد! حاول التقاط ولو قطرات من الكوب، لا
سبيل بطلب كوب آخر، حساباته ما زالت هي حسابات الماضي، نقود تكاد
تكفيه لبضعة أيام من قبض راتبه الجديد، لم يشعر بلحظة واحدة في
مأساة حياته بوفرة مال أو فائض يُنقذه من عطش احتساء كوب شاي، لم
يشرب أي مشروبات أخرى في تلك الأمكنة إلا مع واحد فقط، صاحبه
بمستشفى الأمراض العقلية، جامد الملامح بطيء الكلمات، صاحب النظارة
السوداء والعين الواحدة. لا يعرف كم من الوقت مضى لم يلتقِ به.

التفت إلى قرص الشمس في طريق الزوال، يختفي وراء القاسية، بعيدة
الحنان، القلعة. حنانها يذهب إلى من تفر خلفها وإليها، لثعلن عن دخول
الليل.

كان يعرف فكر أصحاب تلك المقاهي، لا ينزعجون من الجالس الصامت
مثله، كل الانزعاج ممن يلعب بأدوات اللهو: الطاولة والشطرنج والدومينو.
تلك الأشياء مُراقبة من النادل بل ومن صاحب المقهى. التفت إلى النادل،
يُسرع في التقاط الشطرنج، يُتمم على الجيش الجرار من الملك والوزير
والفيلة والعساكر، علامات الفرحة تملأ ابتسامته.

عيناه مُتَابِعَةً لهؤلاء الزبائن المغادرين للمقهى، كان يتمنى كوب من المياه المثلجة، لا يتجرأ في طلبه، طلبه يحتاج إلى مشروب آخر وهذا من المحال!

عليه الآن الرحيل من مقهى فاروق، لن يعبر الطريق إلى كورنيش البحر، غربت الشمس وازدحم شاطئ الميناء الشرقي، الزوار لا فرق بينهم وبين شاطئ الأنفوشي، الناس الغلابة هم زوار الشاطئ وأرصفت البحر كل يوم، يفرون من البيوت المُفْتَقِدَة لكل شيء، قلة المال هي الحاكم بأمره في تلك المزارات، لا أحد مستعد لتلبية مصروفات التنقل ولو إلى الشاطئ القريب، شاطئ الشاطبي، هناك رواد من صنف آخر، صنف يصرف ويُنفق بين المظلات الليلية والأشربة المُكَلِّفَة بأصنافها المختلفة، هو الوحيد القادر على اختراق تلك الأماكن، بل والجلوس دون الإنفاق وإرهاق حافظة نقوده الخاوية دائماً.

التفت إلى الزعيم، ما زال يتوسط حديقته بميدان محطة الرمل، تمنى أن يلتفت إليه كما كان في الماضي، الهتافات السرمدية يُنصت إليها، يتمتع بها:

- سعد يحيا سعد...

لم يستطع صد جماح صوته وعلويده، وبأعلى صوت:

- سعد يحيا سعد...

التفت إلى قلعة قايتباي، هل هي الأخرى تنظر إليه؟ أم إلى مَنْ تُحاوره بالليل والنهار. لم يتردد في تعليقه صوته إليها:

- سعد يحيا سعد.

صعد درجات الزعيم، ما زالت المرأة حاملة عُصني الزيتون قابعة أسفل قدميه، لم يعهد أن تبتسم له، ابتسامة وإشارة بيدها، يشعر بها، يراها في كل وجدانه. التفت خلفه، شباب الميدان، يهتفون معه: سعد يحيا سعد...

هبط من درجات الزعيم، لم ينسَ أن يبتسم لها هو الآخر. الآن يُكمل نداءه، ليس مع الشباب فقط. أولاده "علي" و"ملوم" يهرولون إليه، لم يهتم بهما، صاحبه وصديق عنبره يُلوح له، يصعد إليه، لم يستطع أن يُخفي غضبه! تُرافقه عاملة السنترال بمستشفى الأمراض العصبية! فهم "لطي" مشهد صاحبه جامد الملامح بطيء الكلمات، صاحب العين الواحدة.. التأم شمله مع تلك الفاتنة، هي طاقة الحظ في عمله بإدارات الأمن. التفت إلى أبنائه "ملوم" و"علي"، يراقبان تلك المرأة وذلك الرجل، أبطأ في هبوط درجات سلم الزعيم، هناك مَنْ يسبقه. "ملوم" يُرحب بمن حقق معه في مقتل "السيد النجرو" شقي بحري. لم يفرح بذلك اللقاء، يخش على ولده من نظرات الفاتنة! يعرف كم من جمال يحتوي ابنه الأبيض الغض المُبتسم، عيونه تسحر كل إناث الدنيا! كم عانى من مغامراته مع بنات الجيران، وخوفه عليه من الوقوع في فخ الخطيئة. الآن الخطيئة كلها أمام عينيه مُباحة مُستباحة لكل مَنْ هو جميل، نعم هي فاتنة، تسحر كل رجال العالم، يركع الجميع أمام عيونها الخضراء وجسدها الأبيض المشوق بكل بدائع السماء! وها هو الواقع في حصن جمالها، صاحبه وصديق عنبره.

عليه الآن التصرف بكل حذر في فك ابنه "ملوم" من شفرات وأعاجيب تلك الفاتنة، لا يريد قطع لذة شهوتها بالنظر إلى ولده بتلك النظرات التي يجب أن تُزاح، لكن بالحكمة والعقل، كفى ما مرّ به "ملوم" من مُعاناة الجنديّة وحرب العاشر من رمضان، يكفي هذا، يجب حمايته من تلك العيون وشهوتها الفائرة!

بدأت خطواته في الاقتراب، أشار إلى "ملوم"، همس في أذنه:
- أخاك ينتظرك على الطريق.

لم ينظر إلى ولده في طريق الانسحاب من نزال الحب، كان ينظر إلى هذه الفاتنة المُتَابِعة لولداه "علي" و"ملوم"!

سعد "لطفی" بأخبار صاحبه، تزوج من تلك الفاتنة، لم يسعد بخبر الغلام الصغير ابن رجل الأمن، الراحل من الحياة، ما زالت أثاره موجودة، وفي أين! في عُقر داره، وليد مَن فَقاً عينه، لن تُغني شفاعة هذا الرجل في وضعه بمنصب الرجل المهم في الأمن، نعم حظي بامرأة كان يتمناها من زمن فائت، الآن هي بين يديه، تسكن في حضنه، يمتص رحيقها، يتمتع بها كيفما شاء. هناك مشكلة صعبة النسيان، ذلك الغلام وتلك العين المُغلقة بيد رجل الأمن الراحل التارك لأثاره تنهش في ذاكرته وتاريخه..

أفصح له صاحبه جامد الملامح بطيء الكلمات ذو العين الواحدة بكل تلك الهموم. لم يجد "لطفی" إجابات تُريح ذلك المسكين إلا أن يُنبهه بأن امرأته تنتظره داخل السيارة!

هبط على رصيف الشاطئ، لم يشعر بالصقيع وصفير الرياح وظلمة الليل، ما زالت الأنفوشي صندوق ذكرياته، تلفه بالحنان، خطواته ما زالت حاضرة على الرمال، دفء رصيف جلسته لم يبرد بعد، لم يَمَل من الانتظار، يعرف أنها ستأتي، متى لا يقدر أو يتوقع أن تأتيه في التو واللحظة، عليه أن يفرك مصباح قلبه، وعليها الاستجابة. "ليل" الخرساء، آخر لقاء معها لا يتذكره متى كان؟ هي تأتيه في الليل، لم يبرح الشاطئ أو يترك جلسته، لا يخشى نظرات أمه "شريفة" التي تراقبه من خلف النافذة، أبوه "لطي" يغط في النوم، شقيقه "علي" بعمله في وردية الليل.. هدوء الشاطئ وندرة المارة وخلو مقهى "انح" و"عرفة"، مفاتيح تفتح له أبواب محبته على مصراعيها، وهي لم تأت بعد!

أتعب مصباح قلبه من الفرك، لا حيله له غير الانتظار، التفت إلى النافذة، ما زالت أمه تراقبه، لم يفكر بالذهاب إلى بيت محبته بزقاق بندقة، فكر في رحيل آخر، الذهاب إلى سور المدافن، عسى أن يوقظها من نومتها السرمدية، لم يفكر من إخراج غليونيه وإشعاله، عسى أن يزيح مرارة الانتظار.

أمه ما زالت تراقبه، هو ما زال "الملوم" الصغير ينام في حُضنها، عرف أن يتخلص من رعايتها له في الاستحمام الأسبوعي وتدليك ظهره وسواعده، لكنه لم يتخلص حتى الآن من المراقبة والعناية، يفر منها، كفى ما قرأ عن

عُقْدَة أوديب وعذاب مَنْ يقع فيها، يريد أن يخلع عباءة الطفولة، الآن هو رجل يُحب ويعشق وينتظر، عليها أن تقر بفوات السنين وبكثافة شاربه. ساعته تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل، لا يهم، فاليوم الخميس وغداً الجمعة إجازته الأسبوعية من عمله بمديرية أمن البحيرة. هم واحد، يشغله بأيام الأسبوع، يقظة الفجر والإسراع إلى محطة القطارات والذهاب إلى عمله بدمهور. استراح من شقاء الجندي ليقع فريسة عمله البعيد! لم ينسَ الاعتراض هو وأصحابه على العمل في محافظة أخرى وذهابهم لتلك المقابلة الفاصلة والشكوى والالتماس بإيجاد عمل لهم في مدينتهم الإسكندرية.. هم مَنْ حارب وقاسى كل الآلام في حرب العاشر من رمضان، عسى أن تُزكيهم في قبول النقل إلى مدينتهم، يسخر نائب الوزير مُنتفخاً في مكتبه ورده السافر والساخر في آن، لن ينسى ما أفصح به:

- بطلوا تلك الحكاية، إنها تمثيلية وقد نفدت بما يريد الكبار!

تقليل وتحقير لأيام البطولة والوفاء لحب مصر والنصر! لا حيلة له إلا أن يصبر ومد كفه إلى والده "لطفى" ليكمل له باقي أيام شهره!

التفت إلى النافذة، اختفت أمه من ورائها، لم يبرح مكانه عسى أن تأتى إليه مَنْ يُحب، فينوس حبه المُعذب بين حياة سرمدية وحياة يريد أن يرحل عنها هو الآخر، كفى ما رأى وعاش من خداع، لكن لا حيلة له غير أن يتواصل بين أرا جوزات السادة وأزاهير من يُعاني من أمثاله.

أنفاسها تلهب دقات قلبه، تسكن أمواج شواطئه، التفت إليها، ما زالت في
ردائها الأبيض الشفاف، مفاتها تدعوه بكل جبروت الحب بالطاعة
والقبول، ندائها السرمدى:

- ارحل إليّ.

توقع أن تأتيه لتواسيه وتؤنسه من متاعبه وحياته! مطلب وحيد:

- ارحل إليّ.

انقعد لسانه من إجابة ما تريد، يريد أن يتمتع بها كما تعود منها، آيات
الحب رحلت عنها، نظرات الاشتياق تغيرت آمرة بالطاعة! أنين قلبه يتوسل
إليها، عيناه تنفرط بدموع الرحمة من إجابة ما تريد، دقات أجراس الدنيا
تصم آذانه وتشل خطواته، لا سبيل إلا أن يُودع رحيلها بغير عودة، لم
تلتفت إليه، رفعت ذيل فستانها، ما زال يرجوها بعدم الرحيل، فلا سبيل أن
يُنهي حياته بيده واللحاق بعالمها السرمدى. طالت ركعته الأخيرة في
التوسل إليها بعدم الرحيل.

نظر إلى القصر ومعسكرات القوات البحرية، لم يجد أي حيلة لدخول قصر الملك والتزّه بين حجراته كما كان يفعل بالماضي القريب، تلميع أثاث القصر ومُتعتّه في الجلوس بغرفة الملك فاروق. نعم، الثورة أزاحت الكثير من آثار الملك وأسرته، لكن ما زالت هناك بعض آثاره صمدت وقاومت تلك الأيدي العابثة بتاريخ مصر. رائحة الملك لم تبرح القصر، صدى رنين الحفلات والمقابلات مع عظماء الساسة تزحم الأمكنة، مصطفى النحاس وعلي ماهر والملكات والأميرات، حوائط القصر تحتفظ بعطرهما الفائح.. منذ أيام سُحبت أدوات عمله من الجملكة وأدوات التلميع، أُخِي طرفه من كل الأشياء التي تُمهّد له دخول القصر ومعاودة أحلامه، لم يصمد في صد دموع الشوق لآخر لقاء مع رائحة الملك ورائحة الضباط الأحرار، ومشاهد ناصر وأصحابه.. نعم حضر سنوات قليلة مع خليفة الزعيم، السادات الذي لم يتأثر بخطواته وأحداثه المتلاحقة، كان دائماً في قصر عابدين بالقاهرة، طوى ورقة إخلاء الطرف، نظر إلى ورشته ومكان عمله المنحوت في طيات سنين عمره.

الآن عليه التوجه إلى بوابة قاعدة رأس التين والخروج بلا عودة من هذا المكان، لم يفرح بمستحقاقه المالية وملاً حافظه نقوده للمرة الأولى بالنقود الورقية! كم ستسعد امرأته "شريفة" بنقود الوداع لتاريخ عمله. كان يتمنى العروج إلى فلذة كبده ابنته "ثرية" وأولادها.. لكن مُحال له القيام بتلك الزيارة، كفى ما شاهد من زناها وضياع شرفه وشرفها.. أليس

من الممكن أن يرى مَنْ يمتطيها في غياب زوجها مرة أخرى؟! لا لن يذهب، ولن يمر من أمام بيتها، سيخترق الطريق الخلفي المؤدي إلى ورشته بحجارة اليهود، شارع السور، هكذا وعد أصحاب مهنته. لن يتراجع في قراره بالذهاب والاحتفال معهم بنهاية خدمته بالدوائر الحكومية.

الآن هو الأسطى "لطفی" الأسترجي، بل معلم المعلمين وشيخ هذه المهنة في حبيته الإسكندرية، محلق الأفندي كما كان يُلقب بين جيران مسكنه، عاد إلى ميلاده القديم عامل من زمرة البروليتاريان التي يُحبها ويعشقها. انتبه إلى تلك المرأة أمام الورشة، "أم عليّة" عشيقة المعلم صاحب الورش، لم تُغنِ سنوات التقدم في العمر من رحيل الحب الحرام بينهما، ما زالا يعشقان زوايا الورشة المظلمة، ومزاولة الحب المُحرم، تصر العشيقة على ردائها القديم الحديث، الملاءة اللف واليشمك الذهبي بنقابه الشبكي فوق أنفها، والآخر مُصرّاً أيضاً على معاودة الحب، انحنى ظهره، وفترت سواعده، لكنه ما زال على نهجه ومنواله من الحب المُحرم.

لم يجد "لطفی" سبيل إلا العودة من حيث جاء، لا سبيل إلى مقابلة أصحابه الفارين من مشاهدة الحب حتى وإن كان في الظلام!

لا تمل من النظر إليه، تعشقه بكل ما فيه من أنين وعذاب وشجن، لم تصد تمتعها بهياجه وصبرها على هدوئه، ترحل معه في جميع أيامه، صيفاً أو شتاءً، أرشيف يحفظ ويكتم ولا يفشي، يتحمل الجميع ويفسح لهم من المزيد، حبه لها لا يراه إلا هي وحدها، هكذا هو حاله مع كل محبيه.

بحر الأنفوشي، لا تكل "شريفة" من النظر له والحديث إليه.. تودعه الآن، يأذن لها، لكن على مريض تحس به وتتألم، لا بد من الفراق.

الحنين يأخذها إلى مكان آخر، راغب مقر الرحيل الثاني من الأنفوشي. ذكرياتها مع الراقصة "عنايات"، تجذبها بكل قسوة المتعة والحنين والاشتياق، لم ترحل بدلة الراقصة في رقصتها، ليس بجسد "عنايات"، بل بجسد "أم حلويات" جارتها الراحلة في أطراف سيدي بشر، هي هناك و"عنايات" هنا!

هبطت من العربة بالقرب من بيت الراقصة، عليها الآن أن تستعد للقاء، التفتت إلى شقتها القديمة، ما زالت مغلقة، لم تُسكن بعد، لم تصمد أمام أصوات الغناء، تنبعث من نافذة الجارة "عنايات"، أردافها تهتز، أسرع بالصعود على درجات السلم الممتلئ، وقفت مثلهم تستمع، لم تنبس بكلمة أو تتقدم خطوة، عليها الإنصات لكوكب من كواكب الفن، عزت عوض الله يشدو: نؤارة حارتنا.

لم تقدر على الوقوف، جلست على درجات السلم، رحلت إلى عالم آخر، عالم الحب الذي في طريق الزوال، زوج لا يمكث إلا القليل معها، يقضي وقته

كله خارج البيت! أولادها "ملوم" و"علي" يبحثان عن الحب، فورة الشباب تدفعهم في نفس طريقها مع مَنْ أحبته، مذاق الحب والعذاب والشقاء والزنا! هي الآن في نهاية محطات الحياة.. حاولت أن تعود من حيث جاءت، لم تفلح، جارتها عنايات تُشير إليها بالصعود، أعجبت بميعاد الزيارة، عيد ميلاد ابن "عنايات"، ملين آخر العنقود، زملاء الفن السكندري اجتمعوا لإحياء الحفل، لم تهتم بالست بدرية السيد، هي كما هي، لم تتغير في شيء، أخذت الشهرة وما زالت بنت البلد ذات الرداء الشعبي السكندري!

سعدت بالشباب وعيونه المتلهفة لقطف الجمال، هي الآن في الدائرة المتلهبة للقطف.. ينظر إليها بإعجاب! لم تُمانع من النظر إليه هي الأخرى! إبراهيم عبد الشفيع، لم تتأخر "عنايات" من جذبها إليه، لم يعجبها احمرار وجهه وارتعاش أطرافه! انتبهت للعيون الثاقبة، عزت عوض الله، لم تشعر إلا وهي بين دفء حبه يقفز إلى قلبها، لم تُمانع من أيدي الراقصة "عنايات"، تعبت بخصرها، وإجابة دقات الطبل وغناء نارس الإسكندرية وتصفيق الحاضرين!

- يا زايد في الحلاوة يا منور حيناً..

نظرت إلى جسدها، نعم ما زال زائد في الحلاوة، أين "لظفي" ليرى هذا الجمال وتلك العيون الجاحظة لجمال جسدها؟

انسحبت في صمت خطواتها الراحلة من هزات الرقص، هي تعرف حجرات الجارة "عنايات"، كانت تتمنى جارتها "أم حلويات" أن تكون معها في تلك

اللحظات الشاردة من عذابها المتكرر اللاه منتهي، حياة الراقصة "عنايات" رائعة بما تحوي من كل شيء، الغناء والرقص ونوارس الطرب ورائحة راغب التي حرمها "لطفی" من التمتع بها! ما زالت شقة راغب لم تسكن بعد، لم ترص "عنايات" بفكرتها للعودة إلى راغب وتركها لـ"لطفی" وأولادها "الملوم" و"علي"! لم تصبر على تكملة احتساء كوب الشاي، أسرع بالخروج والابتعاد عن تلك المرأة التي تحس في إجابتها بالغيرة من جمالها المتناسك من الصدر والأرداف!

يسير بخطوات ثابتة عسكرية، قوية مندفعة إلى الأمام، رأس مرفوعة، جسد ممشوق، لم يهتز بورقة استدعائه إلى قسم الجمر ك بيد أمه المرتعشة ونظرات أبوه "لطفي"، خانت قواهم وزاغت عيونهم وخارت عزائمهم، فوات السنين ومضي العمر، يفضح سرائرهم، إلا هو، يثبت ولا يهتز ولا يترنح أمام ورقة استدعاء تذهب به إلى أيام الجندية. يتشابه الاثنان: العسكرية والداخلية! اقترب من القسم، لم يهتم بالمقابلة، لم يذهب بخياله بمن سيقابل، لا يهم، كم التقى بقيادة ورُتب عسكرية أيام تجنيده، أصبحت تلك المسائل من المشاهد البراقة أن تخيفه أو تفزع، شيء واحد يتفنن في إيجاد إجابة له، لماذا الاستدعاء؟! لم يستطع حل ذلك اللغز، عليه الصبر حتى في صعوده إلى تلك الرتبة من الشرطة، لم ينتظر كثيرًا، أذن له بالدخول، كانت الكلمات تنم على كثير من الاحترام، وعليه الرد بكل جدية دون مراوغة.

س: لماذا قدمت استقالتك من وزارة الداخلية ومديرية أمن دمنهور؟
فهم "الملوم" الموقف، لم يكن الوحيد الذي قدم الاستقالة من المديرية، كان معه كل زملاء دفعته الخارجة من العسكرية وفشل محاولتهم للنقل داخل محافظتهم الإسكندرية ومدى الاحتقار لمشاركتهم في حرب العاشر من رمضان. الآن فهم الموقف، الشرطة تبحث في تلك الاستقالة الجماعية ومن مكان واحد، مديرية أمن البحيرة، الوزير يبحث عن أسباب الاستقالة..

ج: الآن أعمل بشركة قطاع عام، وسائل مواصلات متوفرة، مساكن أيضًا متوفرة، كل سبل الرعاية والعناية أجدها دون مشقة، حوافز شهرية وسنوية

ومكافآت لمن يتميز، عملي بدمنهوور يجعلني قبل نهاية كل شهر أمد يدي إلى الوالد لتكملة فقط أجرة المواصلات.

لم يتبرم المحقق من سرد رحلة الالتماس لمكتب وزير الداخلية بالقاهرة ورده غير المسؤول عن حرب العاشر من رمضان وتهكمه على من شارك.. - أليست تلك كل الأشياء كافية لترك الوزارة من أول خطوة أمل؟ والتي جاءت إلينا بطبيعة الحال نتاج ما تعلمناه من خبرة وإجادة العمل.

شعر "ملوم" بسعادة الانتصار بالحق وقوة إقناعه للمحقق الذي لم يرفع وجهه عن أوراقه. زادت فرحته وزادت ثقته بإجاباته، المحقق يُوصي بعدم قبول الاستقالة، أوصى بعمل إجراءات نقل إلى مقر عمله الجديد. لم يتأخر بتقديم كلمات الشكر إلى هذا المُنصف الواقعي لتقلبات الأحوال.

خرج بخطواته الثابتة العسكرية، ليس بنفس قوتها، لكن بقوة أكبر بكثير مما كان، الآن عليه الإسراع إلى ورشة حارة اليهود وإخبار أبوه "لطفني" بما حدث.

لم يأخذه الحنين إلى الحبيبة الراحلة، لم تأتِ إليه منذ أن رفض طلبها الصعب للحاق بها، لن يُقدم على الانسحاب من الحياة بأي طريقة كانت، ما زالت آماله في تكملة خطواته بتلك الحياة ساخنة لم تبرد أو تهدأ أو تمل، هي الآن في مستقرها الأخير، كلما كان يفرك قلبه تأتبه على مهل، لا يُعجل بالمجيء أو الذهاب إلى سور المدافن، ينتظر اللقاء، نعم كان يتمتع بجماها وثوبها الشفاف وكلماتها الملتهبة، لا يتمنى أكثر من ذلك، كيف يتمنى وهي لؤلؤة محشورة بين المقابر؟ فينوس حبه "ليلي" الخرساء، يا لها من أيام، لن تعود إليه أبدًا! هو الحائر التائه بين صفحات قلبه المُعذب!

توقف أمام سينما الأنفوشي، لم يستجب للنداء في صالة العرض، مُحال تواجهها، هي تأتبه في وحدته، في ظلمة الليل وسكون الأنفاس، ذكرى الحب والمتعة واللقاء، لن يجدها إلا في طريق واحد، زقاق بندقة، ودرجات السلم ولهب المُتعة المستورة في ظلمة الليل. لم يستطع الرجوع عن تلك المحاولة أو أن يبطئ من خطواته إليها، لم يفلح من الهروب من عين سيدة الزقاق، "أم حربي" صاحبة المزاج الرائدة في سُمعة الحشيش الفاخر، حاول عدم الاستجابة لندائها إليه، اعترضته في منتصف الطريق، لم يتبرم بإخبارها بأحوال أمه "شريفة"، خارت قواه أمام كلماتها:

- "الملوم"، مازلت تحب تلك الخرساء؟! لا أحد بالمنزل، شقيقها بالسجن، بيتها لا يصعد إليه أحد يا حبة عيني، حبك مفقود بين التُرب، هناك بالمدافن! اذهب إلى أمك؛ عسى أن تجد لك زوجة تملك من حبك للموق!

لم يجد كلمات للرد على تهكمها وسخريتها من حبه الأبدي غير أن يرجع إلى الوراء، إلى شاطئ ذكرياته.

التفت إلى مَنْ تُراقبه ليل نهار من النافذة، "شريفة" أمه، لم يجدها! عليه الجلوس وطلب وقت من الراحة لدقات قلبه المرتعشة، عليه البحث عن سُبُل أخرى تُغنيه عن عذاب حبه وفراق أصحابه، الجميع شق طريقه في الحياة وهو ما زال ساكن راض كل الرضا بحاله وحبه ووحدته! عجب من أحوال الماضي، حافظة خالية من النقود، وعمله الشاق بالبحيرة! تلاشت الآن كل تلك الأحوال، حافظة ممتلئة بالنقود، خالي البال من مشاكل الذهاب والعودة من العمل، كل شيء متوفر، إلا شيء واحد، قلبه الخالي من الحبيب، أخرج غليونه، أشعله عسى أن يزيع تلك الهموم.

لم يجد الراحة التي يتمناها على شاطئ الأنفوشي، عليه الرحيل إلى مكان آخر عسى أن يُكمل له ما يتمناه، اقترب من حلقة الأسماك، صامته سوداء، لا يوجد غير رائحة الأسماك، لا تمثل له قيمة، الشراغيش والمرجان والحبار والكابوريا ولحمة الترسة وسمكة البطاطا، رحلوا كما رحلت حبيبته الخرساء.

لم يشعر بخطواته وهي تتجه إلى حب آخر ما زالت دقاته تنبض بداخله، "بيحة" حبيبة سكنه القديم بجسدها النحيف وشعرها الأصفر وعيونها المتلونة مع نسيمات المتعة، زرقاء، خضراء، عسلية، هي الفاتنة الصغيرة، فكيف حال جمالها الآن؟

صعد على درجات سلم المرسي أبو العباس، دفع يدها ما زال يشعر به بين كفيه، شقاوة بسمتها ما زالت تملأ عينيه، التفت إلى قلعة قايتباي، ما زالت شاحخة، لم تختف بعد، كيف اختفت "بيحة"؟! لا توجد إجابة إلا الانتظار مع الصبر ومذاق حلاوة ذكراها.

تحاشى النظر إلى تلك الغانية، تحوم حوله من بداية جلسته، ظلمة الليل وسكون أنوار المساجد، تختفي وراءها، حاول أن يبطئ في خطواته، وكما توقع، تصطدم به! تسكن في صدره، اهتز مع اهتزاز وزلزلة قلبه، "بيحة" بشحمها وجسدها الفرنسي النحيف وشعرها الأصفر المختبئ تحت الإيشارب الممزق! نداء الحب يصعد بهما على درجات المسجد، لم يهتم بما أحاط بها من مهالك الهروب وفقدان ما كانت تصونه، رحل كما رحل حبيبها الإسكافي، تردد في الإفصاح عن فعلته في النعي الزائف الذي أهلك حبيبها، لم يكن وحده الفاعل، كان صديقه هو سبب المصائب التي حلت بها وفقد الخاطب.

ذهب إلى فكر آخر، كيف نجدتها بما حل بها الآن؟ هي بين يديه وفي أحضانه، ما زال من الوقت مُتسع، تلك فرصته في احتواء حبه القديم، التفت إلى العين الراصدة، تحوم من حوله، لم تتأخر في الإسراع بالهبوط معه على درجات المسجد، سعد "الملوم" بعربة الأجرة القادمة، أشار إليها، لم يصب من لكمة المُعترِض لهما، لكمة هو الآخر لكمة قوية أسقطت المُهاجم على الأرض!

أسرع "ملوم" بالقفز بحبيته داخل العربة التي أسرع بالرحيل، فهم من هو الرجل، هو القواد المُنسِق الليالي مع الزبائن، لم يدرِ إلى أين يتجه؟! عليه التفكير وبسرعة في الخطوة القادمة، وأهمها مكان لمبيت محبوبته.. شقيقته "ثرثرا" تعرفها ولن تقبلها. الخالة "نرجس"، نعم هي كيفية وتحتاج لمن يراعاها ولا تعرف أي شيء من أحوال "بيحة"، لا صوت ولا صورة ولا معلومة، تجهلها تمامًا. سعد "ملوم" بقرار الذهاب إلى الخالة "نرجس"، ستسعد بعمله في إيجاد من ترعاها بالليل والنهار. لم يصبر، التصق بجسد حبيبته، حدثه السائق من خلال المرأة الفاضحة لحبه:

- مكان ليس به نور يا أستاذ؟

رد من بين نَعاس الحب وحلاوته:

- سيدي بشر، شارع خالد بن الوليد، وحياة أبوك.

لم تلتفت إلى مياه شاطئ سيدي بشر، فرق شاسع بينه وبين شاطئ الأنفوشي ورواده، هناك عيون حانية تجذب وتضم القلوب، لا فرق بين كبير وصغير وغني وفقير، أبيض وأسود وأحمر، الجميع يشعّ بالحبّ والود والتواصل. هنا لا أحد يتحمل أحد! جبهات مرفوعة مُتأففة من كل مَنْ حولها، مُتعة الرفاهية تعلو بهم في أعالي السماء.

كانت في حسرة من مشهد أصابعها، آثار غسيل ملابس الخالة "نرجس"، ومداومة استعمال أدوات الطبخ، شوّهت أظافرها الخالية من طلاء الأظافر! أسبوعان فقط يفعلان فيها ذلك التشويه! فما حال الأيام القادمة؟ عليها الصبر مع حُبها الذي أتى إليها، كم حامت في ميدان المساجد بحثًا عن الحبيب المفقود، "لملوم" الآن في متناول قلبها وجسدها المُنتهك من أصابع الزبائن دون رغبة ولا حب! عليها الصبر مع الحب الناقص من مشاهد المتعة واللذة التي تنتظرها من حبيبها "لملوم".

برودة الهواء تحترق جسدها النحيف المُصر على الانتظار، ميعاده لم يحن بعد، هو يعرف ميعاد فسحتها كل يوم، كم أفضى إليها بعذاب إنهاء ساعات العمل للتلاقي وإحياء ذكريات الحب! "بيحة" تخرج من بين ثغره كأجمل لحن، مع أعذب صوت. أزاحت عنها فكرة إلى أين قد ينتهي حبها لـ "لملوم"؟ هل سيوفي بالوعد بالزواج أم ماذا؟ (ماذا) تلك لا تريدها أن تأتي إليها، كفى بالحب الناقص من الآهات وتأوهات الفراش. عليها أن تصبر معه، لكن هل سيصبر هو الآخر أم سيطلب المزيد؟ لا بأس، ستعطيه ما يريد، ستفتح

له أبواب جها على مصراعيها، لن تعطي لحظة فراق لحبيبها، كفى ما فقد من تلك اللحظات التي لا تُعوّض.

احمرار وجهها يفضحها، "الملوم" قادم يُسرّع في خطواته يحمل متاع كل لقاء، لم يبخل، دائماً يأتي بالمزيد.. لم تهناً باللقاء، هناك ما يخفيه! هكذا حال جس المرأة، نبرات صوته ونظراته تُنبئ بأخبار غير سارة، انكشمت في صدره، لم تعباً بالمارة أو بنظرات من حولهم..

القواد صاحب مُتعتها المحرمة عرف طريق عمله، بل وصل الأمر أن هدده بالقتل إن لم يُعِد رأس ماله وحافضة نقوده! "بيحة" تفلت منه إلى يد لم تقدم أي عطاء يرضيه بالابتعاد عنها والصد عن المراقبة والتهديد، لم ترَضْ أن يُقدم "الملوم" له ما يستطيع من المال، هي تعرف أن قوادها لن يرضى إلا بالكثير من المال، هكذا كان حال صويحباتها من النساء الهاربات من الليالي الحمراء وشقاء كل ليلة في جذب الزبائن! يجب البحث عن حل آخر، لكن كيف؟ القواد يعرف مكان عمل حبيبها والذي من الصعب بل من المُحال تركه، البحث عن حل ينهي المشكلة بلا رجعة.

لم تلتفت إلى ما أحضر "الملوم" من لفائف الطعام، لا سبيل إلى تذوقه أو حتى النظر إليه! كل الدنيا سوداء في عينيها التي انهمرت بسيل الدموع ومرارة الحياة، هي في لذة الحب وقناعته، خادمة ترضى كل الرضا بذلك الشقاء، تصبر مع الحبيب الواعد لها بالزواج الذي سيأتي ولو بعد حين، لا تريد العودة لحياة الزنا والليل والمطاردة التي نهايتها الشرطة وسجل الآداب

وعذاب الآخرة، نهاية مشؤومة لا تريدها، أبعد الوصول إلى أحضان الحبيب تتخلى عن فرصتها في الحياة المطمئنة والعيش في هدوء الأيام؟! - لا، لن أتخلى عنك.

لم تشعر بارتفاع صوتها، إلا من نظرة المارة والجالسين من حولهما، جمع "الملوم" لفائف الطعام، أمسك بيدها، كانت مطيعة لما يفعل من العبور بين المساكن تاركًا الشاطئ، لم ينجح في تهدئتها ولو بكلمة واحدة كانت تنتظرها من ذلك الحبيب، الزواج، هو نهاية تلك المشاكل والصد وغلق جميع الأبواب أمام ذلك العرييد، قواد نساء الليل. لم يفهم ما لمحت له بمخاطرة الزواج، أهو يتغابي أم يتجاهل تلك الفكرة؟!

لم تُكمل السير في اتجاه بيت الخالة "نرجس"، كانت تنظر إلى عينيه عسى أن ترى كلمة الحب الرحيم تخرج من بين شفثيه، هي على قناعة بسيرتها بين أهل حارتها، وخاصة أهل حبيبها "الملوم"، يعرفون قصة الهروب والاختفاء. "شريفة" أمه، خبيرة الحياة وسيرة الحب ومتعة اللذة، كل تلك الأحوال لا تُغلق أبواب الرحمة والصفح والنسيان.

قبض "الملوم" على يدها، دَفء يده يصل إلى قلبها، لم تتمالك نفسها من الفرحة والنبأ السعيد...

- لنذهب إلى الخالة نرجس، ونخبرها بالزواج.

(الرياح لم تأت بما تشتهي السفن)

سرح "لملوم" في تلك الكلمات، نعم، كيف يرحل شقيقه "علي"، بوغاز الإسكندرية مُغلق، السفر إلى القاهرة ينذر بالمصائب من حوادث الطرق، فكيف الوصول إلى أرض المطار بالقاهرة؟

صغير الرياح تصم الآذان، رخا المطر تأتي ثم ترحل! لم يرَضَ بالحل الآمن، السفر عبر القطارات، ما زالت مشاهد الرحيل إلى العسكرية تدور في رأسه، حاول بقدر ما يستطيع أن يصد شقيقه عن السفر عبر ما يكره، محطة مصر، بوابة كئيبة وقطارات تذكره برحيله المتكرر وعذاب بدلة العسكر الصفراء.. رضح في آخر الأمر، كما رضح أمام خطوات شقيقه في إنهاء إجراءات الهجرة إلى استراليا، قرار به كل شيء من القدرة على تحمل الفراق، فراق الأحبة: أبوه "لطفي" وأمه "شريفة". أما هو فمُفارق منذ سنوات لدفع الأثقاء! كل منهما يعرف طريقه إلى الحياة.

"علي" له كل الحق في وداع وطنه، لا حبيبة ولا صُحبة، فشل مرات في الوصول إلى عروس مناسبة، وكم خسر من أموال للوصول إلى تلك الغاية! الآن قراره الأخير هو الرحيل إلى بلاد الحرية وكل ما تحلو إليه نفسه؟ هو يحب تلك الحياة بما فيها من كل شيء مُباح، قفزة عبر القارات، ليستقر في أرض خُصبة وأصحاب جُدد ونساء يعشقهم. كان مُطمئناً بتواجد عمل له، حان الوقت ليستفيد بمن عرف من السائحين الأجانب، لغته الانجليزية خير مُعين له في التواصل معهم، وعظمة الأنفوشي بماضيها العريق وما

تخوي من الآثار، من أهم أسباب علاقته بالأجانب؛ وتسهيل كل شيء من سبل استكمال أوراق هجرته.

لم ينتبه "الملوم" لتوقف المطر، انتبه إلى شقيقه "علي"، قد أزف وقت الرحيل، غادر جلسة الوداع، لا يريد أن يرى مشاهد عذاب أمه وذ هول أبوه "لظفي"، أسرع بالخروج والانتظار خارج البيت، ما أشبه هذا الفراق والوداع بفراق مَنْ يتوارى جسده بالمدفن! هُما سواء الآن، رحيل إلى مجهول لا يُرى له من عودة.

نظر إلى النافذة، أبواه في حالة من الهلع والخوف والرجاء، يتربعان زوال المشهد الأخير لشقيقه "علي"، الخطوات تسرع للحاق بترام محطة مصر، لم يلتفت إلى دموع الرحيل من شقيقه، نظره معلق بنافذة منزله، اطمأن لا أحد بالنافذة، لم يهتم كثيراً برحيل "علي"، هناك الاهتمام الأول والأخير بحبيبته "بيحة" في بيت الخالة "نرجس"، لم يستطع البوح بزواجه لشقيقه، ما الفائدة؟! هو راحل عن كل شيء، الأنفوشي وأهل الحارة والجيران، والتي منها حبيبته وزوجته، لم يقدر على تقديم قليل من النقود، فهي بالكاد تكفي حياته الجديدة، ابتسامته تفضحه من المبيت خارج البيت عند الخالة لرعايتها في وحدتها، كم سعدت أمه "شريفة" بهذا العمل، والده كان يشعره بأن هناك شيئاً يُخفيه!

التفت إلى شقيقه، ما زالت الدموع تملأ عينيه، قبض على يده، محطة القطارات تظهر لهم، لم يعطِ الفرصة لـ"علي" بصدده عن شراء ما يُعيد

ذكريات الماضي، هريسة العصافيري وجدته "أم صابر"، كان مطيعاً لرغبة "علي" بعدم الدخول معه والصعود إلى القطار، لم يتوقع أن الوداع بهذا الجفاء! الاثنان لا سبيل لهم من عناق، كلمة واحدة هي السلام ومتابعة خطواته خارج المحطة!

لم يشعر "ملوم" بمرور كل ذلك الوقت، عليه الآن الإسراع إلى سيدي بشر ولقاء حبيبته في بيت الخالة، لم ينسَ المرور بسوق عمر باشا وشراء ما يلزم حبيبته "بيحة" والخالة "نرجس"، وإعلان خبر رحيل شقيقه إلى أستراليا، التفت إلى مستشفى أحمد ماهر، كم سمع عن شهرتها في خدمة النساء في الولادة ومتابعة الحمل، عمل القابلات أصبح من أمور عدم التحضر، الطب والعلم هما الآن سيدا الموقف، لم يتمنّ تلك الأمور الشاقة عليه وعلى حبيبته، يريد أن يطيل فترة الحب بقدر ما يستطيع من مغازلة ومداعبة ولعب، سنوات الشقاء لا يريدها، كفى ما عانى من شقاء الحاجة وقصر ذات اليد وآلام نظرة الاحتياج، لن يرضخ لطقوس الخنوع للحياة ودرجاتها الزائفة، ما زال من الوقت مُتسع، "بيحة" ما زالت في توهج وعنفوان جمالها، لا يريد أن يطفئ شمس الدافئة، كم يتمتع بنداها للعب:

- "ملوم" قمري الذي لا ينقص ولا يغيب.

نعم لا يريد أن يتناقص أو يغيب من سماء الحب وزوال سحر جماله المُلهب على شواطئ الحب وأمواجه الهاججة، التفت إلى محلات سلطان الفسيخ، لم تعجبه رائحة النتن والأسماك المملحة، أعجبه ما يجب أن

يتعاطاه كمثّل باقي الرجال، الكافيّار بلونه الفاتح فاتح شهية الرجال، أصابع مُنتصبّة واقفة وقوف المُتأهب للغوص بالفراش، أسرع بالرحيل من أمام تأثير الحياة، حافظة نقود لا تكفي، يؤجل إلى حين.

عبر إلى الجهة الأخرى، رائحة الفلافل تجذب المارة بمطاعم البغدادي، الخالة "نرجس" توصيه دائماً بالعودة بها، سعد بكرم البائع، كمية عجّين تلك الوجبة أكثر مما دفع من نقود.

الآن كل ما يلزم أتى به، ينقص شيء واحد، لا يقدر على نسيانه، الجبن التركي، كم تحبها حبيبته! هي المُكمل لمتعة العشاء، لم يقدر على الذهاب إلى بجري، محلات عمار وقدري وعم زكي من أفضل محلات الجبن التركي، قريبه من بيت أمه، كم يخشى أن يأتيه قدره فيقابله أبوه "لطفی" ويرى ما يحمل من طعام، إلى أين يذهب؟! لا سبيل إلا العروج إلى محرم بك، هناك البضائع الفاخرة ومن ضمنها الجبن التركي.

لم يستطع التراجع، عمته "جميلة" وبناتها أمامه! لم يسلم من سخريتها من أمه "شريفة" حتى في الطريق وأمام المارة! اهتزت أطرافه أمام نظراتها لجسده وكلماتها اللاذعة، حاول أن ينفي زواجه وأنه ما زال أعذب، فرّ من أمامها وضحكاتهما تصم أذانه، لا يريد التفتيش الدقيق في معرفة ما يحمل من طعام! توقف أمام عربات الأجرة، لا يريد أن يصعد للعودة إلى الخالة "نرجس" وحبيبته قبل أن يفحص جسده، عمته كانت تنظر إلى بطنه، نعم برزت إلى الأمام، حزام بنطاله بالكاد يكفي لربط وسطه! ارتعش مع

خفقان قلبه! كم من المرات نظرت إليه أمه "شريفة"، هي نظرات عمته
"جميلة"، بطنه تفضحه، تكشف تمارين الفراش بين الحب واللعب، صعد
إلى السيارة وهو يعقد نيته بعدم تناول طعام العشاء!

القطار وأزيز العجلات ورحيل الأحبة، قطار كئيب يُذكره بما يكره، من ليالي السفر إلى معسكره، تساوى السفر هنا بمصر هناك بالقارة الجديدة، أستراليا! لا سبيل إلى التراجع، هو الفشل والضياع، نعم حرص بالحصول على إجازة من عمله الحكومي بالإسكندرية، لكن التراجع عن السفر، يُكلفه عدم عودته للعمل إلا بعد انقضاء إجازة العام التي طلبها، أمر العودة لعمله محفوف بالصعوبات، لا مفر من مواصلة خطوات الرحيل.

لم يهتم بنظرات الراكب أمامه، يفحصه من أخمص قدميه إلى شعر رأسه، لا يطمئن لتلك النظرات والمتابعة بلحيته البيضاء وجلبابه الأبيض، حاول أن يزيج هم كيفية الرجوع إلى عمله وإلغاء إجازة العام، أفكاره دائماً في قمة التهور! كم عاتبه "الملوم" على تلك الخطوة، هو يصبر ويستمر حتى وصل به الحال إلى هذا القطار وتلك الرحلة. لم تعجبه ابتسامة الرجل الشيخ! بوابة لفتح الحديث، كان ما توقع.. عرف الشيخ حكايته، لم يطمئن إلى هذا الصمت وعبوس الوجه، منذ لحظات كانت الابتسامة مفتاح الحديث، الآن الصمت هو نهاية اللقاء! لم يتوقع هذا الصمت وذلك العبوس.

انتبه إلى القطار ينهي آخر محطاته مقترّباً من محطة رمسيس، راجع الحقيبة بما تحمل من نسائم شاطئ الأنفوشي وذكرياته الآخذة طريقها إلى الزوال، لم يمتنع عن مساعدة الشيخ بالهبوط إلى الرصيف، حاول إفلات يده من قبضة الشيخ، لا فائدة من الفكك، قبضة الشيخ تصر مع نظراته في عدم إفلات يده والسير معه إلى خارج المحطة، لا يدري ما العمل في مثل

تلك المواقف؟! عليه أن يصبر مع خطوات الشيخ المقتربة من موقف عربات أحمد حلمي. أخيراً فك أسريده، هبّ عليه شغف الإسراع إلى العربات والعودة مرة أخرى إلى أحبابه بالإسكندرية، هناك كل الحب والطمأنينة والنوم الهادئ، هنا عليه الجلوس في إحدى المقاهي حتى بزوغ الفجر واللحاق بالطائرة. التفت، ما زال الشيخ يراقبه! بل ويسير خلفه! نعم لم تكن هناك كلمة وداع، كان الفكك يحمل الوداع والشكر، والخلاص من تلك اليد القوية، حاول أن يصل إلى نهاية لتلك المراقبة ومتابعه الخطوات، عليه هو الآن أن يفتح بوابة الحديث، لم يجد إجابة عن مكان للمبيت حتى الصباح، خرجت كلمات الشيخ مثل موجات شاطئ البحر:

- البيات عندي يا "علي"، بيتنا على الرحب والسعة لاستضافتك، لا تستغرب من معرفة اسمك، اسمك مكتوب على الحقيبة، لا تخف مني، كنت أراقبك منذ الالتقاء بك في القطار، أنت في صراع بداخلك، نظراتك توحى بشيء، اهتزاز رموش عينيك تفضحك، اهتزاز يدك تنذر بأشياء كثيرة.

لم ينبس "علي" بكلمة، صار معه في صمت، كان يشعر بسعادة لم يعهدها من قبل، هذا الوجه وتلك اللحية كم تقابل معها في أحلامه! الآن لا مانع من تكملة مشوار الأحلام، لن يخسر شيئاً من تلك المقابلة وذلك الرجل، صفات الإيمان والتقوى تشع في كلماته وعينيّه، لا شيء من القلق غير تلك القبضة القوية التي أسرته ثم أطلقتها مرة أخرى!

انتبه إلى أهل الشيخ، يستقبلونه بهالة من الوقار والأدب، لم يشعر معها بغربة المكان، لم يتوقع أن اللقاء بهذا السخاء والكرم والحفاوة، لم يتردد في الإفصاح عن مهمة الرحيل والهجرة إلى أستراليا، لم يخف شيئاً عن ذلك الشيخ، حكى حياته بتفاصيلها وما بها من مشاق، كان يريد من هذا الحكي أن يصل به إلى بر الأمان من الاستمرار في خطوات الرحيل، أم الرجوع إلى مستقره وحياته بالإسكندرية؟

هو الآن ينظر إليه يفحص ملامح وجه ذلك الشيخ التقى، ينتظر الإجابة الشافية لما يعاني من عذاب أخذ القرار، خاب أمله! الشيخ ينهض، يتركه بوضع كلمات:

- عليك أن تؤجل السفر ليوم آخر، لا تنع هم المبيت، أنت في ضيافتي، غداً نستكمل الحديث..

تابع خطوات مغادرة الشيخ، كان عليه هو الآخر أن يستريح من عناء السفر وعناء الوصول لبر الأمان في المغادرة أم الرجوع من حيث ما جاء؟

لم يتأثر جسده ببرودة الهواء، لم يلتفت إلى السماء، تُنذر بسقوط المطر، يألم فقط من تسلس المياه داخل حذائه، تردد كثيراً في شراء حذاء جديد، كم نوى الشراء، يتراجع في لحظاته الأخيرة! يجب صرف النقود في أشياء أخرى، انكشف الحذاء، يُعلن عن نهاية مدة صلاحيته والتي انتهت من أعوام فائتة، لا أحد من أبنائه يقف بجانبه، "علي" رحل، ليس في إقليم من أقاليم مصر، لكن إلى قارة أخرى، لم يصله أي شيء عنه حتى الآن، مضت شهور، كان يتوقع أن يصل حتى أقلها خبر وصوله إلى أستراليا. "لملوم" ولده لم يرحل، هو الآخر لا يظهر ولا يأتي إليهم إلا قليلاً! عذره رعاية الخالة "نرجس"، كم تحمل شقاء الأيام حتى أصبحوا رجالاً يُعتمد عليهم، هم رجال خيالات مآته، أكذوبة خدعته عبر سنين عمره! "شريفة" امرأته هي الأخرى لا تهتم به وبما يرتدي، شتان بين سنين حبه وشبابه وبين سنين زوال كل شيء! ملاحظات قص شعره وتأنق هندامه، راح وذهب مع ذهاب السنين والأيام! "شريفة" لا تهتم بأناقته وشعره، جسده لا يتحمل هواء الشاطئ، لا سبيل إلا لتلك الخطوات داخل الأزقة والأمكنة الضيقة.

السيالة ما زالت تحتفظ بمنازلها القديمة وشوارعها الضيقة، رائحة الماضي لم ترحل عنها، القوارب هي نفس القوارب، أهلها لم يتغيروا، لا يرى أثر السنين عليهم! لماذا يشيخ هو وتذهب صحته وعنفوان قوته؟! امرأته "شريفة" ما زالت متألقة، بجمالها الذي لا يشيخ، هي كذلك الدنيا حظوظ لا تعطي الجميع، تنتقي وتختار وتُهمَل مَنْ تُهمَل!

التفت إلى الحانوت القديم، كم كان يُمتع عينيه برائحة الشيخ بيرم، كم تخيله وهو يفتش بين الأوراق عن شيء يقرؤوه، بيرم كانت ثقافته من أوراق المبيع من السكر والشاي، الآن الحانوت يسكنه الإسكافي بالماكينه الكهربائية ومقاعده المجلدة، رائحة أدوات تلميع الأحذية تزكم الأنف، كما هو حاله مع أدوات صنعه من الكحول والجملكة والصبغات هي الأخرى تزكم العين والأنف في آن واحد.

في أوصاله تدب رائحة الكراهية لما يُحب، شاطئ الأنفوشي ورماله البيضاء، أصبحت أكذوبة من ضمن أكاذيب الماضي الخادعة بكل ما تحمل من جمال! الآن يسير بخطواته إلى أماكن التيه عسى أن تحدده وتُظهر إليه شاطئ يستريح عليه.

التفت إلى السماء تُمطر بدون رحمة، حذاؤه الممزق وأقدامه الماضية إلى الزوال، هكذا علامات الانقضاء قادمة قادمة، احتفى بمظلة الحانوت المغلق، لم يدرِ أبيتسم أم يكمل مسيرة أحزانه؟! علبة من الكرتون لم يصبها الماء، ترقد بجانبه، هي تبتسم له كي لا ينجل من حملها، تُنقذه من المياه المتسللة إلى أقدامه. التفت إلى المارة، لا أحد يسير بالشارع الضيق، إلا القليل ليختبئ مثله بسرعة في الخطوات للوصول إلى غايته. رحلت الابتسامة، لم يقدر على الانحناء والتقاطها. زميل يؤانسه في الاحتفاء من المطر، انتفش أنفه، رائحة الفلافل الساخنة تفوح من زمالة تحت المطر، الخبز الساخن ما زال مُحْتَظ بدخان بخاره، الأمور كلها مشجعة للالتهام

والتمتع بتلك الوجبة، اكتملت حفاوته بتلك الوجبة، المطر ما زال على أشده والوجبة جاهزة، فكيف الوصول إليها. التقط علبة الكرتون، قسمها نصفين، خلع حذاءه وضع ما يسد نفاذ المياه إليها، كان ما توقع، الصاحب المنتظر يمد إليه رغيف الخبز مع بعض حبات الفلفل، لم يقدم إلا قليل من كلمات الشكر لمن أعطاها إياه، كان يتمنى بعض قطع المخلل أو الفلفل الأخضر، لم يدر برحيل زميل المطر، رحل عنه، كما رحلت الأمطار، هو أيضاً عليه الرحيل، لكن إلى أين إلى أين؟

وقف في منتصف الشارع الضيق المظلم، خلع حذاءه، ألبسه في كفيه كسواري كسرى، النوافذ مغلقة لا يظهر منها إلا بصيص من النور الخافت، وعليه أن يأمر بالفتح وسماع ما كان يتلوه في الماضي، ما زالت عقيدة فكره تجبره إلى الخوض في ماضيه بما خدعه من جمال، كانت صرخته سرمدية تأمره بأعلى صوته:

اصح يا نائم وحد الدائم

اصح يا غفلان فوق من غفلتك

اصح يلي ضاع شبابك في عز بهجتك

اصح يا عجوز شاركني في محنتي

اصح يلي بجمالك بتسوقي حملتك

فرح بفتح النوافذ، لم يعجبه المرأة بجمالها وشالها الأبيض، أشار إلى الرجل خلفها، هو بغيته، نحيف علامات الشقاء واضحة جليلة عليه:

- أنت يا غفلان عن مصيرك انظر إلى العبد الغفلان مثلك،
غفلتي رحلت بعد فوات الأوان،
امراتك مثل امرأتي، تنخر في عظامك بالليل وتنخر في كيسة نقودك
بالنهار، كلهن سواء ساحرات جميلات مائلات مميلات، في كل شيء!
التفت إلى النوافذ، كلها تفتح، لم يشاهد المرأة، الرجل يقف وحيداً لم
تكتمل سعادته بفرارها، قوارير الزجاج تسقط على رأسه، مياه المراحيض
تسكب على جسده، لم يقدر على الصمود أكثر من ذلك، مُنقذه الوحيد
شاطئ البحر، لا نوافذ ولا أناس تصده عن الإفصاح عن لياليه السوداء!

تراخى وتردد في العودة إلى مستقره الجديد بالقاهرة، ضميره يؤنبه بل يعذبه ليل نهار. لم يعرف كيف وصل به الحال إلى تلك الزوجة وهذه العائلة وذلك الدار؟! هو الآن يحيا حياة كان يتمناها، بعد نجاح عودته للعمل بعد قطع إجازة العام.

التفت إلى شاطئ النيل كم هو جميل، يُذكره بشاطئ الأنفوشي، لم يقدر على العودة إلى الإسكندرية بعد ما قدم له من خدمات من شيخ القاهرة، كانت آخرها تقديم ابنته له كعروس تُسعد أيامه ولياليه عوضاً عن أبيه "الطفي" وأمه "شريفة"، وما هو النيل يُقدم له خدماته بأمواجه الهادئة يخطو إليه بعد خروجه من عمله الجديد، جهد كبير من الشيخ في نقله من الإسكندرية. الآن يخلو بنفسه ليعرف ما هي الخطوة القادمة، خطوة تلح عليه للعودة إلى الإسكندرية وإعلان نبأ عدم السفر والزواج والاستقرار بالقاهرة، مضت الشهور ورحلت دون أن يدري كم عددها، لذة الزواج وفرحة العمل أفقدته أحاسيس الحنو على الأهل، أحاسيسه تُغرقه في الحِداغ، لا فرق بين أستراليا والقاهرة في البعاد عَمَن يُحب، تساوى الاثنان مع استقراره الجديد. التفت إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون، كم كان يشاقق للتنزه والتأمل، صرح لا يُشاهده إلا في برامج التلفاز وصور الجرائد، جلس أمامه، لم يغفل عن النظر لمياه النيل من وقتٍ لآخر، التفت إلى من ينادي:

- علي يا عم علي

أطرافه ترتعش، غير قادر على الوقوف ومواجهة النداء، "أبو فؤاده" بشحمه ولحمه وقبعته المميزة بريشة القراصنة! يعتلي عربة الحنطور المزينة بأكاليل الورد، كان هناك بالإسكندرية المُستقبل لرواده من السائحين الأجانب، في ساحة المرسى أبو العباس وقلعة قايتباي وحديقة الزعيم سعد زغلول، الآن بالقاهرة وعلى شاطئ النيل.. سعد باهتمام "أبو فؤاده" بما جرى له من أحداث، لم يتغير مزاجه العفوي، هناك يتناغم معه في أحاديث اللغة الانجليزية، هنا يتفاعل مع أحداث الزواج وذلك الشيخ وتلك العروس! حزن بخبر موت ولده الوحيد بعد أن أصابه الجنان، كم كان يزعج الجيران بتصفيقه المستمر وصياحه ليل نهار!

انتبه إلى ملاحظات "أبو فؤاده" في عدم مبالاة الشيخ والد العروس وإهماله صلة الرحم بوالديه، من الأولى بأقل القليل إخبارهما بالزواج وإحضارهما لإتمام مباركات الزواج السعيد، لم يقدر على المواجهة فيما أفصح به من ناقصات، وأهمها ذلك الشيخ وتلك اللحية وهذا الالتزام أمام هذا الجفاء لأهله بالإسكندرية!

تابع "أبو فائدة" وهو يهرول لصيد زبائنه من السائحين، كانت فرصته ليهول هو الآخر بفكره، "أبو فؤاده" أفصح وكشف له سوء والد زوجته! نعم شيخ ملتزم، لماذا تغاضى عن دعوة والديه "الطفي" و"شريفة" ومباركة ذلك العرس؟! حاول أن يجد تفسيراً لما جرى من أحداث، لم يفلح، حاول اللحاق "بأبي فؤاد" عسى ألا يخبر "الطفي" و"شريفة" بنبا زواجه، لم يقدر أن يطمئن

لنصيحته بعدم الإفشاء، هو نافذة إعلامية لكل ما يمتلك من أخبار! هذا
حاله دائماً يفضح القريب والبعيد، كم فضح رجال حارته ومغامراتهم
النسائية في عربته الحنطور، كم أفسد من ذات بين العائلات نتاج ثرثته
بين أهالي الأنفوشي! عليه اللحاق به قبل فوات الأوان وفضح أخباره!

شمس النهار تنحني طواعية لهبوط الليل، شوارع الإسكندرية تفرع من قلة روادها وخلوها من المارة، سيارات الأمن تجوب الطرقات وتقتحم الأمكنة؛ عسى أن تجد مَنْ تبحث عنهم في الليل والنهار! الزعيم المؤمن صاحب الغليون وعصا فرعون يغضب على مَنْ أعطاهم كل الحرية في أن يصلولوا ويجولوا للإطاحة بتيار اليسار، الجماعات الإسلامية تنسى يد الفضل في حرقتها وانتشارها بالمساجد والزوايا، طالت ألسنتها وتعدت الخطوط الحمراء والصفراء والزرقاء، مست أجنحة الهيمنة الكبرى في شخص الزعيم المؤمن، القائد الأعلى للقوات المسلحة.

لم يقطع خطواته أو يتوقف لأخذ بعض الراحة، التفت إلى شارع فؤاد، خال تمامًا من المارة، مثله مثل شارع مُجمع الكليات، هما سواء في سكون الموقى وثبات الأحجار.

بالأمس القريب كان في صراع بين شبابه وما وصل به الحال من الشيخوخة وقلة الحيلة وذهاب المال والأحبة، هناك في حي السيالة المواجهة بينه وبين أناس على شاكلته، تواضع في الرد بقوارير الزجاج ومياه المراحيض. الآن الجميع في مواجهة للغازات وأساليب قمع لم يتعود عليها، حديثه متطورة، موضة متطورة مع تتطور الأحداث!

عرج إلى شارع النبي دانيال، هو أيضًا خالٍ إلا من بعض المارة، هم مثله لم يهتزوا من مسيرة الأحداث، كبار السن من أمثاله والعجزة...

لا خوف من السير، ولا سبيل لهم من الاعتقال، عالة هو وهم سواء، لا خوف إلا على الأبناء، أين أبنائهم "لملوم" و"علي"، الخوف كل الخوف على ولده "لملوم" من تلك الأحداث والصدام مع سلطة الزعيم المؤمن. "علي" لا خوف عليه، هو بعيد المنال عن تلك الأحداث، رحيله إلى أستراليا، المنفذ الآمن له من تقلبات الأحوال بمصر المحروسة.

التفت إلى محطة مصر، إنارة خافتة، حتى وجوه المارة شاحبة، لم يهتم بمن يتسم له، بل ويتجه إليه، ترافقه امرأة في عز توهجها وشبابها، مثل يوم عرسها.

لم يستطع "لطفی" الصمود أكثر من ذلك، خارت قواه، أقدامه لا تقدر على حمله، التقطه ولده "علي" قبل أن يسقط على الأرض!

لم يلتفت إلى شاطئ الأنفوشي، لم يرحل إلى حبه السرمدى بزقاق بندقة ودرجات سلم فينوس الخرساء، لن ولم أتمكن لا يجد بها ما يذهب عنه زل المصائب وتواتر الأحزان، فرحته بحبه الذي طال انتظاره حتى أتى إليه بما كان يحلم بالسعادة والهناء، تدفئ له فراشه، تُنعشه بالحب الذي لا يشبع منه ولا يمل، "بيحة" الحبيبة الواعدة بالحب كيفما شاء وأي وقت شاء.

لم يستطع كتمان ما جاء من أحوال، أصبحت المشكلة في اتساع! الحالة "نرجس" في طريقها إلى الرحيل، مشاهد الزوال من الحياة تظهر بأحوالها وأفعالها، كم تُعاني حبيبته "بيحة" من تلك المشاهد ليل نهار! قلق وحيرة من القادم، القادم أسوأ، الرحيل من شقتها، أصحاب العقار في ترقب بالليل والنهار ينتظرون ساعة موتها والانقضاض على الشقة وطردها! لم يفكر يوماً في تلك العواقب والنتائج.

المشهد يقترب من الطرد والخروج إلى الشارع، أمه "شريعة" لن ترضى عن فعلته في الزواج، فكيف ترضى عن كذبه في السكن في بيت الحالة؟! لا سبيل إلى الصفح أو الرضا عما فعل، "الملوم" حبيبها يخدعها، يغشها، فرحتها بزواجه ذهبت أدراج الرياح! والده "لطفى" لا حيلة له في أي شيء من الحل، تارك نفسه لظروف القدر تلعب به كيفما شاء، لم يستطع الإفصاح عن زواجه من "بيحة" إليه، تكفي والده الأخبار الفاجعة بوصول شقيقه "علي" إليه بالأنفوشي، بل زاد الخبر بمرافقته عروس من القاهرة، تفر معه، من بطش الأمن لهم بالقاهرة وملاحقة صاحب اللحية والجلباب الأبيض أبوها

الهارب من الإمساك به، نشاطه الديني يدينه أمام القائد المؤمن السادات! وكان الحل الوحيد هو الرحيل إلى الأنفوشي.

لم يستطع مواجهة اقتراح "لطي" للذهاب بشقيقه "علي" وزوجته إلى بيت الخالة "نرجس"، المكان مشغول فهو مسكنه وملاذه مع عودة حبه الخفي عن الجميع، لم يلتفت إلى من تحبه ليل نهار، "بيحة" بجانبه تسكن في قلبه تسند رأسها على صدره المعذب بخطوات قادمة قادمة، لا سبيل من الفرار منها، رحيل الخالة إلى المقابر، والطرده إلى الشارع والخلاء، أو كشف سره بهبوط عروس شقيقه "علي" إلى بيت الخالة، الخوف من القادم، يتمنى ألا تشعر به حبيبته كما يشعر، يتمنى أن تغفل عن تلك المشاهد، أتى بها إلى حديقة الزهرة من أجل ذلك، كم حكي لها عن شجرة طرازان، هما الآن تحت ظلها، في أحضان جذوعها المتشابكة، لم ترصّ بالدخول إلى حديقة الحيوان، أذعن لتعبيرها الصعب والحزين في آن:

- ألا يكفيك تلك الحيوانات التي تتعامل معها؟ الطبيعة والخضرة والهواء الطلق هل يوجد أحسن منها؟ العصافير تغرد ولا نعرف بماذا تبوح، أهو الخصام أو الحب أو الشقاق أو كيفما تكون؟ نحن سعداء بتغريدها ولا نفهمه، يكفي ما بنا من أحوال.

أشارت إليه، بائع غزل البنات يمر، كم أتى به إليها، تلتهمه في شغف، يبقى على ثغرها الكثير من الحلوى الحمراء، أسرع بالشراء عسى أن تنهي تناولها، ابتسمت، تعرف الخطوة القادمة، تنظيف ثغرها بشفتيه! لم يتأن في النظر

حوله، التهم بقايا الحلوى مع التلذذ بثغرها الوردي، لم تقوَ بصد تمددها على النجيلة الخضراء، كان عليه صد أشعة الشمس عن جسدها الأبيض الغض بجسده المتلهف لدقات الحب ورنات الأنين. مالت الأشجار وتشابكت الزهور وذهبت الشمس في حياء مع سكون الهواء وإنصات العصافير لتغريد الحبيبان:

- "ملوم" قمري الذي لا ينقص ولا يغيب.

لم يستطع إجابتها! العصا الغليظة تسقط عليهما! لا تفرق بينه وبين حبيبته "بيحة"، حاول بكل الوسائل: هذه زوجتي، نحن نتنزه، هذا يوم فسحتنا..

لم ترضخ اليد القوية لتلك الحجب، أمسك بيد حبيبته لتصعد معه في سيارة الشرطة.

دارت الأيام، واختلط الحاضر بالماضي، رائحة أريكة أمه تعود إليه من جديد، رحلت الأم ورحل مسكنها وفرشتها الرطبة العفنة، تعود إليه في عرينه ومقر بيته وبين أولاده، "ملوم" و"علي" وحبيبته "شريفة"، إزاحة جبرية بالشرقة ومن النوم الانفرادي، لم يشعر بالحزن أو النوم هكذا، بينه وبين شاطئ الأنفوشي جدار من الحجارة، برودة هبوط الليل لا يشعر به إلا قرب بزوغ الفجر، صوت أمواج البحر، تعد له الدقائق والساعات، وضع الأريكة في نهاية الشرفة مثل آخرها تتساوى في عذاب نوم كل يوم، لم يهتز لما أصابه من تلك العزلة، الحجرات من الداخل امتلأت بأحبة، أولاده "ملوم" مع "بيحة" و"علي" مع عروس القاهرة...

لم يدهش من انكشاف أمر أولاده بالزواج، صديق عمره جامد الملامح بطيء الكلمات ذو العين الواحدة يُنقذ "ملوم" من برائن التحريات، هكذا حظ "ملوم"، مسعد بالتلاقي مع صاحبه المهم، الأولى في مقتل فتوة بحري "السيد النجرو"، وتلك الثانية يُنقذه هو وحبيبته "بيحة" من بطش المباحث والعبث بجسدها. لم يستطع حماية عروس ولده "علي" من بطش "شريفة"، تُسخرها في عمل كل شيء من جميع زوايا الحجرات، لا تقترب من "بيحة" في أي شيء، حاول تفسير تلك المعاملة، لم يركن إلى احتمال عن الآخر، "بيحة" تعرف الكثير عنها، الثانية لا تعرف غير "شريفة" العفيفة الطاهرة، كما أن "بيحة" حبيبة حبها الأبدي "ملوم"، هكذا لم يقدر على حسم الموقف أمام ما تُقدم "بيحة" من فروض الطاعة إليها ومدى المودة التي تُظهرها لها،

لا يرى غير تنافس العرائس في إرضاء الكبيرة "شريفة"، كم حظيت امرأته ببهاء الدنيا، ليست مثله، تنتقل بين الحجرات في ثقةٍ ودلال، أما هو عليه الآن إحضار ما يجلب الرائحة الكريهة، تلازمه في ساعات الليل، الدلو الفارغ استعداداً للامتلاء خلال فترات الليل، لا يقدر أن يتعدى ولو بخطوات داخل الحجرات، حظر تجوال، ومشاهدة تقلبات الحب بين أولاده على الأسرة، "شريفة" هي سيدة الموقف، لم تهتم بزواج "علي" وانكشف أمره، عاجلاً أو آجلاً سيرحل مرة أخرى إلى القاهرة، عروسه لا تقدر على فراق الأحبة من أسرتها وأبوها الشيخ الكبير، كم تمنى أن تقترب ساعات رحيل "علي" وزوجته، الشتاء قادم بما يحمل من شقاء المبيت في العراء بالشرقة، ما زال الوقت مُتاح للتنزه على شاطئ الأنفوشي، لا يستطيع المغادرة، فهي تكلفه الكثير من صرف النقود، طلبات الزوجات التي لا تنتهي، المعتادة في كل الليالي، البوظة المثلجة من محلات مكرم، أبناءه ما زالوا يطمعون في كرمه وسخائه بالليل والنهار! هو وحده المُحمل بهوم الصرف والمُجيب والمُطيع لما يحتاجه البيت. كانت "شريفة" وحدها، الآن أصبحوا خمسة! لم يستطع تذكر ابنته "ثرثيا"، هو في راحة لعدم دق باب الشقة والزيارة، زوجها ما زال في سبات النوم عما تفعل في غيابه من تأوهات الحب مع الخادم المطيع، لم يستطع الإفصاح لامرأته عن ابنتها "ثرثيا" وأعمالها الفاضحة، هُن سواء في أرض الشهوة ولذتها المحرمة، كم تمنى الإفصاح، لا يقدر ولا

يستطيع التفوه بكلمة، جبان أمام مَنْ أحب وعشق، "شريفة"، آه من هذه الدنيا القذرة في كل شيء!

نظر من خلال باب الشرفة المغلقة، عرائس أولاده يجهنز لمتعة كل ليل، لم يعجبه جسد زوجة ولده "علي"، جسد ممتلئ باللحم والشحم والأرداف، كتلة متحركة تفقد الأنوثة بأكملها! برزت أمامه "بيحة"، يا له من جسد أنيق في كل شيء، من الصدر والأرداف والسيقان! كم هي جميلة مكتملة الأنوثة بشعرها الأصفر الناعم، هي نعم من بنات بحري، بنت الأنفوشي المتوهجة بجسدها الأبيض الغض.

التفت إلى السماء، نجوم الليل هي وحدها تُشاهده وتنظر إليه، لم يستطيع صد ارتعاش جسده، ما الأمر إن كان أمامه شرفات ونوافذ، تفضحه في نومته الليلية؟! كيف سيكون الأمر، هل ترضى امرأته وأبناءؤه بهذه المأساة والفضيحة؟ نعم، أبناءؤه لا يهتموا بذلك الحال، امرأته هي وحدها لن ترضى بتلك المعرة، ليس حباً له أبداً، هي دائماً في مسيرة الحسب والنسب ورفع الرأس، شفرتها يحملها هو وحده، الجميع يفشل في فك تلك الشفرة ومعرفة ماذا يدور برأسها، وهي كذلك تفضحه، تحترق أم عينيه، تهزم مفاتيح رأسه أمام نظراتها، يا لها من بومة خبيثة ماكرة ساحرة غضة لينة مرمرية الصدر وما حوى من متعة، كم يشتااق إليها وإلى حبها الدافئ الخبير لكل تقلبات الفراش من البداية والاستمرار حتى النهاية، ارتعشت أوصاله، اهتزت

سيقانه، حُضن وسادته، أغلق عيناه ليرحل مع نسَمات الحب وإن كان في
الحلم.

أصابها الملل من كل شيء، لم تهتم بفعلتها وفرارها وفقد أعز ما تملك، فلذة كبدها أبنائها، لا سبيل إلى الصبر أكثر من ذلك، ألا تكفي تلك السنين من عذاب أهم وأحلى ما تعشقه الحب، جريمة الزنا والحب الحرام، كم عانت من الخوف من انكشاف أمره، تفعله على عجالة، لذة متقطعة، كثير من الحواس تضيق في ترقب خطوات القادم، القادم زوجها، لم ترتو يوماً من الأيام بجمال المضاجعة! هو لا يعرف أن يحرق أرضها الخصب، يضع بذرته على السطح، لا يسقي إلا القليل من أرض الحب، أرض تتلف لمن يحرق جيداً، الحب لا يعرف العنصرية، هو يحب من يُتقنه، خادم زوجها محرائه ارتوت منه كثيراً، لا تشبع، بل تريد المزيد من نعماته التي تتمنى أن تُسمعها كل من حولها من الجيران، تكتمها خوفاً من الفضيحة وكشف فعلتها التي تعشقها.

كان قرارها الفرار والذهاب إلى بغيتها من الالتقاء بالحبيب، لم تصبر على جمع أشياءها الخاصة، أرادت أن تعرف زوجها بشيء واحد، هو الخلاص من فراشه وأعطيته الزائفة، قناعتها بقرار الخلاص، أهم وأحلى من مصاعها وكل ما تتمناه امرأة من متاع الدنيا، لم تأخذ إلا القليل من أزيائها المفضلة للحبيب العاشق، كيسة نقودها القليلة تكفيها لعدة أيام. التفتت إلى أحياء كرموز ومنازلها القديمة وأكوام القمامة على جانبي الطرق كما وصفها لها الذي في طريقها إليه.

اقتربت من نهاية الشارع ونهاية المنازل الخراسانية، هي في طريقها إلى
عش الصفيح والأخشاب، المنطقة الخطرة كما وصفها لها العاشق جبل
ناعسة، لم تستطع صد فرحتها، حبيبها العاشق يخرج من إحدى العيش،
لم يكن وحده!

حاولت الرجوع والعودة من حيث أتت، العاشق تحتضنه امرأته وأولاده
الصغار!

لم تفلت من يده القوية، زاد الأمر سوءًا، امرأته تساعده في جرها إلى داخل
العشة، التقط الصبية حذاءها، كما لم تسلم من يد امرأته تخلع عنها ثوبها!
لم تحزن بالتقاط الحبيب لقرطها، لم تُمانع بخطوات مُضاجعتها، حتى وإن
كان أمام امرأته وأولادها!

الآن تشيع وترتوي وتشهق مع صفير صوتها، تتمنى أن يصل إلى جميع
الجيران!

كان بالأمس القريب يعترض على رحيل شقيقه "علي" إلى أستراليا، هو الآن يعبر وبرغبته إلى تلك المحاولة، السفر إلى الأردن، عسى أن يصل إلى بعض الرفاهية والحياة الرغدة وبريق الذهب في يد حبيبته "بيحة"، نجح في اللعب بأحلامها البعيدة، تمد يدها لتلتقط الحلي الذهبية، تتحسس قرطي الحلق، يتدلى من أذنيها، تغمض عيناها، لا تريد أن تستيقظ إلا بوصول حبيبها "الملوم" بما يحمل من هدايا ونقود، "شريفة" و"لطفي" باركا تلك المحاولة، انقلب الحال من شقيقه "علي" يريد أن يثنيه من تلك المحاولة، لم يفلح في صده عن السفر، كم لمح له بامتياز في عمله بالقطاع العام وشركته وموقعه بذلك المركز الحساس بها وتميزه عن الآخرين من الزملاء. لم يستمع لنصيحته، كما لم يستمع "علي" إليه في صده عن السفر في الأيام الماضية.

لم يلتفت إلى ركاب الباخرة ومشاهدتهم مياه بحر الأنفوشي، هو الآن أمام الأنفوشي بمنازلها، لم يفلح أن يميز، هل الحبيبة تنظر إليه من الشرفة؟ نعم المنازل صغيرة، لا تُرى إلا كمثل لعب الصغار!

انتبه إلى المسافرين، أكثرهم يتقيأ من دوار البحر، يترنحون للجلوس ولو على أرض الباخرة، هو ينتشي إعجاباً بنفسه، لا تقيؤ ولا دوران ولا خوف من تلك الأمواج العالية علو الجبال.

تمخر الباخرة في ثبات وفي دلال مع لطم الأمواج لأسوارها العالية، مثل حاله في تلك المحاولة من السفر يعرف جيداً كيف ينقل خطواته في الحياة،

يسعد ويطمئن للزميل الذي مهد له السفر والعمل بالأردن، أخبره أن عمله ينتظره لا خوف من أي شيء، أي شيء من الخوف صد أيضاً من أبيه "لطي" أصحابه في الأردن زملاء مهنته، يرجع إليهم إذا كان في احتياج للمساعدة.

هبط الظلام، النجوم تضيء السماء، بحث عن طيور النورس كانت تُرافقهم من بدأ الرحلة، أين هم الآن؟ كيف اختفوا بتلك السرعة؟! كانوا مع غروب الشمس فوق الباخرة، يدورون ويمرحون بين السماء والماء! انتبه، وجد ضالته، طيور النورس فوق سوارى الباخرة، حالة استرخاء وراحة من مشقة الطيران وإتباع الباخرة، هو أيضاً عليه الآن الاسترخاء مثل أصحابه المسافرين الذين يفترشون المقاعد والطرقات.

لم ينعم بالراحة، عين تراقبه! تقترب منه! عرف مساعد القبطان حكايته وسعيه إلى تحسين حالته بالسفر إلى الخارج، كان يشعر بالزهو، تنقله بين المسافرين بدون خوف ولا دوار ولا تقيؤ لفت نظر هذا الصاحب المهم بالباخرة! كان يتمنى أن تشاهد حبيبته كل شيء متاحاً ومتوفراً من مشروبات وجميع العصائر الفاخرة تقدم إليه، لم يخف عن مساعد القبطان شيئاً من حياته عن تلك الرائعة أمام الحفاوة والطيبة والبذخ.

لم يتطرق إلى الأحوال السياسية في مصر، مما زاد الاطمئنان عند القبطان الصغير، شيء واحد شعر به: الإعجاب بشخصه، حركته على سطح السفينة وبين الركاب.. كان الإعجاب في ازدياد، غرامياته تُبهر صاحبه، حالة حب

فينوس الخرساء وموتها والتواصل معها كيفما شاء، انتبه لعلامات الحزن على وجه صاحبه وفراق "ليلي" الخرساء لحياته السرمدية! لم يستطع صد ارتعاشه وخفقان قلبه، فينوس حبه تأتي إليه على مهل، تقترب منه، تبتسم له، ما زالت بردائها الشفاف، جسدها يضيء المكان، يشع على وجهه. لم يلتفت إلى صاحبه، تلاشى كل شيء من حوله، لا يرى إلا إياها، أسرع في إجابته لها، تبعها بالخارج، لم تتوقف بل زادت من هز أردافها، جسدها كله يرقص، خصلات شعرها تمرح مع الهواء، عطرها ينعش أنفاسه، لم يتوقف في اتباعها، لا نجوم ولا سماء ولا أمواج، كل شيء اختفى، خطواتها ودلاها وجسدها يجذبه بكل قوة نحو سياج حافة الباخرة، التفت إلى صوتها الحاني يأمره:

- الآن...

لم يتأخر في إجابتها، لا يستطيع الإفلات من بسمتها وسحر جسدها المضيء في كنف الظلام:

- الآن.

لم تحش من المكان، المكان يذكرها بالحبيب الغائب، كم احتضن يدها بين كفيه، ما أحلى حب الصبا، حب يعشقه القلب ولا يعرفه الجسد، هو الآن مُتعطش لآهات الحب، "ملوم" كم جلسوا سوياً على درجات المرسى أبو العباس، جلسة تحمل القناعة بجوار الحبيب تُنصت إليه، يُحدثها عن قلعة قايتباي، ومنارة الإسكندرية القديمة الغائبة كغياب الحبيب، لم تهتم بقواد السنوات الماضية، تثق في خطواتها، لم الشمل والزواج.

تصبر على فوات الأيام والشهور ثم يرجع قمرها الغائب، نجحت في الإفلات من رقابة البيت ورحيل شقيق "ملوم" مع عروسه إلى القاهرة، هي في مأمن من اكتشاف أمر الخروج، "شريفة" و"لطفی" رحلا إلى عزاء "أم حلويات" بوفاة زوجها بسيدي بشر، بالأمس القريب كانت مع "شريفة" في زيارة إلى راغب وأسرّة الراقصة "عنايات"، تحسست جسدها ومدى إعجاب الراقصة به، لم تهتم "شريفة" بذلك الإعجاب مما زاد من خطوات "عنايات" والاقتراب من جسدها، مما أثار من شهوتها وهياجها الجامح، لا فرق بين يدها وبين حبيبها "ملوم"!

عليها الآن إكمال مهمة جلستها وسر وحدتها في ساحة المرسى أبو العباس، أخرجت قصاصة الورق، لم تلاحظ "شريفة" يد "عنايات" وتلك القصاصة، عنوان واضح وضوح الشمس في عز النهار، مكتب ريج يسير الفنانين، محطة الرمل أعلى مطاعم جاد.

لم تصبر في مراجعة زينتها، تثق في جمالها وجسدها الأبيض وشعرها الأصفر، تمتلك كل شهادات التأهل لبوابة الفن كما أخبرتها الراقصة، لم تصبر على ركوب المصعد، عليها أن تقفز بين درجات السلم لتصل إلى بغيتها، الوقت يمر وقد اقترب عودة أصحاب العزاء، لم تسلم من ارتعاش أقدامها مع خفقان القلب، هي في مواجهة أمام باب الفن والشهرة والمجد، لم تفكر في عواقب تلك الخطوات إلا الآن، هل ترجع إلى الخلف وتفر؟

خابت فرصتها بالفرار، وقعت في شباك نظرات ري جسير الفن، ما عليها غير الدخول في ثبات وثقة كما علمها حبيبها الغائب، لم تهتم بالمقابلة، كانت تهتم بتلك النظرات المتلهفة لخطوات الرغبة، جائع يشتهي ولا يشبع! لم تسلم من نظرات صاحبه هو أيضاً، يتعقب مفاتها من إصبع قدميها إلى شعرها!

لم تسعد باللقاء، تريد الرحيل، كلمات وذكريات الأفلام تسردها إليهم بنباهة المتلهف المحب لخطواته، أرادت أن تُعرفهم عليها أنها من بحري والأنفوشي في جلستها وكلماتها ورفع حاجب وإنزال الآخر، كانت تريد أن تُحافظ على شيء واحد تُحبهه وتصونه.. جسدها، أمانة عقد الحب مع حبيبها "الملوم"، هو يملكه ويُمتعه كيفما شاء.

لم تقدر من صد جماح ارتعاشها، الزوج بالخارج، مقاعدهم تهتز من فرحة الخبر، يلتهمان أنفاس التبغ كما يتجرعان الماء في نهم وعطش!

كانت تشعر بالأمان، أبواب المكتب مفتوحة للداخل والخارج، أطياف الشباب مثلها في حب الفن وشاشته الكبيرة والصغيرة، أمام أكف تقبض وتعد وتسلم بطاقات التسجيل، سعدت بالحوار وإعلان عن تصوير بشواطئ الإسكندرية في الأيام القادمة، لم ترغب في معرفة أسماء النجوم، تصبر على سماع الحوار والتقاط أسماء النجوم القادمين.

انتبهت إلى صاحب الجالس، مساعد مخرج عمل الغد القريب، لم تعرف ما هي خطواته القادمة؟ تهم بالانصراف أم ماذا تفعل؟ وكيف تخرج من جلسة الفن ونظرات الرجلان إليها؟ عليها الصبر، لم تدرِ بفعلتها المجنونة إلا في هذه اللحظة! ما السبيل بإنهاء تلك المقابلة التي لم تأتِ إليها بجديد؟ انتبهت إلى إشارة صاحب، عليها اتباعه، تهبط معه على درجات السلم، امتنعت من الهبوط بالمصعد مما أثار غيظ المرافق! أخيراً هي في ساحة الشارع بين الناس والمحلات والسائرين، فعل كما فعلت الراقصة "عنايات"، دس في يدها بطاقة أعماله مع بعض النقود الورقية، ابتسمت له وأسرعت بالرحيل؛ عسى اللحاق بالبيت قبل قدوم "شريفة" و"لطفى".

الأردن أو جاردن كما يسميها أهلها، جبالها وتلالها ومنحدراتها وحقولها المتواضعة بالثمار، يجلس بينها كعادته وحيداً في الظلام بين العشب والأحجار، يبتعد بقدر ما يستطيع من أصحابه، لا فرق بين السوري والفلسطيني والأردني والمصري والسوداني، هو يراهم سواء في كل شيء، لا يجمعه بهم غير العمل في الصباح بعنابر النجارة والألومنيوم وتصنيع الأثاث، كم خدعه صاحبه بالأحلام الوردية في العمل بهذه الشركة، لا فرق بينها وبين ما تجرعه بمصر وعمل شركته، فرق واحد: هو جودة العمل وإتقانه، راتب قليل لا يدخر منه إلا القليل!

كم حزن بالمفاجأة وقت الوصول، الشركة ليست في حاجة إلى أيدي عاملة الآن! لم يفرغ، كان عليه الذهاب إلى الأبواب الأخرى، توصية والده "لطفي" الذهاب إلى زملاء صنعته بعمان العاصمة، تُزاح كل الهموم وتُفتح أبواب الأمل في استقبال الأسطوات أصحاب مهنة النجارة له، ترحيب وحفاوة واهتمام، وإيجاد العمل البديل حتى تسنح الفرصة للعمل بغايته ومُرادِه بشركة صاحبه، زاد الاهتمام، المعلم الكبير صاحب الورش يبرع في عمل الإقامة وتصريح العمل تبعاً لورشته، كانت ميزة لم يعرف مقدارها وقيمتها إلا في تلك اللحظات، جميع زملائه تُسحب منهم جوازات سفرهم، هم رهن للشركة لا يقدرّون على التحرك أو المغادرة إلا بإذنهم، إلا هو، جواز سفره في جيبه، تصريح العمل حُرّ يذهب ويرجع كيفما شاء.

التفت إلى عنابر زملائه المصريين، هم يسعدون بانتهاء العمل للراحة والسمر القليل ثم النوم ليوم عمل جديد، أناقته ومظهره الراقى سعد به من الورش والأحمال إلى درجة أعلى في العمل واختياره من بين عشرات العاملين والعمال، إشارة من المعلم الكبير صاحب الشركة، يُنقل بالعمل بإدارة مقصف الشركة، ميزته بوجبتين في اليوم والليلة إفطار وغداء، منحة ربانية تزيد من ادخاره الشهري من الدينارات الأردنية، وتتوالى المنح، سهرات المعلمين مع صاحب الشركة في نهاية أسبوع العمل، الخميس اجتماع فيه كل ما لذ وطاب من أطعمة وخمور، كم كان يسعد بتلك الليالي، يترنج الجميع من السكر. أما هو يترنج من السعادة، بقية الطعام تُلم ويصعد بها إلى أحبابه وأصحابه بعنابر النوم، ينادي بكل قوته:

- يا مصريين يا غلبة اسمعوا وعوا، كلوا واشبعوا... اشبعوا.

ينظر إليهم، يُشاهد هؤلاء الجوعى يلتهمون ويفترسون بواقي اللحم والكبد والفاكهة، هو في قناعة بما تناول مع المعلمين السكارى في ليالي الخميس. انكشف له الغطاء عن تلك الحالة التي وصل إليها العمل في الخارج، لم يوافق على اقتراح مساعد قبطان الباخرة بالمساعدة بالعمل في العراق، يكفي ما قدم من إنقاذه على سطح الباخرة وهو في طريق الانتحار إرضاءً لمحبوبته الغائبة "ليلي" الخرساء، سحرته بحبها السرمدي العائد إليه بعد طول الغياب.

الآن يفكر في الرحيل والعودة إلى حبيبته الإسكندرية، ما حصل بالأمس كان الخاتمة للعمل بالأردن، لم يكن يدري بمدى احتقار أصحاب الشركة للعمالة المصرية، السوري والسوداني هما في القمة في المعاملة، وليس الحضيض مثله ومثل أصحابه! كم قدم من نصائح لهم عن الحقوق الضائعة من امتيازات العمل والعلاج والإجازات، كانت الصدمات تتوالى على أصحاب الشركة من المصريين ذاتهم! لا أحد من أصحابه كشف سره أو أفشى لأحد الزملاء الأشقاء من البلدان الأخرى، لكن لا حيلة له، هو وحده من قرار المغادرة بغير رجعة.

لم يتوقع من الفلسطينيين رؤساء العمل أن تصل نظرهم إلى تلك السفالة وعدم رد جميل مصر إليهم، هي قدمت وما زالت تقدم من رعاية في مختلف المجالات والمحافل الدولية، أبعد كل تلك العطايا من السخاء يصل بهم الحال أن يتجاهلوا أهل الفضل من مصر؟! رأى بأم عينيه وشعر ولامس هؤلاء الأفاقين!

لم يكن يتوقع أن تأتيه تلك الإجابة الجافة غير الموفقة، كانت فرصته في فرض خبراته أمام السادة موظفين الإدارة من عمل الإحصاءات وطبعها على الآلة الكتابة بكل مهارة، تدافعوا حوله وإعجابهم بهذا القهوجي، عامل المقصف في براعته الإدارية، حاول بكل الطرق أن يقبله المعلم مدير الإدارة في إحدى الوظائف التي شغرت بالأمس القريب، يأتيه الرد الجاف الذي لا يرحم!

- نأسف، المصريين ليس لهم مكان على مكاتب الإدارة.
وكان قراره بالعودة إلى مصر في سبيل تجديد إجازته! عجب باعتراض معلم
ورش الألومنيوم الأردني وكشف نيته:
- لن تعود، يكفيك ما أصابك من إهانة.
مهندس بارع في الإحساس بمن حوله، خشي بتأكيد ما قال، كانت
ابتسامته الرد الكافي لهذا الإنسان النبيل.
اقترب منتصف الليل، عليه العودة إلى عنبر النوم والاستعداد للرحيل في
الصباح الباكر، حبيبته "بيحة" ولا أحد يعلم بميعاد عودته، ستكون
مفاجأة لهم جميعاً، أما هو فيكفيه أنه ادخر القليل من الدنانير الأردنية؛
عسى أن تسعده ولو لشهور من عناء رحلته الفاشلة.

ينفر من كل شيء، كل شيء أصبح لا معنى له ولا رائحة ولا صوت، صوت واحد يجلجل ويصدح في سماء مصر، الزعيم المؤمن ينفد صبره، تسب في عقر داره امرأته، سيدة مصر الأولى، لم تسلم من السنة المعارضين، لم يدر الشيخ العالم أنه يسقط فيما حرم الله، قذف الاتهامات بدون حياء ولا حرج لامرأة الرئيس، اشتعل غضبه وثار في وجه من أتاح لهم كل شيء من الحرية، تشعل الجماعة الإسلامية ثورة الشيخ؛ ليستقر في الاعتقال والإهانة على الملأ بل على مسمع من العالم كله، مقولة يسجلها التاريخ للزعيم المؤمن والشيخ العالم: (الآن هو في محبسه مثل الكلب)، لم يدر على من أثارته الكلمة في مقتل، شيخ الإذاعة والتلفاز، سجلت له في صفحات تاريخ الشرفاء، الأزهر لم يأت بكلاب الأزهر لم يأت بكلاب لحظة حاسمة يفر بعدها من بطش الزعيم المؤمن إلى خارج مصر.

لم يلتفت "لطفي" إلى المرأة حاملة غصني الزيتون، التفت إلى مَنْ كان يستمع إليه الزعيم سعد زغلول، ثابت على منصبه يُشاهد ما يدور من أحداث لأهل مصر، يلتفت أحياناً إلى عشيقته الأبدية، قلعة الحصينة الزاهدة مثله، قلعة قايتباي، أحياناً أخرى يلتفت إلى مُريديه، "لطفي" هو مريده الأول، يشعر "لطفي" بحفاوة الزعيم به وابتسامته له، لا يَمَل من الحديث له والإنصات وإليه، لم يبخل عليه في جوابه الشافي القاصم لما يجري من أحداث، التفت إلى نظرات الزعيم، وغضبه الفائر وعبوس ملامحه، انحنى يلتقط حذاءه المثقوب، صعد إلى درجات المرأة حاملة غصني الزيتون، هَمَّ

برفع الحذاء ولكمها، هي تسخر من حذائه، صوتها لم يكن هو وحده،
مريدين الزعيم يُشاركون في الضحك، لم يترنح ويهتز، هبط من الدرجات،
أشار إلى مَنْ حوله، نعم هُم مثله يأتون إلى الزعيم، فلا مانع من أن يستمعوا
له كما يستمع الزعيم:

- أنا العبد الفقير "لطفي"، سلمت أمري إلى السماء، ولم أسلم من نكبات
الأيام والليالي، هي سوداء، لم تكن سمراء، فالسمراء أحبها أعشق ليا إليها
والطواف حولها.

التفت إلى شاطئ البحر، لم يهتم بقلعة قايتباي (المشلحة) لَمَن هنا وهناك،
هي خادعة، خدعت الجميع وأولهم رائده الزعيم، أشار إليه:
- سترى مني العجب، سوف أفكك قيودي وأُنهي عهودي وأُسوي حساباتي،
هي عمرتي التي تخلصني من ذنوبي وهمومي وأراجع خطواتي، من بداية
مولدي سأفك الأربطة، (أشار إلى قلبه) أولهم الحب الذي أوصلني إلى
حالي، امرأتي "شريعة" الزانية، سألفظها، سأُنهيها من عمري الذي فات،
القادم أحلى وأجمل وألذ.

التفت إلى السائل: وبقية الأربطة؟

نظر إليه في تحدٍ:

سمهامي التي فقدت عمري فيها، أولادي العار الذي جرى في دمي وسنين
عمري الزائفة الخادعة صغاراً أو شباباً أو رجالاً، خيالات وظلال ترحل مع
كل طلوع شمس، نور عيني "ثريا" طعنة في شرفي.

التفت إلى صاحب السؤال:

- أتريد المزيد من الأربطة؟

سألتجف بالهواء، سأطعم بالتراب، سأرتوي بماء الطرقات، سأكون أنا
والكلب سواء، سيعلو صوتي بالهوهوة، سأنبج لأفصح المزبلة، سأعض حق
أشبع أسناني ويرتوي لساني، لن تحر عزائي، فالقادم سيكون أحلى وأعظم
من الأيام الماضية.

نكش شعره، جحظت عيناه، برزت أسنانه، كثر نباحه، وزاد من الهوهوة!
فر مريدين الزعيم سعد زغلول وتفرقوا من حول المنصة، انكمشت حاملة
غصني الزيتون وضمت ساقها، نظر الزعيم في هدوء، مسح قطرات الدموع
النحاسية.

لم تحزن على ما فات، هي قانعة بالحب وإن كان بين ألواح الأخشاب، يحزنها فقط هذا الاستغلال، تعدى كل شيء من عزها ومجدها مع زوجها وأولادها، هي عشيقة لمن عرج بها إلى طريق اللذة، ما زالت في خطوات الحرام من زنا، تحول الألم من خيانتها زوجها إلى ألم يُنغص عليها حياتها، حتى الآن لم يفكر العاشق أن يعقد عليها، هو يلهو ويُمَتعها، هو لم يتغير سواء بين الأخشاب أو على فراش بعلها، لا يبالي بأي شيء من نفحات الضمير!

زادت آلامها، الخوف من الحمل، ماذا يكون العمل؟! لا تجد حتى قروشاً قليلة للذهاب وشراء أقراص منع الحمل. هو دائماً في مراقبة لها، وإن غاب تأتي حارسة الليل والنهار امرأته وأولاده.

لم تبال بدخان أخشاب شواء كيزان الذرة، جلبابها زين بالأخرم، حتى جسدها لم يسلم من نيران الأخشاب، لم يمر عليها أحد الأثرياء لشراء الذرة، زبائن يترنخون من أقراص المخدرات ورائحة الخمر في الأفواه، جبل ناعسة آخر مطاف خطوات اللذة والاستمتاع!

مرت الأيام عليها دون أن ترى بصيصاً من أمل لقاء غرباء، يمر ليلها في ترقب وحنين أن ينبج الصباح، العشيق لا يكتفي من المضاجعة معها وامراته وعمله بشركة زوجها، يتاجر في الحشيش داخل تلك العشة المسماة بالسكن، العشيق ميزته الوحيدة مداعبته وفحولته في مضاجعتها التي كانت تشتتها وتتمناها في الليل والنهار، لكن الأمر ازداد سوءاً بالخوف من كل شيء، الحمل والزنا الحرام، واكتمل بالمخدرات!

لم تسلم من هاجس يأتيها ويلح عليها للخلاص من ذلك العذاب، الانتحار وإن كان مُحَرَّمًا، حياتها كلها حرام في حرام، لم تهتم بالمراقبة من أهل الجبل، سواء الذرة وشظايا النيران واحتراق جلبابها هم الأهم من الحماية والاهتمام، ما زال الكثير من كيزان الذرة لم يُباع مع دخول الليل وبرودة الهواء.

تُصت وتتلصص من بين أخشاب العشة، العشيق في شجار مع امرأته، أولادها في سبات النوم، الشجار تعودوا عليه وهي أيضًا كذلك لم تهتم، اهتمامها دائمًا يذهب إلى طريق واحد، المتعة مع امرأته الغيرة تأكلها هي ونار أخشاب الشواء سواء، تتآكل وتنتهي، لم تغير وجهتها تنظر من بين الأخشاب ما زالت في ترقب ماذا بعد مع تلك المرأة وهذا العشيق، أخشاب العشة تهتز بكل أركانها، لم تلبِ نداء صانع المتعة، لا تريد المخاطرة في هذا المشهد والعراك، هذه فرصتها للرحيل والفرار من عذاب كل يوم وليلة، كفى حباً وعناقاً وتأوهات، لا تريدها، تسأم منها، خطوات الفراش أصابها بالعبث ورائحة تفر منها حتى وهي بين أحضانها، ما زالت تصم أذنيها عن نداء العشيق، لا تريد الدخول في تلك الحالة وذلك الهياج، ولا سبيل للهروب، نداؤه يقترب منها، لم تستطع الإفلات من يده، تُسحب إلى عشة الحب والعذاب، لحظة من السعادة تغمرها، امرأته تصده عن مزاوله الحب معها، وهي أيضًا تفر! كانت تتمنى من المرأة أن تبعدها عنه بقدر الإمكان،

تريدها أن تصده عن الجماع الذي كانت تعشقه، الآن تتمنى المزيد من
الصد والمقاومة،

حصل ما تتمناه، امرأته تغرس السكين في قلبه!

يترنح ويسقط على الأرض.

حانت الفرصة عليها بالفرار، لم تهتم بجلبابها، حافية تُسرع في طريق
الخلاص، لا تريد أن تنظر إلى الخلف، لم تلتفت إلى سكارى جبل ناعسة
ولا أي شيء، شيء واحد تتمناه أن تلحق بالترام والصعود بها.

هواء الليل ينخر في العظام، منتصف الليل لا يثنيه عن خطواته بين الشوارع والحارات، بشائر هطول المطر على أشدها، السماء تبرق، الرعد يدوي في السماء، لم يرغب في العودة كما يفعل أمثاله، هي ليلة يتمناها أصحاب ليلة الخميس في حضن امرأته أو بين الأغصان يتدثر يتمتع بالدفع، يحتسي شرابه المحبب إليه في الليل والنهار، كوب الشاي.

"بيحة" حبيبته تراجعت في خطوات الفراش إلى أقصى درجة من درجاته، كانت تلتصق به تشعره بمدى دفء الرغبة، لا توجد حتى تلك اللحظات، لم يهدأ معها، هو دائماً يشعلها متى أراد، الآن يفشل من أول خطوة، تبخل عليه بنغمات ثغرها: "ملوم" قمرى الذي لا ينقص. لم يشعرها بريح الملل أو زوال الحب، هي التي بدأت وعليها انتظار مسار تلك الأحوال ما ذنبه في الافصاح عن النعي الزائف ورحيل خطيبها، صاحبه هو الفاعل الأول والأخير في هذا النعي وما أصاب الخطيب عند قراءته على الحائط، لم يتحمل خبر موته ليسقط ويرحل من الحياة، صاحبه وليس هو، بيحة لم تنس الماضي وحبيبها الذي كان، أصابع الاتهام تتجه نحوه هو وليس صاحبه، فشل في إزاحة الاتهام وما هو إلا مزحة من الصاحب عسى أن تلتفت إليه هو وليس خطيبها، الآن يسرع في خطواته تائه يبحث عن متعة فراشه الذي ولى وراح.

لم يلتفت إلى مقهى (ريه) أمام باب واحد بالجمرك، يعرف أكثر روادها، هم لصوص الميناء، كم ابتاع منهم التفاح الأمريكاني ومعلبات الحلوى.

لم يلتفت إلى شارع إسماعيل صبري، هو كما هو، لا تسكنه أرواح
الأمكنة، يسكنه الدخلاء، حضروا من ريف مصر، لا يهتمون إلا بشيء
واحد، غلق الأبواب ومحاربة كل من يريد أن يعرف عنهم شيء من حياتهم
الخاصة! كم أهل الأنفوشي عظماء! يحفهم الكبرياء، لا يستحيون من نشر
ما يحول بداخل الغرف.

اقرب من محلات الموبيليا وورش النجارة، توقف أمام ورش والده "لطفی"،
لم يقدر أن يبرح المكان، "لطفی" يبتسم له، يناوله وجبة الغداء من يده،
يمنحه مكافأة ما حمل له من القروش القليلة، يتابعه حتى يختفي من أمامه،
لم يتأخر في التقدم نحوه.

انتبه، المحل مغلق، واختفاء "لطفی"! ما عليه إلا المسير ليرى نهاية هذه
الليلة وما يأتي من جنون خطواته الليلية. زنقة الستات، يخرقها على
عجالة، شوارعها الضيقة ومساكنها كم تشبه مساكن ألف ليلة وليلة
وشيخ بندر التجار وحريم السلطان، هي صفحة من صفحات ذكريات
الماضي، كم اندس بين حريم السلطان يتمتع بتلك المرأة وحلاوة ملامسة
جسدها والأخرى والعيون المتلهفة لمتعة الحرام خطوات الحب، لم يتغير
الحال هو ما زال يعشق المضاجعة ونسماته ونظراته وآهاته، الزنقة تفوح من
بين نوافذها وشرفاتها رائحة الرغبة، تزكم القلوب وتجذب كل من يريد، هو
الآن يريد قضاء وطره حتى وإن كان في الحرام، لا سبيل إلى حبيبته، السبيل
إليه الآن هو الصعود لتلك الأمكنة، هي لا تنام ولا تغلق، تفتح في كل

الأيام وفي كل الساعات، هي طبيب مَن يريد أن يشفى من اشتهاه والتمتع بالجنس، لن يتراجع عن جسده الفائر وانتصاب جسده تأخذه بكل قسوة وقوة وغباء إلى الصعود إلى هاوية الجنس.

لم يهنأ بالاختيار، انقطاع الأنوار كانت نظير شؤم في بيته أو في تلك الأماكن المغلقة، سيرضى بحظه من غانيات العرض، سمراء حمراء بيضاء، كهن في الظلام امرأة واحدة، تُشبع حبه الجائع لسهرات الخميس، لم يهتم بالفراش ورائحة اللذة تفوح منه وعفن تلك المرأة التي بين أحضانه، فرق شاسع بين "بيحة" حبيبته وهذه المرأة، تلاعبه كيفما شاء، خبيرة في القفز بالشهوة إلى أعالي السماء. حاول الوصول إلى المزيد من الممارسة، لم ترغب في المزيد، هو الآخر رضي عسى أن ينال بعض الراحة ورغبته بعودة تيار الكهرباء، يتمنى أن يرى تلك المرأة وجسدها القاهر لكل أمانى الرجال، تُعطى بسخاء لخطوات الجنس وفي صمت، "بيحة" تُكمل خطواتها بالآهات ليس مثل تلك المرأة، تمتلك الجنس الصامت، هي تقتل كل خطواته دون أن يشعر بها حتى من جثم على صدرها، لا يسمع حتى أنفاسها رغم حرارتها الهائجة، لم يتردد في إكمال ستر جسده والتأهب إلى الرحيل.

التفت إلى النافذة المغلقة، عليه استقبال الهواء النقي، كفى لهذه الرائحة وهذا الفراش العفن وهذا الجسد الذي يتمنى أن يرتاده مرات ومرات.

انتبه إلى عودة تيار الكهرباء، لم يكتف من صرخاته يشارك في صراخ العارية كما ولدتها أمها، لم يستطع اللحاق والإمساك بها، تفلت من يده،

تقفز من النافذة، لم يهتم بطرق الأبواب، عليه أن يرى ماذا حل بها، لم يسمع بارتطام على الأرض، لم تقدر سيقانه على المزيد من التحمل معلقة بين السماء والأرض تشوى على أسلاك الكهرباء، كانت فرصته الأخيرة، انقطاع الأنوار وعودة الظلام ليفر من الباب الخلفي للهروب من عيون رجال الأمن.

لم يتمنَّ أن تكون أواخر أيامه في عمله بإدارات الأمن أن تصل إلى تلك الحالة من مأساة صاحبه "لطفی" الأسترجي، كان يريد أن يختم تجديد عمله بالأمن بحالة أخرى غير حالة صاحبه، لكن هذا هو المقدر والمكتوب، صاحبه موسوعة من المآسي المتواترة دون انقطاع وآخرها مصيبتة الكبرى، فضيحة الفضائح، تُوَجَّ بها ولا يدري هل سيأتي المزيد منها؟! ما زالت الصحف تتحدث وتكتب عنها، حتى المنابر في خطبة الجمعة تتحدث عنها! مصر كلها في هياج بين مَنْ يعطف ومَنْ يرميها في نار جهنم، عجيب يا شعب مصر، جميعكم في في بحر الملذات والمعصية، حاول بكل ما يستطيع أن ينهي هذه الحادثة ولا يمس صاحبه "لطفی" بأي أذى، يكفي ما حُمِّل من أوجاع من امرأته "شريفة" ومن حياته التعيسة، لم يكن الفقر وحده رفيقه، العار يصرُّ أن يكون رفيقه هو الآخر، لم يكن في قناعة بأنَّ هناك شبهات جنائية وفي أول القائمة، "لطفی" ذاته، يليه "ملوم"، لم يجد المعمل الجنائي أي علامات تفيد من المقاومة أو الاغتصاب، وشم الحرق فقط على جسدها، علامات الرغبة والجنس تبرز للجميع، تشطب أي بادرة قتل من "لطفی" واستحالة أن يكون رفيقها "ملوم"، أوصاف مَنْ كان معها نعم قريبة التشابه لـ"ملوم"، لكن هذا مستحيل، أزاح استكمال التحريات عن "ملوم"، هو يعرفه حق المعرفة، خطوات شبابه وزواجه والفاطنة امرأته الجميلة تغنيه في حتى أن يفكر بالزنا وبمَنْ؟ شقيقته؟!

"ثرثا" عارٌ عللهم ؤمى؁ سبيل غسل العار يتواجد بىنهم؁ لكن ما من شىء على جسدها أكثر من قطرات الجنس فى عُر دارها؁ جسدها لا توجد عليه أى من القطرات؁ هى تستقبلها فى ترحاب فى مكانها الذى تهواه؁ شقيقها "علي" يسكن بالقاهرة؁ هو الآخر تحوم حوله الشبهات ولكن تقرير الطبيب الشرعى يقسم كل تلك الأهازىج والتخىلات؁ كانت فى حالة من الإمتاع الكامل من الاشتها والتلذذ؁ فصل التقرير الشرعى فى الأمر ولا يوجد أدنى دليل على الانتقام أو القتل؁ حتى ظهرها لم توجد فى أى شبهات للزج أو القذف من النافذة.

انتبه إلى ارتعاش أصابعه ورداءة ما يكتب فى الأوراق نهاية الأمر وعلق ملف "ثرثا" إلى الأبد؁ يريد أن ينهى تلك المأساة رغباً عنه؁ قناعته لم تكتف وتنتهى إلى هذا الحد من التساؤلات؁ أشعل لفافة التبغ لعله يجد ما يُحبره وبنغص عليه طفله؁ مَن الفاعل ومارس الجنس معها وهذا الإشباع المصبوغ على جسدها؟

عجز عن الإجابة؁ أزاح فكرة غلق التحقيق؁ هناك مَن تقدر على حل تلك الشفرة؁ أغلق الملف دون أن يوقع بالانتهاء.

التفت إلى شاطئ الأنفوشي، لا حيلة له إلا الجلوس بين رماله والشكوى إليه، أين يجد حلاً لما حلَّ به من عمله الأسود من زنا بالشقيقة "ثريا"؟ أسئلة مجنونة تغزو عقله، ما العمل إن لم ترحل من الحياة؟ كيف يكون الحال أمام حالة الزنا؟ أفكاره تؤدي به إلى المهالك، العودة للجنس معها مرة أخرى، ما الحال إن لم تأت الكهرباء؟ ورحيله دون أن يعرف صاحبة المتعة التي لم يشعر بها إلا معها؟

وهذا الجسد المتفاني في ممارسة الجنس، بل كيف وصل بها الحال أن تصل إلى تلك الدرجة من الرفاهية والخبرة في معاملة الجنس وإشباع الغريزة؟ متعة جعلته في رضا للرجوع إليها مرات ومرات! "بيحة" لم تصل إلى رفاهية الجنس بعد، منقوصة اكتشفها مع شقيقته!

كانت دائماً في غياب عن التواجد والتواصل معهم، تلك كانت تعليمات "لطفی" إليهم، حتى أمه "شقيقة" لم تذكر "ثريا" بأية أخبار! التفت إلى مياه البحر السوداء، حزينة غاضبة تكتم أسرار من يفشي إليها، "ملوم" الحائر بين متعة الحرام وشقيقته الزانية، هي الأخرى رحلت كما رحلت.

التفت، حبه الراحل يأتي إليه، فينوس الخرساء، لم يفرك قلبه لتأتي إليه، آتية دون فرك أو خاطرة اشتياق! جمال جسدها يُضيء الأمواج، تُداعبها، تمرح بين ساقها، تُغازلها دون حياء. لم يقوَ على الاقتراب، أمواج البحر تصده، لا حيلة له إلا أن يُمتع عينيه بها، لم يرَ رداءها الشفاف عارية من كل شيء

يسترها! لم تبتسم له، نظراتها لم يتعود عليها، رحل الاشتياق عنها، لم يشعر إلا بالخوف، ترتعش أطرافه.

هبط على الرمال، يتمنى أن ترحل، لا يريد أن يراها، هو يعرف لماذا هي الآن بين يديه وفي تلك الحالة من الإغراء، هو المذنب الزاني المتعدي على أقرب الناس إليه، شقيقته "ثرثيا". هل أبلغت شكواها إلى فينوس الخرساء؟ التقيا كما كان الحال في الأنفوشي وشاطئ البحر، جاءت تقتص من فعلته مع "ثرثيا"، أم الغيرة والحب وإن كان سرمديا؟

لا حيلة له بالدفاع عن نفسه، ولا يقدر حتى على الفرار من حبه لها، هو أسير الحب واللقاء معها، لن يفر ولن يدافع، عليه الصبر، لماذا جاءت إليه؟ عليه الاستماع كما كان في الليالي الماضية، لم تنبس بكلمة واحدة، أشارت إلى الأمواج الهاججة! جاء ما لم يتوقع، شقيقته "ثرثيا" تأتي إليه، تقفز بين الأمواج، تُداعبها كما كان حالها في صباها، هي عارية كما الحال مع حبيبته الخرساء، لم يستح من النظر إليها، هل هو حبّ الأشقاء أم حبّ الاشتها؟ لم يفكر كلاهما سواء، هي تتساوى عنده مثل الخرساء، يتمنى الجنس، أسرع في خلع بنطاله، قذف بكل ما يستره من أشياء، كان مُصرّاً على فعل ما يُحبّ، هن ينظرن إليه في ترحاب، رحلت نظرات التأنيب أو العقاب، لا يرى غير تلك العيون المائلة إلى أن ينال ما يريد!

التفت إلى طلقات الرصاص تنطلق من حوله، لم يهتم، يريد غايته من الشهوة وجنون الاشتها والشبع، اقترب نداء الإنذار بالقتل! حراسة

الشاطئ تقترب منه، لا سبيل من النجاة. انتبه إلى يديه ترمي على وجه رمال
الشاطئ، أفاق من غفوته، لم يجد حوله غير أمواج البحر وسكون الشاطئ!

هبطت على درجات السلم، لم تضغط على زر الإنارة، تريد الاختباء من أعين المتلصصين على معرفة المزيد من أخبارها، لم تنجح في إقناع "لظفي" بالرحيل للسكن في مكان آخر، أو حتى الرحيل من الإسكندرية وليس من الأنفوشي، لا ينصت لها، يرجئ الرحيل إلى الأيام القادمة.

مرت الشهور وما زالت أخبار ابنتها "ثريا" على ألسنة أهل الحارة والجيران، حتى أحبابها، هم سواء في التمتع بالجديد من الأخبار، دائماً تُرجئ الخروج إلى الليل لشراء ما يلزمها من احتياجات، أصابها الملل من الطعام الجاف والمعلبات، تُغنيها عن الخروج لعدة أيام، لكن لا مفر من مواجهة هؤلاء الناس، يكفيها ساعات الليل لقضاء مهمتها من شراء ما يحتاجه البيت من كل شيء، تبتعد عن الأنفوشي، ترحل إلى سوق العطارين، هناك لا أحد يعرفها ويعرف مصيبتها. ما زالت حوانيت الأرمن تتعامل معها بكل سخاء، هم يعرفون قدر الجمال الذي لم يرحل منها، تتألق بجسدها وشعرها الأسود، لم يغزه إلا شعيرات قليلة من الشيب الفضي، يرحب بها الخواجة، يُقدم لها كل ما تفقده مع أقرب الناس إليها "لظفي"، تنصت إلى باسيلوس، يُغريها بالسفر خارج مصر، هناك باليونان يعرفون قدر جمالها وحلاوة جسدها:

- لا فرق بينك وراقصات ونجمات السينما.

كم تسعد بتلك الكلمات، هي تزهو بجمال وحلاوة جسدها، تشكره على كلماته الرقيقة في المدح والثناء، عليها الآن تكملة مسيرة الطلبات من

سوق عمر باشا بمحطة مصر، شيطانها يُراودها، يلح عليها، حاولت أن تصد أفكاره الشيطانية من الذهاب إلى "جميلة" شقيقة زوجها "لطفی"، خطوات قليلة تصل بها إلى محرم بك، كم من الشهور لم يتواصل "لطفی" مع أهله وشقيقته.

اقتربت أكثر الآن، تقف تحت شرفة ونوافذ "جميلة"، هل تصعد أم تكتفي وتصبر حتى يظهر أحدهم أو "جميلة" من النافذة؟ سقط الطعام من يدها، اختبأت عن الخارج من البيت، "لطفی" بلحمه وشحمه وهندامه المتواضع! لم تصبر، أسرع نحو، أمسكت بعنقه، لم يقدر على الإفلات من يديها، أطلقت صرخاتها، لم تبال بالسائرين أو بمن بالشرفات! جاءت فرصتها في رد الكيل بكيلين إليه، كفى تأنقاً أمام أهله وشقيقته التي تودعه من النافذة، أشارت إليها:

- هذا زوجي وبعلي الذي لم يصُنني ويحفظني ويحنو علينا، هو الذي أماتني وأحياني. كم من المرات أعذب وأهان وأركع له.
أشارت إلى "جميلة":

- إياك أن تدخلي، إياك أن تهربي. شاهدي ماذا فعل شقيقك بنا، إياك أن تدخلي.. أضاع كل شيء من شرف وكرامة وعزة وأولها أنا، فرّق الأحبة، ضيعنا لفكرة حلمه الذي حتى الآن لم يقدر على أن يحققه! حبيبة عينيه الثريا "ثرى"، لم يفعل شيئاً لها غير أن يتركها في شباك الرزيلة، بل وصل الحال لأكثر من ذلك، تشوى على الكهرباء، وتموت عارية زانية نجسة هاربة

من أحبابها وقرّة عينها أولادها! هو زعيم بدون زعامة، هو القوي بدون قوة، هو المحارب من غير أسلحة..

التفتت إلى جميلة، ما زالت تقف بالشرفة، لكن ليس وحدها، أبنائها معها..

- أأتشهدون خالكم النظيف العفيف الجميل، هو قبيح في كل شيء، حق بين ثنايا الفراش، هو مفلس حق وإن ملئت حافظته بالنقود، هو الناقم على كل شيء..

حاول "لطفي" الفكك من يدها، لم يفلح، ما زالت يدها قابضة على قفاه! التف حولهم الرجال والنساء والصبية، حاولت تفادي قذف الحجارة، أفلت "لطفي" من يدها هو الآخر، أخذ يصد عنها الأذى، حماها بجسده! التفت إلى شقيقته وإلى الجمع من حوله، لم يهتز أمام ضحكاتهم وفرحتهم بالمشهد الحزين، أسرع بحبيبتة "شريفة"، يبعدها ويهدئ من روعها من الضحكات التي كانت أشد قسوة من حجارة الصبية، يصم أذانه عن أذى الكلمات ومتابعة هؤلاء الناس الذين لا يعرفون إلا شيئاً واحداً هو أن يسخروا من عباد الله، وإن كانوا مجانين!

في استحياء يصطحب امرأته للعودة إلى الإسكندرية مرة أخرى، كم تشبه المرة الأولى بالبُعد عن والد امرأته، تفرق وهروب إلى مناطق متفرقة خوفاً من ملاحقة الأمن لرب الأسرة الشيخ.

الآن حادثة المنصة تهز العالم كله وتُزلزل الأرض من تحت أقدام أهل مصر، اغتيال بطل العبور في عيد النصر وتحرير سيناء، حاول إقناع الشيخ:

- الأمن لن ينظر إليك، أنت رجل مسن، كهل العظام لن تفيدهم في شيء.

لا يرضخ لتلك النصيحة، كلمات مُوجزة شديدة الإقناع:

- الحادثة ليست بتلك البساطة، قتل الزعيم السادات مصيبة المصائب وحادثة القرن.

وكان الحل هو الفرار والرحيل هو الآخر إلى الإسكندرية، نفذَ نصائح الشيخ بالحرف الواحد من خلع حجاب امرأته والتبرج إلى أقصى درجة حتى تمر تلك الأيام على خير وتنتهي المطاردة، هاهو عائد مرة أخرى إلى محطة قطارات رمسيس والسفر بالدرجة الثالثة، هكذا هي تعليمات الشيخ، لم ينسَ شراء علبة التبغ، ولا مانع من إشعالها داخل القطار، حركات تمويه وتضليل لعيون الأمن والعدالة، كما عليه الصبر، العيون تنلصص على امرأته داخل القطار، تفحصها من أخمص قدميها حتى شعرها التي لم تعمله غير ضفيرة خلف رأسها.

يزداد خوفه كلما اقترب القطار من الإسكندرية، كيف سيتم اللقاء مع أبيه "لطفى" وأمه "شريفة" بعد ما وقعت مصيبة شقيقته "ثرثيا"؟ وكيف حال

شقيقه "لملوم" وزوجته "بيحة" الفاتنة؟ لا حيلة له غير أن يقطن معهم في مسكنهم الضيق، لا يستطيع النزول في أحد فنادق الإسكندرية، عيون الأمن تتحرى في كل شيء وعن أي شيء، الغرباء هم تحت عين التحري بالفنادق، لا سبيل للمغامرة، كم تمنى أن يطول عمر الحالة "نرجس" والنزول بسكنها، لكن هذا هو المٌقدر والمكتوب.

التفت إلى امرأته، يغلبها النعاس، أمالت على كتفه، أسرع بإخطارها أن القطار يدخل الآن إلى محطة سيدي جابر، نسيم البحر يطل مع الهواء ينعشه، تراجع في النزول بمحطة سيدي جابر، كان يريد زيادة التمويه من مراقبة رجال الأمن، عليه الاستعداد للنزول بمحطة مصر، لا ذنب له في كل ما جرى، ما هو إلا زوج لابنة ذلك الشيخ، وعمله الحكومي يمنحه الطمأنينة من الزج في أي شبهات تخوم حوله، أمن العمل يعلم عنه كل كبيرة وصغيرة فلا داع للخوف، الخوف كله على امرأته ابنة الشيخ الهارب من ملاحقة رجال الأمن.

هدأ بعد الخروج من بوابات محطة القطارات، لا أحد يتابعه، كان يشعر بالحنين إلى الإسكندرية وما بها من كل ما هو جميل، رائحة البحر تطل عليه، يتمنى الوصول إلى شاطئ محطة الرمل، لا مفر، السفر أرهق امرأته، يشعر بها، هي لا ذنب لها في كل ما يجري من أحداث، عليه الوصول إلى بيت العائلة الأنفوشي.

لم يخل في الوصول بالعربات الخاصة، كان عليه المناورة مع السائق، هم غرباء عن الإسكندرية، من مدينة السيد البدوي بطنطا قادمين، لم تفلح كذوبته مع السائق، هو من أهل طنطا، بل من المجاورين للسيد البدوي، لم يتمكن من الرد على السائق من أي منطقة هو، حاول إقناع السائق أنه لم يمكن بها غير قليل من الأيام، استجابة لامرأته لزيارة المقام البدوي، فسحة من الوقت للراحة من صعيد مصر، والآن هم في طريق تكملة رحلة الترفيه والسياحة بشواطئ الإسكندرية، تجاهل تكملة الردود على التطفل من السائق، التفت إلى شاطئ الأنفوشي، السائق ما زال يعرض خدماته من عرض شواطئ أخرى، لم ينصت إليه، كلمات من الشكر، وتكملة دفع الحساب، لم يجرؤ في مناقشته، الأجرة هي مثل ما يقدمها أي راكب من الإسكندرية، سعد "علي" بغضب السائق الذي رحل دون كلمات الشكر.

ابتسم وأشار إلى حبيبته، يطل "لطفی" من خلال النافذة، سرد نصيحته الأخيرة إلى امرأته:

- لا حديث عن الشيخ الوالد، نحن في زيارة فقط إليهم.

لم يكمل الصعود على درجات السلم، يُسحب من قفاه هو وامرأته من رجال الأمن!

رجعت من مهمتها خائبة، تجتر ويلات الفشل ومن من؟! من شقيقتها "صابر"، لم تفلح في أن يمد لها يد العون في محاولة الإفراج عن ولدها "علي" وزوجته! لم يهتم وكمن نهرا وعقابها في محاولة التواصل مع شقيقة زوجته راقصة الملاهي الليلية التي تملك صولجان القوة في معاشرتها لمعالي مسؤولي البلد والسادة من عظماء مصر، زبائنهم في لياليها الحمراء.

كانت تعرف كل التفاصيل عن تلك الفاتنة الراقصة، بل كانت دائماً تشعر بمدى احترام الراقصة لشخصها ونسبها وحسبها، علاوة على أنها شقيقة زوج أختها، لم تستطع معرفة أين تسكن وأين عملها الليلي؟

ملاهي شاطئ الإسكندرية تشتعل في الصيف وفي الشتاء، لا راحة في طريق اللذة واشتهاء الحرام! تلك هي الإسكندرية، معشوقة لكل صاحب هوى وطالب مزاج! بحرها ورملةا تخفي العجائب من الحب!

هي نفسها من أولئك المحبين لها العاشقين لكل حفنة رمال ولكل قطرة ماء ولكل نسمة هوا.

"لطي" زوجها باءت محاولته هو أيضاً بالفشل مع صاحبه رجل الأمن المهم جامد الملامح بطيء الكلمات ذو العين الواحدة، لم يقدر على التعاون في هذا الأمر، لا سبيل إلى المحاولة إلا بمعاودة الوصال مع رجل الأمن المستغل في وقتها بالماضي وعشقها لحبه الذي رحل من سنين، محاولة مجنونة لفك أسر ولدها "علي" وزوجته، هل تذهب للمحاولة؟

محاولة الماضي في فك أسر "لطفي" جاءت بالعار عليها، والذي ما زال يلاحقها حتى الآن، تردد وخوف ولعنة لتلك السنين التي عاشتها مع "لطفي" ونسبه ونسله الأعوج في كل شيء!

خارت قواها وفشلت عزائمها ولم تجد المعين لها في أحوالها الذاهبة إلى السواد في كل شيء، هي تخطو بخطواتها وحيدة كما كانت دائماً من أيام صباها مع أمها وشقيقها "صابر"، لم تشعر بحرارة الشمس، هي في متاهات الألم تخطو ولا تمل.

اقتربت من مبنى الأمن، هنا العقيد الذي داس شرفها وأضاع حبها لـ "لطفي" وأتى إليها بالعار بين أقرب الناس إليها، أسرتها التي في طريق الزوال، لم تشعر بالرغبة، هي تعرف مقدمات الاقتراب من بوابة الأمن، أتى إليها الحارس، حاولت أن تعرف هل هو نفس الحارس الذي استقبلها بالسنوات الماضية.. لم ينظر إليها إلا لحظات قليلة، تأتي المفاجأة! هو يعرفها، لم ينسَ حكايتها، لم تقدر على التحدث، هو يتحدث إليها بكلماته اللاذعة:

- العقيد تعيشي أنت، رحل من الدنيا من سنوات مضت.

لم تصبر بالوقوف أو التحدث معه، التفتت حولها، لا أحد يرى أو يشاهد ذلك الحديث وسخرية الحارس! أسرع بالرحيل، لتبدأ في البحث عن سبل أخرى لنجدتها وفك أسر وليدها "علي" وزوجته من الحبس.

لا حيلة لها في عمل أي شيء، محاولات باءت بالفشل مع حبيبها، قمرها الذي لا يغيب ولا ينقص، فراشها ينتفض فزعًا من ليلاليه الفارغة من الحب، يبعد عنها بقدر أنفاسها غير البعيدة عن أنفاسه، أين رحل الحب وأين رحل القمر؟ ندى المساء يغيب عن فراشها الموجوع بظماً للذة، لم تكن تدري، تمنعها بمطارحة الغرام في ليالي مضت، تفعل به كل تلك الأفاعيل من الهجر! هو الغائب بالليل والنهار، تساؤلات لا تجد لها إجابات، من أين تأتي بالإجابات؟

البحث عن كل هذا يدفعها أن تخطو بخطوات التائه المرید لشواطئ الراحة، "عنايات" الراقصة هي غايتها ومرادها، راغب هي بغيتها لتنال إجابات الحيرة التي تمتلكها، فرصتها الأخيرة في معرفة ما يدور برأس حبيبها "الملوم"، لن يهدأ لها بال ولن تستقر أنفاسها إلا حين تعرف ما خفي من أمر حبيبها، نعم الأحوال حولها هي مقدمات لما يجري من أحداث الغربة والجفاء والبعد عن كل همسات الحب، حادثة "ثريا"، واعتقال "علي" وزوجته، ليست بنهاية العالم، الدنيا كلها تسير ومن ضمنها مسيرة الغرام، بل هي تسير بأسرع ما يمكن، الجنس من أكثر الأبواب اتساعاً للتنفس من خبايا الأيام والسنين. بذلت من الجهد والخذاع في الخروج من بوابة مراقبة "شريفة"، "لظفي" دائماً بالخارج لا يأتي إلا متأخراً في المساء، "شريفة" على قناعة من سبب خروجها من البيت، زيارة أولياء الله الصالحين؛ عسى أن يأتي الله بفرج الحمل، كذبة بيضاء خادعة تضحك بداخلها منها، حبيبها لا يريد (وأوة)

الرضيع، يعشق السكون كما يعشق ليالي اللذة، تؤيده في مرماه وبغيته، لا تريد أن يتبدل صدرها كما تدلّ صدر "شريفة"، تعجب دائماً من جسدها الذي لا يشيخ! ما زالت "شريفة" فرصة تتحدى السباق! شعرها ما زال يزهو بلون الليل.

راجعت هديتها للراقصة، منديل التل بخرزه الأزرق والعلكة، كم تحبها "عنايات"، تمضغها بفمها الواسع ذو الشفاه الغليظة الحمراء، عليها أن تستعد بإجابتها إليها عن أحوال "شريفة"، هي في حيرة من أمر "ثريا" ورحيلها! هل الراقصة ستكفي أم تطلب المزيد عن "ثريا" وفضيحة الحادثة؟ ليس لديها أي شيء تخفيه، هي أيضاً لا تعرف إلا القليل.

لم تهناً بأحوال راغب بجارتها ومساكنها القديمة، تريد أن تنهي مهمتها بقليل من الوقت، هواء الأنفوشي تشتاق إليه كما يشتاق المحبين إلى ذكرياته الراحلة، كم يعذبها "الملوم" بفراقه حبها وجفاف فراشه.

عليها الإسراع في مقابلة الراقصة، هي تعرف من الحلول الكثير في مثل تلك الحالات، هي الخبيرة بكل فاتح لشهية اللذة والحب والحياة في آن. اقتربت من الحارة، لم تستح من المرور بجانب شادر العزاء وتلاوة القرآن! التفتت إلى نوافذ وشرفات بيت "عنايات" مغلقة! بيت يسكنه شيء خاص! لم تتوقف بالصعود على درجات السلم.

انتبهت إلى النداء، لم تقدر على الوقوف، جلست القرفصاء على درجات السلم، يرتعش جسدها من الخبر..

الراقصة "عنايات" رحلت اليوم وتم دفنها!
ما عليها الآن إلا الرحيل من راغب، لم تتفوه بأي كلمات لجيران الراقصة،
اكتفت بشراب بعض الماء، هبطت درجات السلم، تحاول بقدر الإمكان صد
بكاءها، خبر الموت سيقع على "شريفة" وقع الصاعقة! لكن كيف تخبرها
وهي في زيارة الأولياء الصالحين من أجل الحمل؟ عليها أن تفكر في وسيلة
أخرى ليصل خبر موت "عنايات" إلى صاحبها "شريفة".

لم ينفد صبره بعد، ما زال يبحث عن المجهول والغائب في حادثة "ثرثيا" ابنة صاحبه "لطفى"، لم يقرر غلق ملف التحقيق، امرأته قدمت الكثير من خبرتها مع زوجها الراحل من الحياة، العقيد الزانى بزوجة صاحبه، رحل وترك لها الكثير من خبرات التحري والتدقيق في الجرائم، عرف منها الكثير من خبايا حادثة "ثرثيا".. هي لم يدفعها أحد من النافذة، لا توجد على جسدها محاولة اغتصاب، لا مقاومة ولا عنف تدفعها بالقفز من النافذة، هناك شيء واحد، هو الهروب من المواجهة لأحد من الناس، أحد هؤلاء الناس قريب منها إلى أقصى درجة من الحب أو القرابة! هل هو زوجها أم عشيقها الذي هربت إليه؟

أزاح فكرة العشيق فهو قُتل قبلها بشهور، حُذف من قائمة الاتهام، لم تكتفِ امرأته بإيجاد تلك الدلائل..

هناك دليل آخر، هو نفسه غفل عنه.. ماء الحب المتواجد على جسدها، هو مفتاح فك شفرة الحادثة الغامضة.

توقف أمام مقهى السلطان حسين، عليه الراحة من خطواته ومن فكره المتعب إلى هذا الحد من الإرهاق، لم يفكر بالذهاب إلى كافتيريا إيليت بوتيت، لا يحلو الجلوس بها إلا مع صاحبه "لطفى" كما في الماضي، الماضي الذي ما زال يعطي بسخاء من أحداث، لم يفكر بالوصول إلى صاحبه "لطفى" في الأنفوشي، هو من المشتبه بهم في أحداث "ثرثيا"، عليه أن يبتعد عن عائلة "لطفى" و"شريعة" حتى ينتهي من إتمام التحقيق وغلق الملف.

امراته دلته على أقصر طريق في معرفة الجاني، "ملوم" هو المشتبه الأول في هذه الأحداث، كان هو رجلها في ذلك اليوم، أوصافه في التحقيق في بيت الغانيات يؤكد، لكن كيف السبيل إليه؟! مازالت الحالة تحفها الشكوك، ولا أدلة ولا سبيل لفقد أعز أصدقائه "لطي" زعيم البروليتاريان، كم يحبه ويعتز بماضيه وزمالاته بمستشفى الأمراض العقلية.

احتسى كوب آخر من الشاي، لم يدخن أو يشعل لفافة من التبغ، يكفي عقله المشتعل بما يسعى إليه من معرفة الحقيقة، لا سبيل للحصول على سائل الحب من "ملوم"، مهمة صعبة وقاسية وبعيدة المنال، هل يرجع مرة أخرى إلى امرأته لأخذ المزيد من الوصايا في إكمال مهمته؟! الحيرة تأخذه إلى مكان آخر، التحري وبسرية عن علاقة "ملوم" بحبيبته "بيحة"، بل هل تشبعه من وسادة الحرام، أم طرق أبواب أخرى من إشباع شهوته وإفراغ حبه وارتواء عظامه؟ التحري عن خطوات "ملوم" صباحاً ومساءً هي مفتاح فك الاشتباه والاتهام لحبيبها "ملوم"، هدأت أنفاسه، أشعل لفافة التبغ، عليه أن يعد طرق معرفة حالة الحب بين "ملوم" وحبيبته "بيحة".

نور الفجر يفجر ظلمة الليل، أكمل ارتداء هندامه في ثناقل، هو الممتنع عن تلك الزيارة، هل يذهب مُطاعًا إلى مقر الظلم مُطأطأ الرأس؟ أم يزيح هذه المهمة ويتراجع؟ يأبى أن يرضخ لأموه يكرهها من بداية مولده ضاق بها صدره ويكاد أن ينفد صبره من رياح الظلمات تريد أن تعصف به، تدفنه بين تراب اليأس والهزيمة.

فتح أبواب الشرفة على اتساعها، يتنفس هواء الحرية التي لا تقدر قوى الشر أن تمنعها، ويتنفسها من دون رقيب ولا مُحاسب، أمواج شاطئ الأنفوشي ما زالت ساكنة صامتة لا تخرج أمواجهها، رمال الشاطئ ما زالت ملتحفة بسواد الليل، لم تفصح بعد عن لونها الأبيض، أهي مترددة مثله؟ أم تنتظر الإذن من مَنْ؟! هل رضخت لأوامر السلطة، لا تخرج إلا بإذن؟ أم هي مثله تردد في كل شيء؟

التفت إلى "شريعة"، ما زالت تعد ما تستطيع حمله في حقيبتها، أخرج تصريح الزيارة، ما زال صاحبه رجل الأمن المهم جامد الملامح بطيء الكلمات يعمل على مساعدته في خطوات حياته البائسة، لم يُغلق أبواب الشرفة، عسى أن يرجع ويتنفس ما بها من هواء الشاطئ، حمل الحقيبة، عليه أن يساعد "شريعة" بقدر ما يستطيع.

كم انتبه إلى الحب بين "الملوم" و"علي" و"شريعة"، دائمًا "الملوم" له الحظ الأكبر من الدلال والحب. تغيرت الأحوال.. "الملوم" في غياب عن كل شيء، البيت والجميلة "بيحة"، هو المُفارق الغائب، هن في صندوق المهملات،

"شريفة" تزيد من مشاهد الحب إلى ولدها على المعتقل هو وامراته بسجن الحاضرة، تزيد من كل شيء.

اقتربا من بوابة الاستقبال، عدل "لطي" من هندامه، رفع رأسه إلى السماء، يريد أن يتعالى على هؤلاء القوم، هو يعرفهم جيّدًا، تخرقواهم أمام مَنْ يَتعالى، يخافون أن يكون من أصحاب سادة القوم، سعد بارتعاش الحارس أمام حركاته وتعاليه، عليه الآن الاستراحة مع "شريفة" في انتظار نداء الأسماء.

التفت إلى "شريفة" تجلس في هدوء، لا تلتفت لأحد، هي في ثبات أيضًا، تتعالى عن هذه المشاهد الزائفة في كل شيء، بطيئة إجراءات الزيارة، تنخر في كرامة مَنْ ينتظر الفرج، فرج السماح بالزيارة، الشعور بالَمَن والحاجة يُسعد هؤلاء القوم، تزداد فرحتهم كلما تأخرت مواعيد الزيارة!

مرت الساعات، الشمس تنتصف في السماء، انتبه "لطي"! لا أحد من أمثالهم المنتظرين تبرم أو حتى تحرك لمعرفة أسباب التأخير! هو وحده سيقوم بهذا العمل، لكن عليه كظم غيظه، الحاجة إليهم تُجبره على الصبر مع الحيلة والدهاء، لم تمنعه "شريفة" من القيام..

رسم ابتسامته التي تعرفها وتعرف مَغزاها وطريقها، ناولته علب التبغ عسى أن تعرف طريقها في تسهيل الأمور، هذا ما كان متفق عليه، كم نصحه صاحبه رجل الأمن المهم في التصرف في مثل تلك الأمور، انتشى بالنصر، الحراسة تأخذ ورقة الزيارة باهتمام مثل اهتمامهم بهذه العلب

صاحبة الأمزجة بالاهتمام والتميز، أطاع الحارس، عليه العودة إلى "شريعة" وانتظار ماذا بعد؟! التفتت إلى بوابة الزيارة، يخرج إليهم المساجين من كل لون، خليط الوجوه لا يُدلل على أي شيء من الاعتقال السياسي! هبّ مرة أخرى إلى الحارس، لم يتحمل المفاجأة أرض الزيارة تدور من حوله، لا يشعر بشيء، حتى الفرح بالخبر السعيد.

التفتت إلى امرأته استند عليها، لم يرض بالجلوس مرة أخرى، همس إليها:

- تم الإفراج عنهم مساء أمس!

الحاجة إلى مطارحة الغرام تجذبه دون وعي ولا حساب، لذة إشباع حاجته هي رائدة المسيرة! لم يتراجع ويفكر بنهايات ذلك اللقاء، أي عواقب تأتي لا يعني لها بالاً، هو المُصر على الجنس والارتواء منه وإن جاء بالخراب، "بيحة" لا يقترب منها، أصبحت مع أمه "شريفة" في عدم اللمس أو حتى النظر إليها، هي الأخرى لا تقترب منه، تبادله شعور المهجر، أهو خصام؟ أم لماذا تقدم على تلك الحالة من المهجر؟!، لم تسامحه عن فعل النعي الزائف لم يفلح في الغوص بأعماقها كما كان في الماضي، الشهور تمر والحب في طريقه إلى الرحيل، وما هو يذهب لإرواء عطشه من حبٍّ آخر، حلاوته ما زالت تسري في وجدانه وإن كان مع شقيقته "ثرثرا" الراحلة، يتخبط في متاهات الحيرة، أهو مسحور في فعل الحرام؟ هل دُبر له سحر؟! لكن مَنْ يفعل به تلك الأفاعيل؟! لا يجد تفسيراً لما يجري له من أحداث!

لم يلتفت إلى تضارب الأفكار في رأسه، ما زال مصراً في مسيرة فعل الحب الحرام، اطمأن إلى حافظة نقوده بها الكثير، سيكون شهريار في هذا اليوم، سيختار أحلى شهرزاد من بين غانيات ليالي الحب، لم ينسَ المرور على بائعي أثير الحياة، القرص الألماني هو سيد الفراش، لم يغيب يوماً عنه هو دائماً معه، كم أسعد حبيبته "بيحة" بليالي القرص، حصان جامح يسبق الريح ولا يكل ولا يتعب، "بيحة" تُرهق سريعاً من خطوات المتعة، شقيقته كانت تطلب المزيد!

اقترب من الزنقة، نعم هي زنقة بكل المعاني، زنقة الستات، لكن مَنْ
المزنوق هو أم صاحبات الأجساد الملتهبة؟ أراح فكره، هو المزنوق المُتعطش
لجمال الجنس وأساليبه المتفجرة بين الأغطية والوسائد.

التفت لأبواب المسجد، لم تُغلق بعد، أسرع إلى موضة الوضوء، احتسى
بعض الماء مع قرص الحبّ الألماني، لم يُسرع بالخروج، ما عليه إلا انتظار
اشتعال حرارة الحبّ.

انتبه إلى خادم المسجد يهمس إليه:

- هل معك قرص آخر لنا؟

لم يهتز من اكتشاف الخادم، شعر بالسعادة، أخرج قرصاً آخر، اختطفه
الخادم، تابع حركاته وهو يسرع بغلق الأبواب والنوافذ، عليه هو أيضاً
الإسراع إلى منازل الحبّ!

اتجه إلى بيت اللذة، صعد درجات السلم، لم يذهب إلى بيت آخر، بيوت اللذة
كثيرة بزنقة الستات، لا يبتغي غير بيت "ثرثرا" الراحلة، الإنارة تملأ درجات
السلم.

لم يسلم من نظرات تلك المرأة، تنظر إليه تحوم من حوله، لم يعجب بها،
التفت إلى الأخرى، هي أيضاً تراقبه من أحد أركان الغرفة، أشار إليها،
استجابت له، لن يحيد عن غرفة معاشرة "ثرثرا"، لم يشعر بلذة الجنس أو
بالهياج وما يفعله قرصه الألماني!

مضى من الوقت الكثير ولم يزل في غربة البعاد عن النشوة التي يبتغيها ويعشقها، لم يعترض، الغانية تتركه، ما زال يُتابعها، لا يستطيع الإشارة إليها بالعودة، لها كل الحق في الرحيل، جسد ميت فشل في كل خطوات المتعة معها، لا يستجيب ولا ينظر إليها ولا يُنعشها حتى بقبلة من قبلاته الحارة مع "ثرى" الراحلة!

أشعل غليونه، عليه الاستراحة عسى أن يُعاود إضرام ما فشل في إشعاله، لم يفكر في اختيار امرأة أخرى، غانية جميلة من جميلات الريف، غجرية تأتي من مولد من الموالد الصوفية، عليه الانتظار، هي ستُكمل مهمتها معه، ستأتي ولو بعد حين، انتبه باب الغرفة يفتح مرة أخرى، ليست من كان معها هي الغانية الأخرى التي كانت تنظر إليه وتحوم من حوله وقت حضوره، لم يقدر من الفرار، سقط غليونه المشتعل، رجل الأمن المهم جامد الملامح بطيء الكلمات يقف في مواجهته! تمنى أن يفر حتى ولو بالقفز من النافذة، لم يجرؤ، هو جبان، شقيقته "ثرى" كانت أكثر منه شجاعة في الهروب من الفضيحة.

جلس على شاطئ الأنفوشي، هواء الليل كم يشتاقي إليه، الشاطئ رحل عنه رواده عند غروب الشمس ورحيل الباعة وأصحاب تأجير المظلات والمقاعد، يمنحه السكون ومراجعة أحواله من غير رقيب ولا تصنت لما يريد البوح به من تقلبات آلامه ومآسيه، حاول أن يحيا الحياة الكريمة في كل شيء، من بداية خطواته حتى الآن، لا يجد خطوة واحدة تنجح ولو لساعات قليلة، لم يفكر بالذهاب إلى زعيمه وقائده الزعيم سعد زغلول بمحطة الرمل، لا فائدة من الذهاب، الزعيم لا يقدر على فعل أي شيء.

مرت السنين وتوالى المصائب، هل هو السبب في عدم النجاح ولو مرة واحدة في حياته البائسة؟ "شريفة" من أهم أسباب فشله وسوء حالته، لم تقف ولو مرة واحدة في مؤازرة فكره والوقوف بجانبه، هي تعمل دائماً على تحقيره أمام أبنائه والسخرية منه في كل الأحوال سواء بالليل أو النهار، الرضا منها لا يراه إلا في غرفتهم الخاصة بين خطوات الفراش، لا سبيل إلى الرحيل، وإلى أين يرحل بعد فوات الأوان من ضعف قوته وعمره الراحل إلى الفناء؟ لن تعجبه فكرة الرحيل، لم يجد أسماء تعطيه لحظة أمل، أسماء عفا عليها الزمن، رحل من رحل واختفى من اختفى، حتى ولده "علي" رحل للقاهرة دون كلمة وداع أو شكر عن معاناتهم معه في أيام اعتقاله! رحل إلى القاهرة مع امرأته، لماذا كل هذا الغباء منه؟ حتى امرأته لم تذكره بوالديه قبل الرحيل، تماماً كما فعل في زواجه دون حس ولا خبر! لما كل هذه القسوة وهذا العقوق؟!

ضاقت به الدنيا رغم اتساعها وبراحها، التفت إلى قاعدة رأس التين وقصر الملك، هناك كان عمله، هم أيضاً تخلوا عنه بخروجه إلى المعاش، حجج واهية، بلوغ سن الستين عام! أما أصحاب القبعات والنياشين تُمد لهم السنين، وإذا خرجوا على المعاش فلهم كل الاحترام ووظائف أخرى حتى ينتهي أجلهم! شتان بينه وبينهم، هم شعب مصر المُختار ليعلون ويستمتعون ويقهرون كل من يقف في طريقهم!

كل الطرق مُغلقة، كل السبل غائبة، الدنيا كلها ظالمة، حسرته على أحواله تستبد به، سنين عمره تذهب به إلى طريق واحد، لا مفر منه ولا يجد غيره.. الخلاص من كل شيء!

لكن بأي السبل يُتم هذا الأمر؟!

لم يشعر بمرور الوقت وانتصاف الليل، لن يعود إلى بيته، سيظل في الشارع وعلى الشاطئ وبين الرمال، حتى يجد ضالته وطريقه للخلاص مما تضيق به حياته كلها. لن يمل على أن يعجز عما يريد عمله حتى وإن كان ناقصاً أو يصل به إلى الفشل، لن يلجأ إلى صاحبه رجل الأمن المهم، لن يذهب إلى شقيقته "جميلة"، أقرباء وأصدقاء لا يقدرّون على فعل شيء له مما يُعاني، ومن أول أسباب المعاناة، امرأته "شريفة"، لن يبالي ولن يهتم أحد بردعها، أخته "جميلة" تصدها امرأته عن أي شيء من المودة أو الحب، رجل الأمن لا ترى به إلا علامات فضيحتها لفعلتها مع العقيد صاحبه، لا سبيل إليهم في أي شيء في حالته المستعصية المستمرة في العصيان.

ألتفت إلى شارع الحجاري، هناك يوجد الحل، ما عليه إلا الذهاب إلى هناك، هي تعمل بالليل والنهار من البيع والتجارة في المزاج، حبيبة "شريفة" الست "أم حربي"، هي حلالة العقد ومُصلحة الأحوال بين أهل الحارة، ملكة زقاق بندقة، الجميع في طاعة لأوامرها.

كتم حزنه، لم تهتم بالحديث عن "شريفة"! لم يصبر حتى نهاية اللقاء، عليه الانسحاب، هي لا تملك شيء من الحل، استجاب إليها، قطعة الحشيش في يده! لم يشكرها على هديتها التي يكره حتى أن يحملها!

التفت إلى طريق العودة، شاطئ الأنفوشي، هناك المتسع من الوقت ليصل فيه لحل مشاكله، لم ينس القذف بقطعة الحشيش على جانب الطريق.

أراد أن تعود ليالي الحب كما في الماضي القريب، صعد بها على درجات مسجد المرسي أبو العباس المُغلق، تغيرت أحوال ساحة الأولياء الصالحين من الأضواء الفاضحة لكل من يريد أن يختفي في الظلام وعمل ما يحلو له من ألوان الغرام، "بيحة" تفعل ولا تهتم، لم تستج من ضم جسدها إليه، هو في قمة الفرح بعودة أيامه الحلوة معها، لا خوف من أي شيء، هي لا تعلم بخطوات الزنا مع "ثرثيا"، ولم تشعر بغيابه في تلك الليلة المشؤومة، بيتت البغايا بزقة الستات.

كم كان رجل الأمن صاحب والده إنساناً رائعاً، كتم الخبر وأغلق التحقيق، كان على قناعة بكل ما صرح له من أحوال تلك الليلة مع شقيقته "ثرثيا"، هو بريء كل البراءة من قتلها، هي وحدها التي اختارت تلك الموتة وهذه النهاية، هو لا ذنب له في قتلها، كلمات رجل الأمن كانت عودة لروحه وهيامها الضال في طريق الزنا:

- عليك الاستغفار عما فعلت.

أقسم له بالتوبة والسير في طريق الاستقامة والعودة إلى حبيبته "بيحة"، وها هي بين أحضانه، لن يحنث بعهدته وقسمه، كان يتمنى اللحاق بالمسجد قبل الغلق والجلوس في رحاب الطاعة، "بيحة" تبث أنعامها الفائتة:

- "لملوم" قمري الذي لا ينقص ولا يغيب.

يريد أن يجزل بالعطاء ولا يبخل في أي شيء، أخيراً بدأت الأحوال تستقر ويعالج مرور الزمن في نسيان الماضي.

"لطفی" و"شریفة" فی لہفۃ لأخبار سعیدۃ من الحمل، "بیحۃ" بارعۃ فی الإیحاء والکذب کما تظن بکذبة بیضاء لا تضر، انتبه ہی فی طریق النوم، أمسک بیدها، ما زال فی الوقت متسع.

توقف أمام مسرح شهرزاد، الأفراح والغناء علی أشدها، أمسک بیدها، بارک لتشریفة الاستقبال علی أبواب القاعة، زاد من التهنئة وحرارة الأكف، تمت فرحته هناك ما زالت مقاعد شاغرة، ابتسم إليها، هو یعرف کیف یتصرف فی هذه الأفراح وإن کان غیر مدعو، کم من المرات قضی وقته مع أصحابه بالتمتع بین الأفراح، حکى لها الواقعة الضاحكة، یدخل مع أصحابه فی مسرح یتذکره جیداً، مسرح تر وبيکو، لم ینتبه أصحابه لمن هذا الفرح، یصعدان درجات السلم، یدخلان إلى قاعة المسرح وإذا بالمفاجأة، فرح من أهل النوبة، لا یوجد من البیض أحدًا، الجميع ذوی بشرۃ سوداء اللون، لم یسلم هو وأصحابه من العقاب الوافی من الضرب والركل والانكفاء حتی آخر درجات السلم.

انطفأت الأنوار بدأت خطوات ومشاهد الحفل من الغناء والفکاهة، کان یتمنی أن ینال مثل هذه الفرحة، ظروفه كانت هی الحاكمة فی مراسم زواج، هی ومراسم العزاء سواء، تمنی الجلوس علی مقاعد العرس هو وحبیبته وهي ملكة متوجة بتاج تعشقه کل امرأة وتتمناه کل فتاة، هو یرید أن یكون ملکاً یتکئ علی مقعد العرش، یُحیی الجماهير، یملأ أحاسیسه بکل ما هو جمیل فی تلك اللیلة، لا مفر من نسیان کل تلك الأحاسیس، شیء واحد

عوضه عن كل هذا.. "بيحة" في أحضانه، عودة العشق والهيام بجمالها يُنسيه كل هذا، يرحل به إلى عالم المتعة الدائمة، يلتهمها في أي وقت ويُمتعها كيفما تشاء.

التفت إليها هي الأخرى، عيناها تشع منها حرارة الحب، هي أيقونة في سياحة مع مشاهد الفرح وبهجة الترحاب بالعروسين، أضاءت القاعة أنوارها، الآن توزيع ما لذ وطاب من الحلوى، عليه الانصراف، لا حاجة للإخراج، أخذ بيد حبيبته بهدوء، في خطوات متثاقلة لا يريد أن يلفت إليه نظر أحد من أصحاب الفرح.

هواء البحر مُنعش يُجدد النشاط، سلم يده إليها عبرا إلى الكورنيش، عليه الصبر وانتظار الخطوة القادمة من الحبيبة، استمع إليها، لم يلتفت يمينًا أو يسارًا، لا يريد أن ينهي هذه اللحظات من الحب الذي بدأ من جديد، هو أقوى من الماضي، جمالها طاع، على صدره شعرها الأصفر وجسدها النحيف ولون ثغرها، كلها تبهر ويركع لها أي قلب، جمال مُكتمل بالبحر من ورائها بأواجه المتواترة وزبده الأبيض.. لوحة ربانية، لا بد من الحفاظ عليها والتمسك بها.

انتبه إلى الصوت القادم من الغمام، "ليل" الخرساء تُلوح له من بعيد، هي لا تقترب، ما زالت في ردائها الشفاف، حاول أن يصد ارتعاشه، شقيقته "ثرثا" تلحق بها، تقف بجانبها، هي كحالتها عارية كما رآها في المرات السابقة في

بيت البغايا أو مصاحبة فينوس في حلم الشاطئ، لا حيلة له إلا
الانسحاب من هذه الكوكبة من الحب.
يمسك بيد حبيبته "بيحة"، يُقبلها في قناعة باختيارها وحبها لها يعلن لها،
هذا حبه وعشيقته وزوجته.
التفت إلى فينوس و"ثريا":
- هذا قراري، كفى رجوعاً إلى الوراء.
لم يستطع الصمود أكثر من ذلك، فينوس في عراك مع "ثريا" عليه الفرار
هو خائف، لا يريد أن تؤذي إحداهن "بيحة" حبيبته.

وقف بجانب البوابة العريضة، كم هي مرعبة، تفوح رائحة الموت من داخلها، هي وما بداخلها سواء في كل شيء، عليه الصبر حتى الدخول، كان يردد:

- إن ضاقت بكم الصدور فعليكم بزيارة القبور.

لا يمكنه المرور إلا في وسط المشيعين للجثامين، طقوس الدخول لها من الأسرار الكثيرة لا يعلمها إلا القليل، يسأله الحارس:

- لمن الزيارة؟ ومن أي عائلة؟

لن تمر الدقائق حتى يرى تربة المدفن في المواجهة، تنسيق عجيب بين الحارس والترابي من أجل الاسترزاق من الزائر ببضعة جنيهات، هذه الأمور تُجبره أن يندس وسط أي طابور من حاملي موتاهم داخل المدفن، جاء فرج الدخول، نفذ خطواته بكل دقة، بل تمادى في حمل هذا الراحل الميت، اقترب من قبور العائلة، أشار إلى رجل آخر بالحمل من أجل الراحة.

وقف أمام قبور العائلة، لم يلتفت إلى قبور الرجال، أبوه يقطن في إحداها، انتبه إلى قبر أمه، جثا بجانبها يتلو بعض آيات الكتاب. سرح في شقاء الأيام معها، عانت الكثير من أجل أن يُصبح رجلاً يُعتمد عليه، قبر متواضع كما كانت معه في حياة أيامها، ترضى بالقليل، لقنته كسرة الخبز، ما زال يحتفظ ببعضها في بنطاله.

التفت إلى قبر والده، شموخ العائلة يتجلى في هندسة بنائه، رضى بعائلة أمه في قائمة البروليتاريان، لم يستجب لحياة الجاثم في القبر، لم يعجب بحياة

البذخ وتقليد البكوات والباشاوات مثل والده، قناعته بحب أمه، هو راضٍ كل الرضا بما مرت به من أحوال.

انتبه إلى التربي يقترب منه، لن يتراجع، عليه التصدي لابتزازه ولو بقليل مما معه من نقود وهي معه قليل، أشار إليه بالقبر المفتوح، جثا على الأرض، لم يستطع تحمل الخبر، قبر شقيقته "جميلة"، هي في طريقها لمثاوها الأخير! عمد إلى تجاهل عائلته، لم يُسلم على أحد، أعطى ظهره للجميع عسى أن تتم مراسم الدفن، لم ينتظر كثيرًا حتى انتهى الدفن، التفت إلى أهله وعائلته، الجميع متواجد، هذا ابن العم المليونير وهذا المستشار وهذا الطبيب صاحب المستشفيات الخاصة وهذا وهذا، لم يترنح ولم يكظم غيظه، غيظه الذي صبر عليه من سنين فائتة، وأحداث صاخبة وعزلة من حديد له ولأسرته، يتقزز منه الجميع، هو الفقير المعدم عامل دهان الموبيليا، الأسطى "لطفي"، أصابعه تحمل بصمة مهنته من جميع الألوان يحملها على أكفه وأصابعه!

صعد على قبر والده، أشار إلى تلك الصُحبة الخربة، لم يقدر أحد على الانسحاب، الجميع يخاف منه، يخشاه، وهذا ما تمناه عليه الآن، التكملة: أشار إلى ابن عمه يهم بالانسحاب، أمره بالتوقف:

- أنت أولهم في حفل الموتي، أنت ومن في القبور.. سواء شقيقي جميلة تحت التراب، أنا وأنت وهؤلاء الأقزام سنلحق بها وقت ما يشاء.. أنا العبد الفقير

"لطفني" أتبرأ منكم، أنتم لم تصلوا حتى إلى مرتبة الجماد، هذه الحجارة أكرم منكم، بل وأشرف كذلك.. أنتم جنباء تعساء يعميكم الكبرياء! لم يستطع أحد الرد عليه أو الانصراف، اقترب منه ابن مَن سبه وأوقفه، هو يعرفه جيداً من الصغر، كم جلس يداعبه بالصغر، الآن يزهو ببدلته العسكرية، أشار إليه بالتوقف:

- هذه نهاية خطواتك لنا، لن تقترب أكثر من هذه الخطوات، لن تُخيفني بما تحمل من رتب أنت وأبوك، بل وعائلتك وليست عائلتي، أنا متبرئ منها، اعلم وهذه نبوءتي وخبري إليكم، أنت أول مَن سيلتحق بهذا المكان. أصابعه تشير إليهم جميعاً: أنت وأنت وأنت.. أيتها العمة المتعجرفة كم فرقت بين الأحبة. كم فرقت بيننا وسممت عمرنا.. أليس في الموت عظة وعبرة؟ أليس في هذه القبور وحشة ورجفة؟ لا تهتمون إلا بأموالكم ومتاعكم وأصحابكم.. أنا المنبوذ الغلبان أنا أنا..

لم يستطع الثبات، قبر والده يسقط به في داخل ظلمته، لم يتقدم أحد لإنقاذه أو مساعدته. رحل الجميع! سمع ضحكاتهم وهم في طريق الخروج من المدافن! ثرثرة كلماتهم تصم آذانه، تحطم آماله، لم يُكمل ما أراد إعلانه..

سعد باليد التي تدخل في القبور تُخرجه، تُربي المدفن، لم ينبس بكلمة، أدار ظهره وهو ينفذ ثيابه من أتربة الموقى.

لم يرث لحاله، عليه الصبر بما أصابه من كل شيء، رحيله من الإسكندرية دون وداع أبويه، كارثة لم يشعر بها إلا في هذا الوقت وتلك الظروف، كم هو عاقٌّ لوالديه، يخرج من المعتقل ويرحل للقاهرة دون كلمة وداع أو شكر لهم!

الخطأ يتكرر كما كان في الأعوام السابقة، يتزوج دون إخبارهم أو دعوتهم لمباركة الزواج، وها هو يُفرج عنه ويرحل دون أن يخبرهم بخروجه هو وزوجته!

الآن يشعر بالذنب، وها هي عواقب العقوق، يُفصل من عمله، هو خطر على الأمن العام! ليس له ذنب في كل تلك الأحداث، ذنبه الوحيد هو والد زوجته الشيخ الطاعن في السن، ولا يريد أن يتزحزح ويبتعد عن الجماعة الإسلامية، يُصر على كلماته:

- لن أهدأ حتى تُرفع راية الإسلام، ويعم العدل في أنحاء وأقاليم مصر.

يا له من عدل! يُفصل من عمله، ولا يترنح الشيخ الكبير! يُطمئنه:

- هناك من العمل الكثير، لا تقلق، رزقك مكتوب في السماء، ما عليك إلا الثبات وانتظاره حتى يأتي.

حبه لابنة الشيخ هو مفتاح الصبر حتى يأتي الفرج.

لم يتعود أن يكون عالة على أحد، حتى وإن كان هذا الشيخ وأسرته، لم يرَ أي مظاهر من التذمر على أحواله، هو عاطل يحيا بينهم، لم يتغير شيء،

الطعام والشراب والفاكهة، حتى الخروج مع امرأته والتنزه على شاطئ النيل، كل تلك الأحوال لا تُهدئ من فكره أو تنحيه عن البحث عن عمل. مضى شهران، ولم يُفتح له باب من أبواب الرزق، خبرته في عمله الحكومي تفشل في أن يجد مثله بالقطاع الخاص، روتين الحكومة لا يعجب القطاع الخاص، عجز عن إقناع أصحاب الأعمال بخبرته وهو يمتلك الكثير من القدرات، وتأتي النهاية بالإجابة الملعونة:

- ليس لك أقرباء في جهات تفيدنا في أعمالنا، نحن نريد مَنْ يُسهل لنا تلك الأعمال.

إجابة صادمة قاسية عليه وعلى أمثاله الباحثين عن عمل، التفت إلى تمثال أبو الهول، وها هي الأهرامات أمامه، والسائحون في كل مكان من حوله، هذه فرصته التي غفل عنها، لغته الإنجليزية هي مفتاح الفرج والتعامل مع الأجانب.

اقرب من أحد باعة التُحف، لم يرفض البائع معاونته في التحدث مع الزبائن، لم يُكمل حديثه، تلوى ذراعه وقُذف به في سيارة الأمن!

لم يُفصح لـ"بيحة" عن اشتياقه لنغمات حبه، لذكرياته والمرور عليها من حين لآخر، هو في حذر وخوف من أن تُثنيه عن ما يدور بخاطره، قدم عذره إليها وهو في طريق الخروج، واجب العزاء لإحدى زميلاته في العمل واحتمال العودة في منتصف الليل، هو في لهفة وشوق لهذه الأمكنة، إلحاح حب الذكريات يُطغى على فراق حبيبته والكذب عليها! عليه أن يفرد أشرعته، ينطلق مع الرياح والأمواج، يهتدي بنجوم الليل، يُطلق العنان لقلبه ليستقر كيفما يريد، سلم دفة ذكرياته لقلبه، هو القبطان وهو الأمر والناهي ومن أين يبدأ؟

قلبه يرقص، يرقص معه، يقفز بين أحجار عشه الهادئ، بيته القديم ما زال يتحدى السنوات وزمانه الذي فات من عشرات السنين، تجاعيد الشقوق هي وتجاعيد وجه أبيه "الطفي" سواء.

التفت إلى سينما الأنفوشي، تغيرت الأحوال، مسرح يعج بزغاريد النساء، زفة عروس، رحل وقارها وإعلاناتها بالنجوم العرب والأجانب، رحل الجميع، لم يبقَ إلا بقايا صور محطمة منقوصة الاكتمال كما هي حالها الآن، لم يعجبه الحال.

عرج إلى شارع الحجاري، هناك أصحابه القدامى، حاول العثور عليهم، لم يجد غير شقيق "عاصم"، كم كانوا على درب الأفلام الأجنبية هائمين، سينما بلازا وسينما رمسيس ولهمبرا، فسحتهم الأسبوعية، ذكرياتهم وتمردهم على سينما الأنفوشي ورأس التين، هم في شغف إلى مشاهدة أفلام الحب

والمغامرات، لا يجدونها إلا في تلك الأماكن. الحجاري تغيرت، رحل مَنْ رحل ومات مَنْ مات، حزن على صديقه الكبير "ممس" المعيد بكلية الزراعة، مات من أعوام، لحقته حبيبته ست البنات. أهل الشارع لا شاغل لهم إلا الحديث عن حب "ممس" لست البنات.

لم يصبر على سماع بقية الأخبار، شكر ووداع، عليه الاتجاه إلى... آه لم يقدر على فوات أمكنة حبه، زقاق بندقة. التفت إلى بيت فينوس الخرساء، متهالك يأذن بالسقوط! لا يسكنه أحد، كم من قبلات الغرام على درجاته !!، التفت إلى شرفها العالية، أين هي؟ أين بسمتها ونداء حبها وحيلها؟ مشبك الغسيل ترمي به، يلتقطه، يصعد به إليها، يتم الحب في حياء، لا تبخل عليه، تعطيه ما يشتهي، دائماً جسدها يخضع له بكل ما يملك من أحاسيس ونغمات مأمأة، هو يعشقها يذوب فيها، هي أحلى من كل أغاني الدنيا.. دارت الأرض تحت أقدامه، يترنح، لا يقدر على الوقوف، جلس على درجات السلم، الظلام ورائحة المكان، يريد أن تكون بجانبه، الشهور تمر ولم تأت إليه في ثوبها السرمدي، يريد أن يراها، يريد نسمات حبها الراحل، لا تُجيب على نداء قلبه، هو وحده في ظلمة الليل وعلى درجات حبها يجلس، أين فينوس حبه؟ أين "ليلي" الخرساء؟ لن يرحل قبل أن يُكمل معها لحظات الحب وإن كان سرمدياً.

انتبه إلى القادم، "أم حري" بائعة المزاج، لم يسلم من كلماتها اللاذعة، هو يتلقاها كما في السنين الفائتة:

- يا روح أمك يا حبة عيني، أما زلت تعشقها وتتمناها. ألا تشبع؟! تزوجت ومازلت على حالك! عليك أن تنساها. هي في المدافن. اذهب إلى حضن امرأتك.

لم تبخل عليه بخبر حضور "لطفی" إليها للخلاص من "شريعة" منذ أيام:
- كلکم کلاب، لا تحبون إلا الفراش أنت وأبوك، هو ينكر "شريعة"، وأنت تخدع امرأتك!
لم يصبر عليها أكثر من ذلك، أسرع بالرحيل من الزقاق قبل أن يخرج عليه النهار.

لم تهتم بسقوط المطر ودخول الليل، الليل يسترها من عيون المتلصصين عليها من الجيران وأهل الشارع، حتى "لظني" أصبحت تكرهه، تفر من أنفاسه.

عليها قضاء بعض الوقت للراحة من عذاب مَن حولها حتى وإن سارت تحت المطر، تبتل، يلتصق ردائها بجسدها، لن تهتم، عليها الإسراع إلى شاطئ البحر، هناك على الرمال تجد مُتعتها، صفحات ذكرياتها الحلوة والمرة. ضاقت بها الأحوال، "ملوم" يمرح مع امرأته، "علي" لا تعرف عنه أي أخبار، زهدت في كل ما كانت تتمناه أن يدوم، فراغ الحب يدفعها إلى الشاطئ وبين الرمال، ليس عندها ما تُفضي به إلى البحر، هو ساكن مثلها بلا أمواج ولا صوت، يخل عليها حتى براحتي التي تعشقها.

خلعت ردائها المبتل، أكملت خلع كل شيء! لا شيء يسترها! ولمن تريد الستر؟ ما عليها إلا استقبال المطر على بدنِها، تتلذذ به، يُغنيها عن مرارة أحوالها، لم تطمئن إلى ظلام المكان، تطمئن لهطول المطر، مَن المجنون الذي يفعل ما تفعله؟ هي وحدها تُصر على فعل الجنون! هي في راحة لما تفعل، أهي تسخر من نفسها، أم تريد الانتقام من حياتها البائسة؟

لن تعود إلى مَن رماها في براثن الزنا، أهو الفقر أم العشق أم ما الذي أورها تلك المهالك؟ ضاعت ابنتها "ثرثيا"، حُرقت بنار العشق، خربت على بيتها بيدها لا بيد أحد، زوجها الديوث هو الذي أورها في نار الجنس برغبته، لا أحد فتح لها أبواب الرزيلة، هو الفاتح لكل أبواب الشر، ترك لجامها على

السائب، هي مظلومة محرومة من مُتعة فراشها، لم يعرف كيف يفتح أبواب لذتها، بحثت عن الفاتح الفالح، الخادم نجح في الفتح والزيادة! لم يعجبها انقطاع المطر، عليها ارتداء ما يسترها، فشلت في تكملة سترها، رجال الشاطئ يلتفون حولها، تعرفهم كما كانوا بالماضي يهرولون وراء امرأة الشاطئ، هي الآن تلك المرأة تفعل خطواتها، تُسرّع بين الكبائن، تريد الفرار من هؤلاء الذئاب الجائعة! سنوا أنيابهم بالحشيش وخمر الكحول، لا سبيل إلى الهرب، خارت قواها أمام شهوتهم الجامحة، هبطت على الرمال، نوافذها تُفتح طواعية، لا تقدر على الصد أو الصمود! التفتت إلى القمر، كم هو جميل في تلك الساعة من الليل!

الدنيا كلها تدور من حوله، أركان الحجرات تكتم أنفاسه، تشل حركاته، تضغط عليه، هي والقبر لا فرق بينهما..

غياب "شريفة" يُحطم كل شيء، عذاب أربعة من الليالي السوداء، لا حيلة له في البحث عنها، لم يكل بحثه بين الشوارع والحارات صباح مساء، يفشل ولا يستطيع إخبار أحد بأحواله عنها، يكفي ما جرت عليه من عار في السنين الماضية، لن يُكرر الماضي، لن يطأطئ رأسه مرة أخرى أمام أهل حارته، يكفي ما كان من خراب ومصائب، لا يقدر أن يأخذ أنفاسه، "شريفة" تزني، و"ثريا" تزني وتحترق، وولده "علي" لا يعرف أين هو؟ وما هي الطامة الكبرى، رحيل ابنه "ملوم" ليستقر في سكن مُستقل. "بيحة" أصرت على الرحيل!

لمن يشكو حاله؟ لا أحد، عُرف فارغة سوداء، هي التي تشتكي له عن أحوالها، لا يريد أن يستمع إليها، أين من يستمع إليه؟

تخلى عنه جميع أحبابه، حتى صاحبه رجل الأمن المهم رحل خارج مصر، لماذا لم يفعل مثله ويرحل هو الآخر؟ وإلى أين يستقر؟ دنيا لعنة على الشرفاء أمثاله، لم يصبر صاحبه على أحوال مصر بعد رحيل الزعيم المؤمن السادات، فر مع حبيبته، عرف كيف ينجو، هو يعرف ما يتوارى خلف الكواليس من أحوال، لم ينس نصيحة آخر لقاء:

- عليك الراحة من فكرك وآمالك، لا فائدة من كل ما تصنع، لن يلتفت إليك أحد.

لم يلتفت إلى كلماته، هو مُصر على تكلمة رسالته، الحرية هي غايته، طال عمره وكبرت آماله، وما زال يتنفس من سنين الملك والثورة من نكسة وانتصار، هو يتحمل ويصر على مواصلة أحلامه التي تنتهي في هذه اللحظات، ينهزم في عُقر داره، إشارات من الفشل تُحدد اتجاهاته وتهزم عزائمه وتحطم كل شيء!

لا سبيل إلا الرحيل، مغادرة سكنه الملعون وعائلته المنحوسة، بحث عن بنطاله القديم المرقع وقميصه العبك، لم يلتفت إلى حذائه المثقوب، ليس في حاجة إليه مثل حافظة نقوده المتواضعة ببعض النقود، أخرج تحقيق شخصيته، لم يتردد في تمزيقه، قذفه في أركان الغرف، اطمأن إلى كسرة الخبز التي ما زالت قابعة في بنطاله، الآن عليه الرحيل، لم يُغلق مزلاج الباب، تركه على حاله، هبط درجات السلم في حذر، لا يريد من أحد أن يراه، يكره الجميع، كلهم سواء في القائمة.

التفت إلى شاطئ البحر، كم هو خادع استمع إليه كثيراً، لم يدلّه على أي شيء من الحل، يستمع فقط، يُسجل ويقلب صفحات أمواجه لكل مَنْ يشكو.

لن يمر أمام أحد سيعبر إلى الشاطئ، الظلمة تساعد على السير دون حرج وهو حافي القدمين، يعرف إلى أين يذهب، إلى صاحبه وقائده وملهمه، الزعيم لا يبرح مكانه ولا يمل ولا يتعب، هو الفارس الذي تحدى الملك، جمع كل أهل مصر، ثورته تهز أحوال العالم، هو مثله يسير على خطواته.

اقترب من حديقة الزعيم سعد زغلول، انتشى بالفرح والغرور، لا يوجد أحد من مريديه تحت أقدامه، هو وحده سيكون مريده ومُرافقه، لا أحد يتحمل مثله شتاء الإسكندرية حبيته.

صعد درجات منصة الزعيم، أخرج كسرة الخبز، قضم بعضها، لم يصبر بإنهاء مضغها، بلعها!

التفت إلى المرأة حاملة غصني الزيتون، ما زالت نظرة السخرية تحتويها، لم يغضب، يكفيه ما به من هموم، أشار إليه، هز أقدامه الحافية، لم يلتفت إليه، أعاد الهز عسى أن يلتفت له، هو على حاله يزهو بجسده النحاسي، يتأنق بطربوشه الثابت فوق رأسه لا يهتز ولا يتزحزح مثل أقدامه الثابتة على قاعدة المنصة! لم يصبر، عليه أن يُحدثه.. نعم، الزعيم دائماً يستمع له، يعرف كل أسرارهِ وما مر من عذاب امرأته وعذاب حرّيته، لم ينجح في التحدث بالمزيد من أحواله.

جلس على درجات المنصة تحت أقدام حاملة غصني الزيتون، ليس للراحة، يريد أن ينصت يتلصص على حديث زعيمه مع قلّعتهِ المشلحة من كل شيء، تهزأ بها الأمواج تلطمها من كل اتجاه، هل يبدأ بها ويفضحها أمام زعيمه وقائده؟

انتفض! نظر إلى القلعة، من هنا يبدأ حديثه، من هنا يكشفها ويفضحها، هي الملعونة عبر الزمان. التفت إلى الزعيم، ما زال لم يلتفت إليه، سيبدأ خطابه السرمدى:

- أنا الأسطى "لطفى" حامل رايتك مؤمن بعقيدتك أحب خطواتك..
 أعشق كلماتك، منتمي إلى ثورتك..
 لا تخذلني ولا تلومني ولا تفضحني.
 أشار إلى المرأة حاملة غصني الزيتون، لا تعجبه نظرتها، تُشعل نيران غضبه
 وعليه تأديبها:

- لا تُخدع مثلي بما خدعتني به امرأتى، هن سواء في كل شيء، تحت أقدامك
 لا تتحرك من مكانك، لكن أين قلبها؟ أين عشقها؟ أين حبها؟
 لا تنخدع بغصني الزيتون، هي تزين كي توقع فريستها، أنت فريستها!
 لا تتحرك من على منصتك، ولا تبرح مكانك ولا تطلب المغامرة.
 كبلتك بحبها كما خدعتك قلعتك بعلو أسوارها وحصونها.
 أنت زعيم الأمة، فأين الأمة؟!..

فشل في جذب غصني الزيتون، هم ثابتان في كفها النحاسي، بل فشل في
 طرحها على أرض المنصة! جُنّ من سخريتها منه، قهقهة ضحكاتها تدوي في
 السماء، لا يقدر على فعل أي شيء كما فشل مع امرأته "شريفة".

التفت إلى الزعيم، أخيراً التفت إليه وعليه تكملة خطابه السرمدي.. لن
 يتحفظ في كلماته، لن تكون حانية، ولن تكون مؤدبة، كفى تأدباً وكفى
 حناناً، سيصرخ بأعلى صوته، سيُسمع العالم كله ستُحفظ كلماته، ستُكتب
 في التاريخ بماء الذهب:

- خدعتنا ووعدتنا، ولم تلبِ حتى نداءنا، هنا نأتي ونتوسل إليك، قلعتك مشلحة، كل ألعبيها أن تبقى مُصانة مكرمة لا يهملها من هو حولها، نحن أمة مُهانة مُداسة، وأول من داسها قلعتك الزائفة، لم تُجِب يوماً نداءك ولم تنضم إلى ثورتك.

لم يهتم بسخرية المرأة ونحاسها وضحكاتها، يكفي الزعيم ما زال يستمع إليه بل وجه النحاسي بدأت أوداجه ترتعش، فرك أقدامه من الأتربة، صعد درجات المنصة يريد أن يصفحه، يريد أن يُحركه من هذه الدنيا الزائفة كمثل حاله، اكتشف كل شيء، لكن فات أوان كل شيء، لم يبقَ إلا زعيم الأمة، وما عليه إلا أن يُوقظه من غفلته:

- ألا تذكرني؟ كم هتفنا بجانبك، كم أحببنا عبارتك.
سعد يحيا سعد...

يا ترى من خدعنا، أنت أم من؟! ألا ترى حالي وأحوالي؟ كم شكوت لك عنها، كم استمعت لنصائحك، وما هي أحوالي، فشلي في كل شيء. لا أنيس ولا حبيب ولا أبناء ولا أمة، هي غائبة، بل ميتة، تُجهز لتُدفن بين الأتربة. أخرج كسرة الخبز من بنطاله، قذفها في الهواء:

- أترى؟ لا أريد أي شيء من هذا الوطن، ملعونة تلك الكسرة... لن تذلي أكثر من هذا. سأبحث عن كسرة أخرى أجد لها طعاماً وراحة. وكذلك وطن. لن تفيدك منصتك. لا ينصت إليك أحد!

- أنا مريرك جئت لأخلصك، أنا العبد الفقير "لطفى"، حامى الحمى، قاهر
الغنا، زميل البؤساء، زعيم الضعفاء، ارحل معى إلى هناك...
أشار إلى الشاطئ وأواجه السوداء، انتبه إلى الزعيم يهبط من منصته،
يىصق فى وجه حببته النحاسية، يرمى بغصنى الزيتون، يخلع طربوشه
النحاسى، يقبض على يده، عبرا إلى شاطئ البحر، يدوى صوته فى ظلام
يحتوى كل شىء...

أشارا إلى قلعته المشلحة:

- ملعون أنت وطن، ملعون أنت وطن.

شاركه "لطفى" وهو يتابعه:

- ملعون أنت وطن، ملعون أنت وطن..

قفزا بين الأمواج.

تمت بحمد الله

ثلاثية الأنفوشي

رواية

محمد عزام



الطبعة الأولى

1442 هـ - 2020 م

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع

مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com